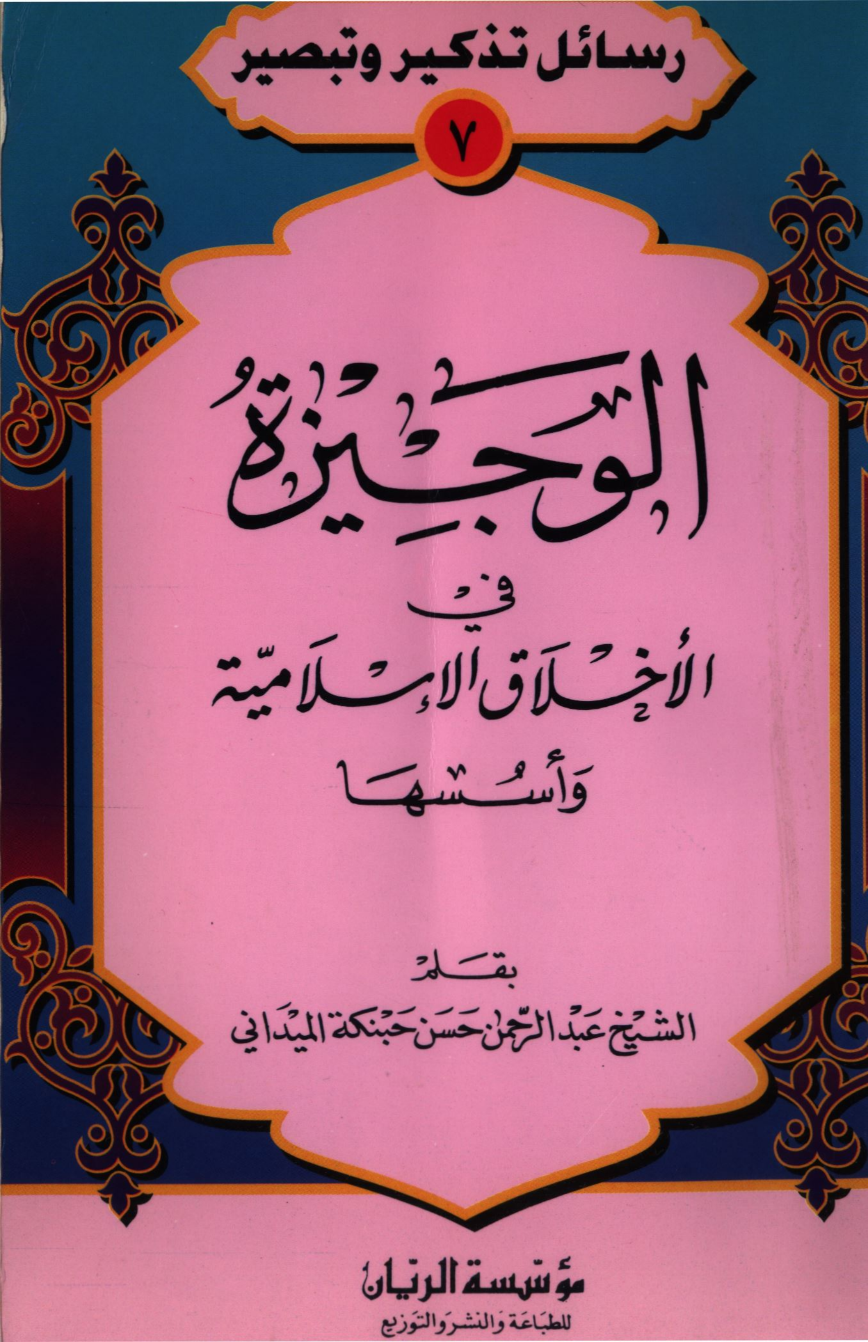

رسائل تذكير وتبصير
٧
الوجيزة
في
الأخلاق الإسلاميّة
وأسسها
بقلم
الشيخ عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني
مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع


الوجيزة
في
الأخلاق الإسلامية
وأسسها



الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

المكتبة المكية

حي الهجرة - مكة المكرمة - السعودية - هاتف وفاكس: ٥٣٤٠٨٢٢

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب ١٤/٥١٣٦ التسجيل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١

رسائل تذكير وتبصير
(٧)



بقلم
الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة المكية


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمدُ لله الرحيم الرَّحمٰن، الكريم المنّان، ذي الجود والإحْسَان، والْفَضْلِ والإنْعام، الْحَميد الشَّكُور، الْعَفُوِّ الْغفُور، الْحَليم الصَّبُور، الّذِي لَهُ الْمَجْدُ الْأَسْنَىٰ، والْأَسْمَاءُ الحسنىٰ، تَقَدَّسَ في ذَاتِهِ، وتبارك وتَعَالىٰ في أسماءِ وصِفاتِهِ.

والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد الرَّسُولِ الكريم، ذي الْخُلُقِ العظيم، وعلى سائر النبِيّينَ والْمُرْسَلِين، وآلِ كُلٍّ وصَحْبِ كُلٍّ أَجْمَعِين، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلىٰ يومِ الدّين.

وبَعْدُ: فهٰذِه وجيزةٌ مختارةٌ من كتابي «الأخلاق الإسلاميّة وأسُسُها» الْتَقطْتُها منه استجابة لرغبة بعض طلّاب العلْم، إذْ رأَوْا أنَّ هٰذا الكتاب الذي يقعُ في مُجلَّدَيْن كبيرين، والّذي كان المنهجُ في كتابته الاعتماد على الاستنباط المباشر من القرآن والسُّنَّة، والْأُسُسِ الْفِكْرِيَّةِ الصّحِيحة، لا يُنَاسِبُ الراغبين في الاطّلاع على

صورة مختصَرَةٍ مُنتقاةٍ تُعَرِّفهم بالأخلاق الإسلاميّة المقتبسة من مصادر الإسلام بشكْلٍ مباشرٍ، دون الرُّجوع إلى آراء الباحثين في الأخلاق الّذِين لم يَهْتَدُوا بِهَدْي مصادر الإسلام، من قُدَماء ومُحَدثين غَرْبيين أو شرقيين.

وأرجُو أن تشجّع هذه الوجيزة من يَطَّلِعُ عليها أن يَهْتمَّ باسْتِكْمَالِ دراسته للأخلاق الإسلاميَّة من خلال الكتاب الموسَّعِ الذي التقطت هذه الوجيزة منه.

اللَّهُمَّ علِّمْنَا ما ينفعنا وانْفَعْنا بما علَّمتنا، وزدنا عِلْماً، وآخِرُ دَعْوَانا أن الحْمدُ لله رَبّ العالمين.

مكة المكرمة

في ١٦/١/١٣١٧هـ ٢/٦/١٩٩٦م

عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني

الباب الأوّل

كُلّيّات تأسيسيّة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريفات وبيانات تمهيديّة.

الفصل الثاني: مفهومات من الأسس العامّة.

الفصل الثالث: المسؤولية عن السُّلوك الأخلاقي وشروط ترتيب المسؤولية.



الفصل الأوّل

تعريفات وبيانات تمهيدية

وفيه تسع مقولات:

المقولة الأولى: تعريف الأخلاق.

المقولة الثانية: مدارك الأخلاق وأسسها.

المقولة الثالثة: تقسيم ما جاءت به الشريعة الإسلامية من وصايا وأحكام إلى كليَّاتٍ عامّة.

المقولة الرابعة: ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية.

المقولة الخامسة: موقف أعداء الإسلام من الأخلاق الإسلامية.

المقولة السادسة: عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحرصُهُ على تقويم الأخلاق.

المقولة السابعة: تمجيد الإسلام الخلُق الحسن وحثُّه عليه.

المقولة الثامنة: الكليّات العامّة الّتي تنضوي تحتها مفردات الأخلاق.

المقولة التاسعة: شمولُ الأخلاق.



المقولة الأولى

تعريف الأخلاق

يقتضينا البحث أولًا أن نُميّز الأخلاق عن غيرها من الصفات الإنسانية، وأن نُميّز أنواع السلوك التي هي آثار خلقية عن أنواع السلوك التي ليست آثاراً خلقية؛ حتى نعرف موضوع البحث الذي نحن في صَدَدِه، فلا يختلط علينا ما ليس من قبيل الأخلاق بما هو منها، وما ليس سلوكاً أخلاقيّاً بما هو سلوك أخلاقي.

ولدَىٰ التأمل وإمْعَان النظر يتبيَّن لنا أنَّ الخلُق صفةٌ مستقرَّة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ ذات آثارٍ في السلوك محمودةٍ أو مذمومة.

فالخلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، ويَنْهَىٰ عن مذمومها.

ونستطيع أن نَقِيسَ مُسْتَوىٰ الخلُقِ النفسي عن طريق قياس آثاره في سلوك الإنسان: فالصفة الخلُقِيَّة المستقرة

في النفس إذا كانت حميدة كانت آثارُها حميدة، وإذا كانت ذمِيمة كانت آثارُها ذميمة، وعلى قدر قِيمَةِ الخلق في النفس تكون ـ بحسَبِ العادَة ـ آثاره في السلوك، إلّا أن توجد أسباب مُعَوّقة أو صَوَارفُ صادَّةٌ عن ظهور آثار الخلُقِ في السلوك.

ولَيْسَتْ كُلُّ الصفات المستقرة في النفس من قبيل الأخلاق، بل منها غَرائزُ ودَوافِعُ لا صِلَةَ لها بالخلُق، ولكنّ الذي يَفْصِل الأخلاق ويميّزُها عن جنس هذه الصفات كوْنُ آثارها في السلوك قابلةً للْحَمْدِ أو للذّم، فبذلك يتميَّز الخلُق عن الغريزة ذاتِ المطالب المكافئة لحَاجَاتِ الإنسانِ الفطرية.

إنّ الغريزة المعْتَدِلَة ذاتُ آثارٍ في السلوك، إلا أنّ هذه الآثار ليست مما يُحْمَدُ الإنسانُ أو يُذَمُّ عليه.

فالأكل عند الجوع بدافع الغريزة ليس مما يُحْمَد أو يذمّ في باب السلوك الأخلاقي؛ لكنّ الشَّرَهَ الزائد عن حاجات الغريزة العضوية أمرٌ مذموم، لأنه أَثَرٌ لخلُق في النفس مذموم، هو الطمع المفرط، وعَكْسُ ذلك أثرٌ لخلُقٍ في النفس محمود، هو القناعة.

والحذَرُ من وقوع مكروه أثر من آثار غريزة حبِّ

البقاء، وليس محلًا للمدح أو الذم في باب السلوك الأخلاقي؛ لكِنَّ الخوف الزائد من حاجات هذه الغريزة أثرٌ لخلق في النفس مذموم، هو الجبن، أما الإقدام الذي لا يَصِلُ إلى حدِّ التهوّر فهو أثر لخلق في النفس محمود، هو الشجاعة.

وهكذا سائر الغرائز والدوافع النفسية التي لا تدخل في باب الأخلاق، إنما يُمَيِّزُها عن الأخلاق كونُ آثارها في السلوك أموراً طبيعية ليست مما تُحمد إرادة الإنسان عليه أو تذمّ.

أنواع السلوك الإرادي للإنسان

ولدى التدبّر في السلوك الإرادي للإنسان، نلاحظ أنه ينقسم إلى أنواع شتى:

١ ـ فمنْهُ ما هو أثر من آثار خلق في النفس محمود أو مذموم: كالعطاء عن جود، والإمساكِ عن شَحّ، والإقدام عن شجاعة، والفرار عن جبن، والإقبال عن طمع، والكفّ عن عفّة، والاعترافِ عن حب للحق، والإنكار عن كبر وإفراطٍ في الأنانية، والإغضاء عن حِلْمٍ، والتحمُّلِ عن صبر، وهكذا.

٢ ـ ومنه ما هو استجابة لغريزةٍ من غرائز الجَسَدِ أو

النفس الفطرية، ضِمْن حُدود الحاجات الطبيعية لها: كالأكل المباح عن جُوع، والشرب المباح عن ظمأ، ومعاشرة الزوجة عن طلب لذلك، والنوم عن حاجة إليه، والسعي في اكتساب الرزق تلبيةً لداعي الفطرة، والاستمتاع المباح بالجمال تلبيةً لطلب النفس، والترويح عن النفس بشيء من مباحات اللّهو واللّعب، وأمثال ذلك.

٣ ـ ومنه ما هو استجابَةٌ إرادية لِتَرْجِيحٍ فكْرِيّ: كأنْ يرَىٰ الفكر مصلحةً أو منْفَعةً في سُلُوكٍ ما، فتتوجه الإرادة لممارسته، أصاب الفكر في ذلك أَمْ أخطأ، كمعظم أعمال الناس اليوميَّةِ في وجوه الكسب وغيره.

وقد يرجع هذا في جذوره إلى تلبيه دافع من دوافع الغرائز الجسدية أو النفسية، أو إلى دافع أخلاقي، أو إلى غير ذلك.

٤ ـ ومنْهُ ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية: كآداب الطعام والشراب، واللّباس والمشي، والنظافة والنظام، والآداب المتعلّقة بالأناقة وإصلاح مظاهر الجسد؛ كتنظيف الشعر وتَرْجِيلِه، وتَقْلِيم الأظافر، وإزالة شعر الإبطين والعانة، وإبداء كلِّ حَسَنٍ وجميل احتراماً لأذواق الناس، وتكريماً لهم، واسترضاءً لمشاعرهم.

وربما يَكُونُ التزام بعض هذه الآداب أثراً من آثار خلق في النفس محمود، وربما يكُونُ إهمالُها أثراً من آثار خلق في النفس مذموم.

٥ ـ ومنه ما هو طَاعةٌ للأوامرِ والتكاليف الربانيَّة أو غير الربانية: وقد تكون هذه الأوامر والتكاليف مُلْزِمةً بسلوك أخلاقي، أو مُلْزِمةً بأعمال هي من قبيل العبادات المحضة، أو بأعمال هي من قبيل الآداب، أو مُلْزِمةً بأعمال تحقق المصالح والمنافع للناس، أو غير ذلك مما يخالِفُ ما سبَقَ أو يناقِضُه.

ومن هذا النوع أوامرُ الشرائع ونواهيها، وأوامر السلطات الحاكمة ونواهيها؛ ونحو ذلك من الأوامر والنواهي.

٦ ـ ومنه ما هو من قبيل العادات التي تتأَصَّل في السُّلوك: وقد ترجع هذه العادات إلى مُوَجِّهٍ أخلاقي، أو مُوجِّه غَرَزِيّ، أو مُوجّه تكليفي، أو موجِّهٍ اجتماعي، أو نحو ذلك. وقد لا تكون أكثر من مُمَارسَاتِ عبث استحكمت بالعادة.

٧ ـ ومنه ما هو من قبيل التَّقاليدِ الاجتماعية، التي تسري في سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض، أو بقوَّةِ

التأثير الاجتماعي. وقد تكون هذه التقاليد حسنة، وقد تكون سيّئة.

وحين تكون قوة التأثير الاجتماعي هي العامل في ممارسة السلوك، فإنَّ السُّلوكَ حينئذٍ يرجع إلى نَوْعِ الطاعة للمجتمع، في أوامر وتكاليف غير منصوصٍ عليها في العبارة.

وهكذا تبين لنا أن السلوك الإراديَّ الإنسانيَّ له أَنواعٌ شتى، فَلَيْسَ كُلُّ سلوكٍ مظهراً من مَظاهِرِ الأَخْلَاقِ في النَّفْسِ الإنسانية.

يضاف إلى ذلك أَنَّه ربما يكون المظهر السلوكي الواحد أثراً لموجِّهٍ أخلاقيٍ تارة، وأثراً لغير ذلك تارةً أخرى.

ويَخْلِطُ بعض الناس مُخْتَلِفَ مظاهر السلوك الإنساني فيَجْعَلُها من قبيل السلوك الأخلاقي؛ وهذا يرجع إلى أَنَّهُمْ لا يملكون تحديداً واضحاً للأخلاق، أو يَرْجِعُ إلى أن رؤْيَتَهُمْ لحقيقة السلوك غَيْرُ واضحة.

وحَشْرُ أنواعِ السلوك الإنسانيّ تحت عنوان الأخلاق خطأٌ فادح، يوقِعُ في أخطاء أخرى أكثر وأكْبَرَ منه، والذي أوقع كثيراً من الباحثين في موضوعات الأخلاق

في أخطاء جوهرية عَدَمُ تمييزهم بين أنواع السلوك الإنسانيّ.

إن الأصل في السلوك الإنساني أَنَّهُ يهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسيّة أو فكريّة أو روحية، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أَمْ لصالح الجماعة، وأيُّ سلوك لتحقيق مطلب من هذه المطالب إما أن يكون سلوكاً خلقياً، وإما أن يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق إيجاباً ولا سلباً.

فقد يجوعُ الإنسان فيأكُلُ ملبياً حاجة عضوية لديه، وهنا نقول: إن تناوله للطعام بتأثير دافع الجوع سلوكٌ لا علاقة له بميدانِ الأخلاق إيجاباً ولا سلباً، ولكن شَرَهَهُ فيه الزائد عن الحاجة والموقع له في المضرة سلوكٌ ناتج عن خُلُقٍ غير محمود، أما قناعته فيه والتزامُهُ بمقدار الحاجة ـ وذلك بِضَبْطِ نفسه عن دوافع الشَّرَهِ ـ فهو سلوك أخلاقي كريم، ناشِىءٌ عن قوة إرادته العاقلة التي تمنعه عن مواقع الضرر. فالشَّرَهُ في الطعام والقناعة فيه لهما أحكام أخلاقية، أما أصل الطعام الناشىء عن حاجة عضوية فهو سلوكٌ فطري طبِيعي، وإن وضعت له أحكام غير حكم الإِباحة فهي أحكام دينية، أو صحِيَّة، أو ذوقيَّة جمالية، أو أحكام تفرضها التقاليد والعادات؛ وهذه

الأحكام سواء أكانت مُصِيبَةً أمْ مخطئة فإن مُسَوِّغاتها ليسَتْ من ميدان الأخلاق.

ونستطيع أن نقول في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اخْتَار أن يأكُلَ طَعَامَ غيرِه ظلماً وعدواناً دون أن يكون له فيه حقٌّ ولا شُبْهَةُ حق؛ فإن سلوكه هذا سلوك ناتج عن خلق غير محمود، نظراً إلى أنَّه تضمن عدواناً على حقٍّ لغيره. أمّا إذا اختار أن يأكل طعاماً له حقٌّ في أن يأكله، وكفَّ نفسه بإرادته عما ليس له به حق، مع تطلُّع نفسه إليه؛ فهو سلوك ناتجٌ عن خُلُقٍ محمود، لأنَّه تضمَّنَ ضَبْطاً للنَّفْس عن هوىً من أهوائها أو شهوةٍ من شهواتها، لتحقيق فضيلةٍ من الفضائل، وهي فضيلة التزام الحق والْبُعْدِ عن العدوان والظلم.

ونستطيع أن نقول أيضاً في حدود هذا المثال نفسه: إنَّ هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكله نظيفاً محفوفاً بالأناقة والذوق الرفيع والجمال؛ فإن سُلُوكَه هذا سلوكٌ يُلَبِّي فيه حاجة نفسية إلى التمتع بالجمال، ولا علاقة له بميدان الأخلاق إيجاباً ولا سلباً، ولكنَّ له حكماً جمالياً قد يدخل تحت عنوان الآداب. وهذا السلوكُ نَفْسُه إذا فعله ليُمْتِعَ غيره بصورة جمالية،

فإنه بهذه الغاية يكون سلوكاً أخلاقياً حسناً، أما إذا تركه استهانة بمشاعر الآخرين، وعدم اكتراث بآلامهم الناشئة عن نُفُورِهم من القذارة والقباحة، فإنه حينئذٍ يكُونُ سلوكاً مجانباً لفضيلة خلقية.

ونستطيع أَنْ نقول أيضاً في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكل من الأطعمة ما حرّمه الدّين لغاية من الغايات الدينيَّة أو الصحيَّة، فإن سلوكه هذا سلوك مخالف لحكم ديني، وربما لا يكون منافياً للأخلاق، إذا قسناه بمقياس الأخلاق، ولكن مخالفة الله الخالق الرازق في أمرٍ من أوامره أو نَهْيٍ من نواهيه سلوكٌ منافٍ للخلق الكريم، لأن الفضيلة الخلقية توجب طاعة الله، وتُحرِّم معصيتَهُ. فتناول الطعام المحرَّم دينيّاً لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، ولكن معصيَةَ الأحكام الدينيَّة الربانية بوجه عام سلوكٌ منافٍ لما توجبه الأسس الأخلاقية، وطاعَتُها سلوك مطابق لما توجبه الأسس الأخلاقية.

أما إذا كانت أحكام مثل هذه الأحكام ناشئةً عن عادات، أو تقاليد، أو طقوس ذاتِ طابَعٍ دينيّ، ولكنَّها من أوضاع البشر لا من أحكام الله، فإن مخالفتها حينئذٍ لا تكون سلوكاً منافياً لما توجبه الأسس الأخلاقية، لأن المفاهيم الأخلاقية لا تُوجِبُهَا من حَيْثُ ذاتُها، كما أنها لا

توجب طاعَةَ العاداتِ أو التقاليد أو الطقوس التي هي من أوضاع البشر؛ إذ لا حقّ لهذه الأمور على الإنسان حتى تستوجبَ منه الطاعة، وإن جرى في أعراف الناس خِلافُ ذلك، فليس كل ما في أعراف الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم حقّاً.

من خلال مثالٍ واحد استطعنا أن نكتشف الفروق ما بين أنواع السلوك، والفروق بين أحكامها، وظهر لنا أن بعضَها أحكامٌ أخلاقية، وبعضها أحكام ذوقيّة جمالية، يمكن أن تدخل تحت عنوان الآداب، وبعضها أحكام دينية بحت: فما كان منها منزّلًا في شَريعَةٍ ربانية صحيحة وجب التزامه طاعة لله وعبودية له، وما كان منها من أوضاع البشر وملصقاً بالدين إلصاقاً دون مستندٍ صحيح من شريعة صحيحة، فلا حقّ له في طاعةٍ ولا التزام، وما كان منها من أحكام فرضتها العادات والتقاليد ـ وهذه أمور تدخل فيها خرافات كثيرة ونقائص يدعو الكمال إلى نبذها ـ فلا تُعْتَبر مخالَفَتُها منافيةً لمكارم الأخلاق، كما أنه ليس للتقاليد والعادات حقٌّ في طاعةٍ والتزام، حتى تُعْتَبر مخالفةُ هذا الحق سلوكاً منافياً للخلق الحميد.

وينبغي أَنْ لا يغيب عن بالنا أن كثيراً من الأحكام الدينية هي أحكام أخلاقية، لأنّ الدين الحقّ يأمر بمكارم

الأخلاق وينهىٰ عن رذائلها، كما أنّ كثيراً من أحكام العادات والتقاليد هي أحكام أخلاقية أيضاً، كما أنّ كثيراً من السلوك الأخلاقي مشمول أيضاً بأحكام ذوقية جمالية، فهو من جهة ارتباطه بالأخلاق له حُكْمٌ أخلاقيٌّ، ومن جهة ارتباطه بالجمال له حكم جمالي يدخله في باب الآداب. وهكذا تتشابك الجوانب، وتلتقي على سلوك واحد؛ وهذا التشابك هو الذي يُلَبِّسُ الأمر على الباحثين، ومن أجل ذلك كان التمييز بحاجة إلى بَصَرٍ علميٍّ نفّاذ، وتحرٍّ دقيق لكل مسألة على حدة، ولكنَّ الذي يهدي سبيل الباحث هو رجوعه إلى الأسس العامة التي تَسْتَنِدُ إليها مكارم الأخلاق.

فالخلق المحمود: صِفَةٌ ثابتةٌ في النفس فطريّةٌ أو مكتسبةٌ تدْفَعُ إلى سلوكٍ إراديّ محمودٍ عند العقلاء. كالأخذ بالحقّ أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى، وتَرْكِ الباطلِ والشرّ والْقُبْحِ وإن وافَقَ الهوى أو الشهوة.

ويمكن تمييز الأخلاق الحميدة عن غيرها بأنَّها كلُّ سلوك فرديّ أو اجتماعي تَلْتَقِي النفوس البشرية على استحسانه، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها. ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعاً من فروعه.

والخلق المذموم: صِفَةٌ ثابتةٌ في النفس فطريّة أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إراديّ مَذْمُوم عند العقلاء. كالأخذ بالباطل أو الشرّ أو القبح، وتركِ الحق أو الخير أو الجمال، اتباعاً للهوى أو الشهوة.

ويمكن تمييز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنَّها كلّ سلوك فردي واجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استقباحه واستنكاره، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعاً من فروعه.

دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الثابت في النفس

ولا بدّ أن نَعْلَمْ أنّ دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الأصيل الثابت في قرارة النفس دلَالةٌ ظنيَّة، وليست دلالة قطعيَّة، فقد لا يكون السلوك الأخلاقي صادراً عن خلق أصيل ثابت في قرارة النفس، إذ ربما يكون صادراً عن تكلُّف وتصنّع، أو عن خَوْفٍ وطَمَع، وعندئذ فقد يكون من قبيل الرياء، وقد يكون من قبيل النفاق، وقد يكون صاحِبُه مخلصاً يريد تطويع نفسه وترويضها، حتى تكتسب الخلق الكريم، ولو لم يكن ذلك من أصل طبعها.

فالخُلُق في حقيقته تكوينٌ خاصٌّ ثابتٌ في النفس فطريٌّ أو مكتسب له ظواهر في السلوك، ولكن لا يشترط أن تكون هذه الظواهر دالّة دلالة قطعيَّةً على وجود الخلق في النفس، لأنّ باستطاعة الإنسان أن يمارس من ظواهر السلوك ما ليس في خُلُقِه ولا في طبيعة نفسه، إنَّه يستطيع أن يتصنّع ما لا ترتاح نفسه إليه، ويستطيع لغرضٍ ما أن يتكلّف ما ليس في خُلُقِهِ النفسي ولا في طبيعته الأصلِيَّةِ، فقد يجود الشَّحِيحُ لغاية في نفسه، فَنُسَمِّي العمل عطاءً كريماً، ولكن يظلّ صاحب هذا العطاء الكريم غَيْرَ مُتَّصِفٍ بخُلُقِ الجود، لأن خُلُقَه الأصيل في نفسه هو خلق الشحّ، ويظلّ كذلك حتى يتحوّل بالتدريب والعادَة فيكون جواداً في نفسه، وحتى يَكْتَسِبَ خلق الجود، فيحلّ محلَّ خلق الشح، أو يصرفه ويوجّهه لشيء آخر غيرِ الحرصِ على الدنيا وما فيها من مالٍ ومتاع.

* * *

المقولة الثانية

مدارك الأخلاق وأسسها

لدى التحليل يتبيّن لنا أنّ مدارك الأخلاق فكريَّة علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية تدعو إلى الأخْذِ بها القاعدةُ الإيمانية في الإسلام، لكل ذلك فهي ربّانية، لأنّ الله تبارك وتعالى هو الذي منح العقول موازين إدراكاتها، وأودع في الفطر الوجدانية أحاسيسَها ومشاعِرَها، وهو الذي أنزل على رُسُلِه قواعد الإيمان وأحكام التشريع.

أما كونها فكريَّة علمية: فلأنّ مكارم الأخلاق يؤيدها الفكر العلمي ويستحسِنُها، ويحثُّ عليها، ويوجب ما يَجِبُ منها. ولأن رذائل الأخلاق يؤيّد العقل اجتنابها، ويستقبحها، ويحث على البُعْدِ عنها، ويحرّم ما يَحْرُم منها.

وأمّا كونها فطرية وجدانية: فلأنّ في فطر الناس الوجدانية ميلًا إلى مكارم الأخلاق، ورغبةً داخليّة

بالتزامها وممارسة كلّ سلوك تدفع إليه، ولأنّ في فطر الناس الوجدانية نفوراً واشمئزازاً من رذائل الأخلاق، ورغبة داخليَّة باجتنابها واجتناب كل سلوك هو من آثارها.

وأمّا كونها إيمانية: فلأنّ القاعدة الإيمانية في الإسلام تلزم بطاعة الله في أوامره ونواهيه، وترغّب بالعمل بوصاياه. وقد اشتملت أوامر الله ونواهيه ووصاياه على التوجيه للعمل بمكارم الأخلاق واجتناب رذائلها، وقرنت ذلك بالوعد بالثواب لمنْ أطاع، والوعيد بالعقاب لمن عصى.

على أنه يُوجَدُ تشابُكٌ جذريّ بين أسس الأخلاق وأسس الإيمان.

فالفضيلة الخلقية التي يُدْرِكُها الفكر العلمي ويستحسنها، وتميل الفطر الوجدانية السليمة إلى ممارستها، توجب الاعتراف بعناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، وتُوجب الإذعانَ لها والعَمَلَ بما تقتضيه، وتنفر وتشمئزّ من الجحود والاستكبار والتمرُّد، وذلك لأنّ عناصر القاعدة الإيمانية عناصِرُ حقٍّ كبرى، والفضيلة الخلقية توجب الإيمان بالحقّ والإذعانَ له والعملَ بمقتضاه، وتنفر وتشمئزّ من جحود الحقّ، والاستكبار عليه، والتمرّد على العمل بما يقتضيه.

وكذلك عناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، فهي تَدْفَعِ المؤمنين بها إلى أن يتحلَّوا بالفضائل الخلقية، وأن يتَخَلَّوْا عن الرذائل الخلقية، وأن يلتزموا في حياتهم كلَّ سلوكٍ خلُقِي تدعو إليه مكارم الأخلاق، وتَعِدُ على ذلك بالظفر برضوان الله واغتنام الأجر العظيم عنده، وتحذّر من مغبَّةِ ممارسة الرذائل الخلقية المحظورة، وممارسة ظواهرها في السُّلوك، وتُنْذِرُ بسخط الله وبالعقاب الأليم عنده. ولذلك جعل الرسُولُ ﷺ الحياءَ شُعْبَةً من الإيمان وهو من مكارم الأخلاق، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلٰهَ إلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

وهكذا فالإيمان بالإسلام سلوكٌ إراديٌّ توجبه فضائل الأخلاق التي تدركها الأفكار العلميّة وتستحْسِنُها، كما تستقبح أضْدَادَها، وتميل الفطر الوجدانية السليمة إلى ممارستها، وتنفر وتشمئزُّ مِنْ أضْدَادِها.

وفضائل الأخلاق وما تقتضيه من سُلوكٍ أمور يوجبها أو يرغّب بها الإيمان بالإسلام ويحث عليها.

ولذلك جاء في كلام الرسول ﷺ:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أحسنُهم خلُقاً، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ».

رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.

فالرسول ﷺ في هذا الحديث يبيّن الترابط بين الإيمان وحُسْنِ الخلُق.

وحين نتدَبَّرُ في حقيقة الإيمان نَجِدُه يستلزم في درجاته المرتقية كل الفضائل الإنسانية، لأنّ الله الذي هو الحقيقة الكبرى التي ترتبط بها جميع أركان الإيمان وفروعه، يأمُرُ بكل الفضائِل، ومنها الفضائل الخلقيَّة، وينهى عن كل الرذائل، ومن ضِمْنِها الرذائلُ الخلقيَّة، والمؤمن يجد نَفْسَه مُلْزَماً باتّباعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ به، واجتناب ما نَهَىٰ الله عَنْه، وللإيمان مِنَ التأثير على الإنسان ما لَيْسَ لأَيَّةِ قُوَّةٍ أخرى دَاخِلَةٍ في النفس أو خَارجَةٍ عنها.

ومن شواهد هذه الحقيقة قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عُيَيْنَةَ بنِ حصن.

روى البخاري عن ابن عبّاس قال: «قدم عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان

الحرُّ بنُ قَيْسٍ من النفر الذين يُدْنِيهِمْ عُمَرُ في خلافته رضي الله عنه، وكان القراءُ أصحابَ مجلس عمر ومشاورته ـ كهولًا كانوا أو شبّاناً ـ فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له عمر، فلما دَخَلَ عُيَيْنَةُ قال: هِيْ يا ابنَ الخطاب، فوالله ما تُعْطِينا الْجَزَلَ، ولا تَحْكُمُ فِينا بِالْعَدْلِ. فغضب عمر حتى همّ أن يُوقِعَ به، فقال لَه الحرُّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيّه ﷺ:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين.

قال ابن عبّاس: «والله ما جاوزها عُمَرُ حينَ تَلاها عَلَيْه، وكان وقّافاً عند كتاب الله تعالى»!!

هذا هو أَثَرُ الإيمانِ في قلب عمر، وهذا هو أثر التزامه أوامر الله. ولولا الإيمانُ في قلب عمر، لَبَطَشَ بُعَيْينَةَ على وقاحته وافترائه.

وهكذا ظهر لنا بالتحليل وجود التَّشابُكِ الجذري بين الأخلاق والقاعدة الإيمانية في الإسلام، وعليه نستطيع أن نقول:

إنّ أسس الأخلاق هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية، كما أنّ أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وأخلاقية.



المقولة الثالثة

تقسيم ما جاءت به الشريعة الإسلامية من وصايا وأحكام إلى كليّات عامّة

الإسلام وَحْدَة كليّة متشابكة مترابطة لا انفصال بين أجزائها وعناصرها في الواقع، ولكن باستطاعتنا من الناحية النظرية الفكرية التعليميّة، أن نُقَسِّم ما جاء فيه إلى فئات تتجمع كل فئة منها تحت كلية من الكليات، وتَتَميَّزُ الأخلاق بواحدة منها.

عنوان العبادة يشمل كلّ أوامر الشريعة ونواهيها:

حين نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تنزيل من عند خالق العباد، وأن لله على عباده حق الطاعة، وهو حق طبيعيٌ عقليٌّ بدهي، لأن من له الخلق، ومنه العطاء، وبيده المنع، وهو على كل شيءٍ قدير، فمن الطبيعي العقلي البدهي أن يكون من حقه على عباده أن يعترفوا له بالربوبية بالإلّهية، ويدينوا له بالطاعة، وهذا ما أشار إليه

قول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

فالتزام حدود الشريعة في أوامرها ونواهيها بهذا المعنى العامّ هو عبادة لله تعالى، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

ولكن مع هذا نقول: إنّ من أحكام الشريعة تكاليف غايتها عبادة محضة، ومنها تكاليف غايتها تحقيق مصالح العباد في الحياة الدّنيا، إضافة إلى الخير العظيم الذي يظفرون به يوم الدين.

ومصالح العِبَاد: منها مصالح للأفراد، ومنها مصالح للجماعة.

ومصالح الأفراد هي حقوقٌ شخصيّة، أي: إنّ على الإنسان لنَفْسِه حقوقاً يجبُ عليه تأديتها أو يخسُن، وهذه الحقوق الشخصيّة هي من حقوق الله علَيْه، إذْ هِيَ في الأصل وعلى الدوام ملكٌ لله، وذواتُ السُّلْطَةِ في داخِلِه مُوَلَّاةٌ بالتولية الرّبَّانيّة لامتحانه في ظروف الحياة الدنيا.

ومصالح الجماعة هي حقوق جماعيّة منحها الله

عزَّ وجل في أصل الخلْقِ للجماعة، وعلى الأفراد أن يَرْعَوْها حقَّ رعايتها وأنْ لا يُفَرّطُوا فيها.

وهذه الحقوق الجماعية هي أيضاً من حقوق الله على عباده بالمعنى العامّ، إذْ هو مالِكُهُمْ ومالِكُ ما مَلَّكَهُمْ إيّاه ليَبْلُوهم في ظروف الحياة الدنيا.

* * *

المقولة الرابعة

ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية

إن أيَّ مُجْتَمعٍ من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سُعَدَاء ما لم تَرْبِط بينهم رَوابِطُ متينةٌ من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالًا أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غَرَضٌ أسمى فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خُلُقَيْ الثقة والأمانة على أقلِّ التقادير.

فمكارم الأخلاق ضَرُورَةٌ اجتماعيّة، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فُقِدَت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارَعُوا، وتناهَبُوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانْهِيار، ثم إلى الدَّمار.

من الممكن أن تتخيل مجتمعاً من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟

كيف تكون الثِّقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضَمَانِ الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!

كيف يكون التعايش بين النَّاس في أمْنٍ واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمَانة؟

كيف تكون أمة قادِرةً على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي والتعاون والمحبة والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجدٍ عظيم لولا فَضِيلَةُ الشجاعة في رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟

كيف يكون إنسان مؤهلًا لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه، صارفة له عن كل عَطاءٍ وتضحِيةٍ وإيثار؟

لقد دلت التجربات الإنسانية، والأحداث التاريخية، علىٰ أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سُلَّم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن

انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائماً، صاعدين وهابطين.

وذلك لأن الأخلاق الفاضلة في أفراد الأُمَم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً تنعقد عليه، ومتى فُقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأساً فيما بينها، مضافاً إلى قُوَّةِ عَدُوِّها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشد المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي.

وإذا أردنا أن نُوضِّح بالأمثلة حقيقة كون الأخلاق تمثل المعاقد التي تعقد بها الروابط الاجتماعية تواردت علينا أمثلة كثيرة جداً.

١ ـ فلنأخذ فضيلة الصدق مثلًا من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن الصدق بوصفه خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة المجتمع بما يُحدّث به ويُخْبِر عنه في مجال التاريخ والأخبار، وفي مجال العلوم المختلفة، وفي مجال المعاملات الماديَّة والأدبيَّة، وفي مجال العهود والوعود والمواثيق، وغير ذلك من مجالات.

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة أنه متى انهارت في الفرد فضيلة الصدق انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة عظمى، وغدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، ولا يثقون به فيما يحدّث به أو فيما يَعد، فلا يكلون إليه أمراً، ولا يعقدون بينهم وبينه عهداً، ولا يواسونه إذا اشتكى لهم من شدة، لأنهم يُرجّحون في كل ذلك كذبه، بعد أن أمست رذيلة الكذب هي الخلق الذي خَبَرُوه فيه.

٢ ـ ولنأخذ فضيلة الأمانة مثلًا من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن الأمانة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد آخر من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس بما يَضَعُون بين يديه من مالٍ أو سلطان، وبما يمنحونه من وجاهة وتقديم، وبما يَكِلُون إليه من أمور عامةٍ أو خاصة.

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة، أنه متى انهارت في الإنسان فضيلة الأمانة انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية، وغدا الناس لا يأمَنُونَه على أي شيء ذي قيمة مُعْتَبرة لديهم، خاصاً كان ذلك أمْ عاماً، لأنَّهُمْ يقدِّرون أنه سوفَ يَسْطُو عليه لنفسه، بعد أن أمْسَتْ رذيلة الخيانة هي الخلق الذي خَبَرُوه فيه.

٣ ـ ولنأخذ فضيلة العفة مثلًا من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن العفَّة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس به في أعراضهم، وبهذه الثقة تأمنه الأسرة على عرضها إذا غابت، ويأمَنُه الجار على عرضه إذا تَركَ مَنْزِلَه، وتأمنه الزوجة إذا خرج إلى عمله أن لا يَخْتَان نفسه، والمرأة العفيفة كذلك تكون موضعاً للثقة بها عند الغيبة عنها.

ومتى انهارت في الإنسان فضيلة العِفَّة لم يأمنه الناس على أعراضهم، ولم يأمنوه على بلادهم ومصالحهم العامة، لأنهم يُقَدِّرُون أن أعداءهم سوف يسهل عليهم صَيْدُه من مغمز عفَّتِه المنهارَة، ثم تسخيره في خدمة أغراضهم، وبذلك تنقطع ما بينه وبين مجتمعه رابطةٌ مِنَ الروابط الاجتماعية.

وهكذا نستطيع أن نقيس على هذه الأمثلة سائر مكارم الأخلاق، كالعدل، والجود، والوفاء بالعهد والوعد، والإحسان، والعطف على الناس، وغير ذلك من فضائل الأخلاق.

وانهيار كل خلق من مكارم الأخلاق يقابله دائماً انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية، وبانهيارها جميعاً تنهار جميع المعاقد الخلقية في الأفراد، وبذلك تنقطع جميع الروابط الاجتماعية، ويمسي المجتمع مُفَكَّكاً منحلًا.

* * *

المقولة الخامسة

موقف أعداء المسلمين من الأخلاق الإسلامية

وقد أدرك أعداء المسلمين هذه الحقائق عن مكارم الأخلاق، فعملوا على إفساد أخلاق المسلمين بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكل ما أوتوا من وسائل مادية وشياطين إغواء، ليُبَعْثِرُوا قواهم المتماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة، وليَفتِّتُوا وحدتهم التي كانت مثل الجبل الراسخ الصلب قوة، ومثل الجنة الوارفة المثمرة خُضْرَةً وبهاءً وثمراً وماءً.

إن أعداء المسلمين قد عرفوا أن الأخلاق الإسلامية في أفراد المسلمين تمثل معاقد القوة، فجندوا لغزو هذه المعاقد وكَسْرِها جيوشَ الفساد والفتنة.

ولقد كان غزوهم للأخلاق الإسلامية من عدة جبهات:

١ ـ لقد عرفوا أنّ النبع الأساسي الذي يزوِّدُ الإنسانَ

المسلم بالأخلاق الإسلامية العظيمة، إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فصَمَّمُوا على أن يكسروا مجاري هذا النبع العظيم، ويسدوا عيونه، ويقطعوا شرايينه.

٢ ـ وعرفوا أنَّ تفهُّم مصادر الشريعة الإسلامية تفهماً سليماً هو الذي يُمِدُّ نَبْعَ الإيمان بما يتَطَلَّبه من معارف، فمكروا بالعلوم الإسلامية، وبالدراسات المتعلقة بها مكراً بالغاً، وذلك ما بين حجب لها تارة، وتَلَاعبٍ بمفاهيمها أخرى، وتشويه لها أو جحود ومضايقة لرُوّادِها ومُبَلِّغِيها، كلُّ ذلك في حَرْبٍ مستمرَّة لا تعرف كللًا ولا مللًا.

٣ ـ وعرفوا قيمة الإفساد العمليّ التطبيقي، فوجهوا جُنودَهم لغمس أبناء المسلمين في بيئات مشحونة بالانحلال الخلقي، بغية إصابتهم بالرذائل الخلقية عن طَرِيقِ العدْوَىٰ، وسِرَايَةِ الفسادِ بقوة تأثير البيئة، واسْتِمْرَاء الشهوات المرتبطة برذائل الأخلاق.

٤ ـ وعرفوا قيمة إفساد المفاهيم والأفكار، فجَنَّدوا جيوش المضلِّلين الفكريين، الذين يحملون إلى أبناء المسلمين الأفكار والمفاهيم والفلسفات الباطلات، ضمن وارِدَات المعارف المادية الصحيحة، ذات المنجزات الحضارية المدهشة، وعن طريق هذا الغزو الفكري الخطير يُدْخِلُون السُّم في الدَّسَم.

من أقوال أعداء الإسلام والمسلمين[1]:

١ ـ جاء في خطاب الدكتور (صموئيل زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين منذ أوائل القرن العشرين الميلادي، الذي خطبه في مؤتمر القدس التبشيري، الذي انعقد برئاسته سنة (١٩٣٥م) ما يلي:

«... ولكن مُهِمَّةُ التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هِدايةً لهم وتكريماً، وإنما مُهِمَّتُكُم أن تُخْرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صِلَة له بالله، وبالتالي فلا صِلَةَ تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحيَّةِ والمسيحيُّون جميعاً عليه كل التهنئة...»!!

٢ ـ وجاء في نشرة المشرق الأعظم الماسوني الفرنسي لسنة (١٩٢٣م) ما يلي:

---

(١) انظر كتاب «أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» وكتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» للمؤلف.

«... وبغية التفريق بين الفرد وأسرته عليكم أن تَنْتَزِعُوا الأخلاق من أسسها، لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمُورِ المحرَّمة، لأنها تفضل الثرثرة في المقاهي على القيام بتَبِعَاتِ الأسرة...».

٣ ـ وجاء في البروتوكول الثاني من المقررات اليهودية السرية ما يلي:

«... إن الطَّبَقاتِ المتعلّمة ستختال زهواً أمام أنفسها بعلمها، وستأخذ جزافاً في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلاؤنا، رغْبةً في تربية عقولهم حسب الاتّجاه الذي توخيناه.

لا تتصوروا أن كلماتنا جوفاء، ولاَحِظُوا هنا أن نجاح (دارون) و(ماركس) و(نيتشه) والأثر غير الأخلاقي لاتّجاه هذه العلوم في الفكر الأُمَمِيّ ـ أي عند غير اليهود ـ سيكون واضحاً لنا على التأكيد»!!

٤ ـ وجاء في البيان الشيوعي الذي أصدره معلم الشيوعية الأول اليهودي (كارل ماركس) ورفيقه (انجلز) ما يلي:

«إن القوانين والْقَواعِدَ الأخلاقيَّة والأديان أوهام بورجوازية تتستر خلفها مصالح بورجوازية»!!

* * *

المقولة السادسة

عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحِرْصُهُ على تقوِيم الأخلاق

لما كان الأصل في السلوك الظاهر أن يكون مظهراً تعبيرياً لأحوال النفس وحركاتها، ولما كان السلوك الظاهر عرضة لدوافع النفاق والرياء أو مؤثرات الْعَادَة التي لا تُعَبِّر عن صدق في الاتجاه القلبي والنفسي.

لما كان كل ذلك كانت عِنَايَةُ الإسلام مُوَجَّهة بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها، والمراد من تزكية النفس تطهيرها من نزغات الشر والإثم، وإزالة حظ الشيطان منها، وتنمية فطرة الخير فيها، ومتى حصَلَت في النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها، وتهذيبِ طباعها تهذيباً مصلحاً ومقوِّماً وكابحاً وموجِّهاً، وبتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسي الصالح لتفجر منابع الخير.

وطبيعي أنه متى تزكت النفس وتهذبت طباعها استقام السلوك الداخلي والخارجي لا محالة.

بخلاف توجيه العناية إلى تقويم السلوك الظاهر فقط، فإنه بناء على غير أساس، وكل بناء على غير أساس عُرْضَةٌ للانهيار، يضاف إلى ذلك أن السلوك الظاهر قد لا يكون مُعَبِّراً تعْبِيراً صادقاً عن أحوال النفس الداخلية.

ولذلك كان نظر الله تبارك وتعالى في مراقبته لأعمال عباده موجَّهاً لما في قلوبهم ونفوسهم.

روى الإمام مُسْلِمْ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ».

ولذلك كانت قيمة الأعمال في تقرير الجزاء عند الله على قدر قيمة نيات العاملين لها؛ ففي الحديث الصحيح المشهور:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ».

وأشار الرسول صلوات الله عليه إلى أن القلب هو مكان التقوى.

وأبان القرآن أن من زكى نفسه فقد أفلح، وأن من دسَّىٰ نفْسَهُ ـ أيْ: غَمَسَها في أدناس الكفر والمعصية ـ فقد خَابَ، فربَطَ الفلاحَ بتَزْكِيَة النَّفْسِ بالإيمان والتقوى، ورَبَط الخيبةَ بِتَدْنِيس النَّفْسِ بالكُفْرِ والعصيان، قال الله تعالى في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

وإذ أبان الله أنه قد أَلْهَم كلَّ نَفْسٍ معْرفةَ طريقِ فُجُورها وطَريقِ تقواها؛ عَلِمْنَا أن تزكية النفس إنما تكون بالتقوى، وأن غمسها في الأدناس إنما يكون بِالفُجُور.

وقال تبارك وتعالى في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

وحينما يكون العمل تعبيراً صادقاً عما في النفس يكون ممارسة صادقة من ممارسات تزكية النفس، قال الله تعالى في سورة (الليل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول):

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ

﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

فهذا يؤتي ماله مَخْلِصاً، جاهداً في تَزْكِيَةِ نَفْسِه وتَطْهيرِها من حظ الشيطان.

وقد يكون صِدْقُ العمل في بعض الطاعات سبباً في تزكية النفس وتطهيرها من ممارسات أخرى فيها دنس، ولذلك جعل الله من وسائل مداواة الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً واعْتَرفُوا بذنوبهم، أخْذَ قِسْطٍ من أموالهم على سبيل الصدقة لتطهيرهم وتزكيتهم، قال الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

وللتربية أثر عظيم في تزكية النفس، ولذلك كانت من مهمات الرسول ﷺ التربوية تزكية نفوس أصحابه، قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟
تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

* * *

المقولة السابعة

تمجيد الإسلام الخلق الحسن وحثه عليه

ولما كانت ثمراتُ الخُلقِ القويم للسلوك الديني وللسلوك الشخصي عَظِيمةً جدّاً، وكانت لدى المقارنة أجَلَّ من الثمرات التي تحققها المبالغة في أداء كثير من العبادات المحض.

ولما كانت سَلَامةُ النَّفْسِ من المساوىء الخلقية أهَمَّ من سَلَامَةِ السُّلوك الظاهر من طائفة من المعاصي والذنوب الظاهرة، وكان ما يتحقق بحسن الخلُقِ من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات المحْضِ، كالصلاة والصيام والأذكار اللّسانية.

لما كان كل ذلك وجدنا النصوص الإسلامية تُوجّه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لِقِيمة حُسْنِ الخلُق في الإسلام، وتَذْكُر الخلُقَ الحسَنَ بتمجيد كبير، فمنها النصوص التالية:

أولاً: روى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال:

«أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ».

وفي حديث عمرو بن عبسة أنه سأل النبي ﷺ: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «حُسْنُ الْخُلُقِ»، رواه أحمد.

فربط الرسول ﷺ الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني بالارتقاء في درجات حُسْنِ الخلق، وذلك لأن السلوك الأخلاقي النابعَ من المنابع الأساسية للخلق النفسي في الإنسان، موصولٌ هو والإيمان وظواهره وآثاره في السلوك ببواعث نفسيَّةٍ وَاحِدَة.

فصدق العبادة لله تعالى عَمَلٌ أخلاقيٌّ كريم، لأَنَّهُ وفاءٌ بحق الله على عبيده.

وحُسْنُ المعامَلَةِ مع الناس وفاءٌ بحقوقِ النَّاسِ المادِّية والأدبيَّة، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة.

فإذَا تَعمَّقْنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعانٌ للحَقِّ واعترافٌ به، رأينا أن الإيمان أيضاً هو عملٌ أخلاقيٌّ كريم، بخلاف الكفر بالحق فهو دناءة خُلُقِيَّة.

فإذا ضممنا هذه المفاهيم إلى المفهوم الإسلامي العام، الذي يوضح لنا أن كل أنواع السلوك الإنساني الفاضل فُرُوعٌ من فروع الإسلام، والإسلام التطبيقي آثار للإيمان وثمراتٌ عملِيَّةٌ له.

إذا جمعنا كل هذه المفاهيم وجدنا أن أكمل المؤمنين إيماناً أحْسَنُهُمْ خلقاً، كما قال الرسول ﷺ.

فأحْسَنُ الناس خُلقاً لا بد أن يكون أصدقهم إيماناً وأخلصهم نية، وأكثَرَهُمْ التزاماً بما يجب على العباد نحو ربهم من عبادة وحسن توجُّهٍ له وصلةٍ به، وأكثرهم التزاماً بحقوق الناس المادية والأدبية.

ومن المستبعد جدّاً أن يَكونَ الإنسان ذا خُلُقٍ كريم مع الناس، محبّاً للحق، معطاءً، متواضعاً، صَبُوراً عليهم، رَحِيماً بهم، ودُوداً لهم، مُتَسامِحَ النفس معهم، ثم لا يكون ذا خلق كريم مع رَبِّه، فلا يؤمن بحق ربوبيته وإلَهيّته، ولا يذعن له بذلك، ولا يؤدي واجب العبادة له.

كما أنَّه ليس من المعقول أن يكون ذا خلق كريم مع النَّاس، وهو يأكل حُقُوقَهُمْ وَيعْتَدِي عليهم، ويتجاوَزُ حُدُود الواجب الأدبي الذي توصي به الآداب الاجتماعية الإسلامية، فهذا منافٍ لما توجبه فضائل الأخلاق، لو كان حقّاً ذا خلق كريم.

فالأسس الأخلاقية والأسس الإيمانية ذات أصولٍ نفسيَّة واحِدَةٍ، وإن كانت بعض التطبيقات العمَلِيَّة التي يطالب بها الإسلام المستند إلى الإيمان قد لا تستدعيها الأسس الأخلاقية وحْدَها منفصلة عن الإيمان، فلا يَظْهَرُ بذلك ارتباطها بها، فهي أحْكَامٌ شرعية، يقتضي الإيمانُ العملَ بها، نظراً إلى أنها أوامر ربانية، والأوامر الربانية توجب الأسس الأخلاقية طاعَتَها، بوصف كونها طاعةً لمن تجب طاعته، لا بوصف كون الْمَطْلُوبِ بها ظَاهِرةً لأساس خلقي. فحينما يأمرنا الله تعالى بعبادة خاصة على وجه مخصوص كصلاة ركعات معيَّنة محدَّدَةٍ بصفات خاصة وشروط خاصة، فليس من اللازم أن تكون هذه الصلاة بصفاتها الخاصة ظاهرةً من ظَواهِرِ السُّلوك الأخلاقي، وذات صلةٍ مباشرةٍ بالأسس الأخلاقيَّةِ العامة، إذ لله تعالى أن يختار لعبادَتِه أَيَّ عَمَلٍ من الأعمال، وعلى أيّ شكل من الأشكال، سواءٌ أكان ذلك مما يتصل بالأسس الأخلاقية العامة أَمْ لا يتصل بها. ومع ذلك نقول: إن الفضيلة الخلقية تُوجِبُ القيام بهذه الطاعة من جهة أن الله أَمَرَ بها، إذ الفضيلة الخلقية تُوجِبُ طاعةَ الله لأنه الخالق المُنعِمُ المالك.

ونظير هذا نقول في طاعة الوالدين، وبرهما، وفي طاعة أولي الأمر من المسلمين المؤمنين، وهكذا.

أما قول الرسول ﷺ في الحديث: «وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» فيكشف الرسول ﷺ فيه أَدَقَّ الموازِين والكواشف التي تكشف عن حقيقة خلق الإنسان، فأحسن الناس خُلقاً في معاملة ومعاشرة النّساء هم أحسنهم خلقاً، فهم بسبب ذلك خِيارُهُمْ، لأن خير الناس هم أحْسَنُهُمْ خلقاً.

ومن المعروف أن الإنسان قَادِرٌ على أن يَتَصَنَّعَ التظاهر بمكارم الأخلاق وفضائل السلوك إلى مُدَّةٍ معينة، ومع بَعْضِ النَّاس، أَمَّا أنْ يَتَصَنَّعَ ذلك في كل الأوقات ومع كل الناس فذلك من غير الممكن ما لم يَكُنْ فِعْلًا ذا خلق كريم.

والْمِحَكُّ الذي يُمْتَحَنُ فيه الإنسان امتحاناً صحيحاً ودقيقاً لمعرفة حقيقة خلقه الثابت، هو المجتمع الذي يكون له عليه سُلْطَةٌ مَا، ولَهُ مَعَهُ معاشرةٌ دائمة، ومعاملة ماديَّةٌ وأدبيَّة.

فإرادة التصنع تضْعُفُ حينما يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذاً، ثم تشتد ضعفاً حينما تطول معاشرتُه لمن له عليه سلطة، ثم تتلاشىٰ هذه الإرادة حينما تتدخل المعاملة المادية والأدبية، فإذا ظلَّ الإنسانُ مُحَافِظاً على كماله الخلقي في مجتمع له عليه سُلْطَةٌ، وله معه مُعَاشَرَةٌ

دائمة، ومعاملة مادية وأدبية، فذلك هو من خيار الناس أخلاقاً.

وأبرز أمثلة هذا المجتمع الذي تتوافر فيه هذه الشروط هو مجتمع أسرة الإنسان، وما له من سلطان فيه على نِسَائِه، وهُنَّ الضعيفات بالنسبة إليه. يُضَاف إلى ذلك أن النساء قد تبدو منهن تصرفاتٌ أو مطالِبُ تُخْرِج الحليم عن حِلْمِه، والرصين عن رَصَانَته، والسَّمْحَ عن سَمَاحَتِه، والصَّدُوقَ عن التزام الصدق، فإذا ثبت الإنسان على خلقه الفاضل على الرّغمَ من وطأة مُخْرِجَاتِهِنَّ التي يتبعن فيها أهواءَهُنَّ، فإنَّه من خيار الناس خُلُقاً.

وكم يظهر الإنسانَ أنَّه حَسَنُ الخُلقِ، فإذا سافرت معه أو عاملته بالدرهم والدينار انكشف عن صاحب خُلُقٍ سيء.

ثانياً: وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي الدَّرْدَاء، أن النبي ﷺ قال:

«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

أي يبغض الذي يفعل الفحش ويقول الفحش، ويتكلم ببذيء الكلام، وهو رديئه وقبيحه، الذي يتحدَّث

سَتْره.

وفي هذا الحديث يُقَرّر الرسول ﷺ أَنَّ أَثْقلَ الفضائل في ميزان المؤمن يوم القيامة الخلُقُ الْحَسَن.

وقد يُشكل هذا على بعض الناس فيقول: إن الإيمان بالله وحسن الصلة به أفضل الأعمال، وكذلك تَوْحيدُ الله والإخلاصُ لَهُ في العبادة، وإذا كانت هذه أفضل الأعمال فهي أثقل شَيء في ميزان المؤمن يَوْمَ القيامة؛ فكيف يقول الرسول ﷺ:

«مَا منْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ»؟!

ولكن هذا الإشكال لا يلبث أن ينْحَلَّ إذا عرفنا أن الإيمان وعبادة الله مما توجبه الأسس الأخلاقية، ومن أولى الواجبات التي تفرضها مكارم الأخلاق. وأن الكفر بالله ورَفْضَ عبادته وطاعته من أقبح رذائل الأخلاق ـ كما سبق بيانه في شرح الحديث السابق ـ لأَنَّهُ إنكار للحق من عدة وجوه: فهو إنكار لربوبية الله ـ مع أَنَّ كَوْنَ الله رَبَّ كلِّ شيء وخالقَ كلّ شيء، حقيقة تفرض نفسها على كل منصف مُحبّ للحقّ ـ وهو جحود لإلَهيَّة الله واستبكارٌ

عن عبادته، وهو تمرد على حق الله تُجاهَ عِباده في أن يَعْبُدُوه ويطيعوه، مع أنَّه المنعم عليهم بالنعم الكثيرة التي لا يُحْصُونَها، وظاهِرٌ أن جحود النعمة وعدم القيام بواجب الشكر عليها من أقبح رذائل الأخلاق.

فالإيمان الذي هو أثقل الفضائل عند الله تعالى هو مظهر من مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان، وإذا تتبعنا الأعمال وجدنا العبادات أيضاً من مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان.

وعندئذ يتضح لَنَا بجلاء أن أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حُسْنُ خلقه، لأن صدق إيمانه وسلامةَ يقينه وإخلاصَ نيته، كل ذلك من ثمرات فضائله الخلقية.

ولما كان الفحْشُ والبذاءة من مظاهر الرذائل الخلقية النفسية كان الفاحش البذيء من الذين يبغضهم الله عز وجل.

ثالثاً: ورَوَىٰ التّرمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال:

«تَقْوىٰ اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال:

«الفَمُ والْفَرْجُ».

فتقوى الله وحُسْنُ الخلق من أحب الأعمال إلى الله، فهما أكثر ما يُدْخِلُ الناسَ الْجَنّةَ.

وفي كون الفم والفرج أَكْثَرَ ما يُدْخِلُ الناسَ النَّارَ إشارةٌ إلى عناصر متصلة بسوء الخلق، إذ جعلها الرسول ﷺ في مقابل التقوى وحسن الخلق.

والمراد من الفم والفرج ما يعمل الإنسان بهما من أعمال محرَّمَةٍ، فالفم يصدر عنه الكفر بالله، والكذب، وشهادة الزور، والغيبة، والنَّمِيمَةُ، والطَّعْنُ، والتعيير، والتنقيص، واللَّمْزُ، والتنابزُ بالألقاب، والدعوة إلى الباطل، ونشر الباطل، والحكم بغير الحقّ، وغير ذلك من أمور كثيرة، تنافي التقوى وتنافي مكارم الأخلاق.

رابعاً: وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول:

«إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً».

وروى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقاً، وإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ».

قالوا: يا رسول الله قد علمنا «الثَّرثَارُون والمُتَشَدِقُون» فما المُتَفَيْهِقُون؟ قال: «المتكبِّرُون».

الثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام ويتكلفونه.

المُتَشَدِّقُون: هم الذين يتكلمون بملء أفواههم، ويتَصَنَّعُونَ القول تصنعاً مع التعاظم بِهِ والتعالي على الناس.

خامساً: وروى أبو داود عن عائِشَةَ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ».

ويظهر أن السبب في هذا أن من يلتزم التقيُّدَ بالأخلاق الحسنة ابتغاء مرضاة الله، لا بُدَّ أن يتَعَرَّضَ في حياته الاجتماعية إلىٰ مَا يَسْتَدْعِي منه أخلاقاً حَسَنةً في معظم أوقاته، وهذا يجعله في حالة عِبَادَةٍ دائمة، يغالب فيها نفسه بالصبر وتحمُّلِ مشقَّةِ مخالفة الهوىٰ، لذلك فهو يُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقهِ درجةَ الصَّائِمِ الذي لا يفطر، ودرجة القائم الذي لا يَفْتُر.

يضاف إلى هذا أَنَّ حُسْنَ الخلق عبادةٌ ذَاتُ آثارٍ اجتماعية تنفع خَلْقَ الله، وتُوحِّدُ كلمتهم، وتُبْعِد عنهم عواملَ الفُرقة والخلاف، أما الصيام والقيام فهما عبادتان قد لا تنتج عنهما بشكل مباشر آثار اجتماعيَّة تنفع عباد الله، وقد يكون أمرهما قاصراً على فاعلهما، وصلةً خاصة يتوجه بها الإنسان إلى ربِّه، ولا يخفى أن عبادةً لله ذاتَ أثرين أعلى من عبادةٍ ذات أثر واحد.

على أن حُسْنَ الخلق لا يغني عن فروض العبادات، وكذلك كُلُّ الفروض الإسلامية لا يغني بعضها عن بعض، فالصلاة المفروضة لا تغني عن الصيام المفروض، وأداء الصلاة والصيام المفروضين لا يغني عن أداء الزكاة، ولا عن أداء فريضة الحج، وكل هذه الفروض لا تغني عن فريضة الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينما يكونان واجبين.

سادساً: وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَنَا زَعِيمٌ ببيْتٍ في رَبَضِ الْجنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحقّاً، وَبِبَيْتٍ في وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ، وإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُه».

زعيم: أي كفيل. **رَبَضُ الْجَنّةِ**: ربض المكان نَوَاحِيه ومَا حَوْلَهُ من خارجه، كحريم المسجد، وكالأبنية التي تَكُونُ حوْلَ المدُنِ، وهي الأمكنة التي تربض فيها الأنعام.

فمن ترك المراء ـ أي الجدل في أمور الدنيا ولحظٍّ النفس ـ بنى الله له بيتاً في ربض الجنة، أي استحق دخول الجنة لهذا العمل الذي يخالف فيه هوى نفسه.

ومن تركَ الكذِبَ في كلِّ الأحوال ومنها حالات الْمُزَاحِ بنى الله له بيتاً في وسط الجنة، لأن من يحفظ لسانه من كُلِّ الكَذِب ابتغاء مرضاة الله هو ذو مرتبة عالية في الأخلاق الحميدة وفي تقوى الله وأعمال البر، إذ تَرْكُ الكَذِبِ والتزامُ الصدق مَجْمَعٌ لجُمْلةٍ كبيرة من الفضائل الخلقية، والمصالح الاجتماعية العلمية والعملية.

أما جماع الفضائل كلها فهو حسن الخلق بوجه عام.

سابعاً: وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال:

«الْبِرُ حُسْنُ الْخُلُقِ، والْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاس».

البر: هو جماع أفعال الخير، وقد عرفه الرسول ﷺ

بأنه حُسن الخُلق، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير، والاتساعُ فيما يقرب إلى الله تعالى ويرضيه سبحانه، من الأمور الزائدة على الواجبات من القربات.

أما كون الإثم ما حاك في نفس الإنسان وكره أن يطلع عليه الناس، ففيه إشارة إلى الضمير الأخلاقي الذي فطر الله الناس عليه، وهذا الضمير يُحِسُّ بالفضيلة الخلقية كما يحس بالإثم، وحينما يحس بالإثم يلامسُ نفْسَهُ شُعورٌ خاص به، وحينما يحدث هذا الشعور في النفس يُقَدِّرُ الإنسان أن ما أحس به من شأنه أن يحس به كل إنسان آخر إذا اطلع عليه، لأن الناس يشتركون معه في القدرة على الإحساس بالإثم، لذلك فهو يَكْرَهُ أن يطَّلِعَ عليه الناس، لئلا يخسر مكانته في نفوسهم حينما يعلمون أنه امرؤٌ آثم.

وهذا المقياس النبوي مقياسٌ صحيح دَقِيقٌ عِنْدَ ذوي الْقُلُوبِ المؤمنة، التي لم تفسد موازينها الفطرية بارتكاب القبائح والآثام.

ثامناً: وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ».

الألدّ: هو شديد الخصومة. **الخَصِم**: هو كثير الخصومة، المولع بها حتى تصير الخصومة عادَةً له.

وظاهر أن الخصم الألدّ سيءُ الخلق من دَرَجةٍ شديدة القُبْحِ، وقد أبان الرسول ﷺ أنه أبغض الرجال إلى الله.

تاسعاً: وروى الترمذي بإسناد حسن عن أبي ذر وعن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ قال:

«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُما كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

ففي هذا الحديث إرشاد إلى قواعد السلوك الكبرى، التي من التزمها فقد أخذ سبيله لارتقاء مراتب المجد والكمال الإنساني.

وهذه القواعد ترشد إلى المنهج الخلقي العام، الشامل لجانبي علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بالناس.

أما ما يدعو إليه الواجبُ الأخلاقيُّ بالنسبة إلى علاقة الإنسان بِرَبِّه، فهو تقوى الله في أيِّ مكانٍ ظاهرٍ أو خفيّ يكون فيه الإنسان، وذلك لأن الواجب الأخلاقي يفرض

على الإنسان طاعةَ مَنْ خَلَقَهُ فَسَوَّاه فَعَدَلَهُ، فأنعم عليه بالنِّعَم التي لا يستطيع إحْصَاءَها، ويَفْرِضُ عليه أيضاً حَمْدَهُ وشُكْرَهُ وعبادته، وكل هذه الواجبات يجمعها تقوى الله في السِّرّ والْعَلَن، وهذا ما دلت عليه القاعدة الأولى: «اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ». وحينما يتقي الإنسان ربَّه في كل أحواله الظاهرة والباطنة فلَا بُدَّ أن يكون مخلصاً لله في تقواه، وفي هذا تَكْمُنُ الروح الأخلاقية السامِيَةُ البعيدَةُ عن النِّفاق والرِّيَاء والسُّمْعَةِ وطَلَبِ الثناء من الناس، أو اجتلاب المصالح النفسية أو المادية منهم.

وأما القاعدة الثانية وهي قول الرسول ﷺ: «وَأَتْبِعِ السَّيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا» ففيها إرشاد إلى منهج الإصلاح والتقويم، وتدارك النهوض بالنَّفْس بعد سقوطها بارتكاب السيئة، وهذا المنهج ترسمه هذه القاعدة أضبط رسم. فمن سقط بارتكابه السيئة في حالة من حالات الضَّعْفِ الإنساني فعليه أن يُتْبِع هذه السيئة حسنة مستمدَّةً من منابع الضمير الأخلاقي، فإن للحسناتِ قُوَّةَ سبْقٍ عجيبة بفضل الله، إذ تمرُّ على السيئات التي كانت قد انطلقت قبلها فتردُّها وتمحو أثَرَها عند الله، وتَعُودُ نفْسُ المؤمنِ بالله إِلَىٰ بَراءَتِها ونقائها الخُلُقِيِّ، بعد أن أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا من أَدْنَاسِ السَّيئات.

وهذه القاعدة مستمدة من قول الله تعالى في سورة (هود ١١/ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وأما القاعدة الثالثة وهي قول الرسول ﷺ: «وخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»: فهي تحدّد المنهجَ العامَّ الذي يَجِبُ على الإنسان أن يسلكه في علاقاته بالناس، وعنوان هذا المنهج أن يُخَالِقَ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ، أي: أَنْ يعاملهم في كل علاقاته معهم بالْخُلُقِ الْحَسَن.

عاشراً: ولما كان حسن الخلق يحتل هذه القيمة العظيمة في الإسلام، كان رسول الله ﷺ أحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً».

واختار الله للثناء على رسوله من دون سائر صفاته العظيمة ما يَتَحَلَّىٰ بِهِ من خُلُقٍ حَسَن عظيمٍ، إذ خَاطَبَهُ بقوله له في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وصح عن الرسول ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْخُلُقِ».

رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة، ورواه الإمام مالك في الموطأ.

وعن جابر أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي لِتَمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَمَالِ مَحَاسِنِ الْأَفْعَالِ».

رواه في شرح السُّنَّة.

* * *

المقولة الثامنة

الكليات العامة التي تنضوي تحتها مفردات مكارم الأخلاق

حين يبحث الباحثون في مكارم الأخلاق فإنَّهم يُعَدِّدُون أفْرَادَهَا؛ فيذكرون مثلًا من مكارم الأخلاق: الصدق، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والجود، والاعتراف لصاحب الحق بحقه وعدم غَمْطِه، والاعتراف لكل ذي ميزة بميزته، والإحسان، والتضحية في سبيل الواجب، والبذل للآخرين، والقناعة، وطهارة القلب من أمراض الحسد والحقد واللؤم وحب الاستيلاء على حقوق الآخرين والعدوان عليهم، إلى غير ذلك من أخلاق.

ولكن أفلا يمكِنُ إرْجَاع مكارم الأخلاق هذه ونظائرها إلى أُصُولٍ عامة تنضوي تحتها، وبذلك يمكن إدراك أَيِّ خُلُقٍ كريمٍ متى اندرج تَحْتَ أَصْلٍ من هذه الأصول؟

وبالتأمُّلِ نَسْتَطِيع اكتشاف عِدّة أُصُولٍ وكليَّاتٍ عامة ترجع إليها مفردات مكارم الأخلاق.

الأصل الأول:

كلُّ دَافِعٍ ذاتي في الإنسان سواء أكان فطرياً أَمْ مُكْتَسباً، يدفعه حتى يعترف لغيره بما له من صفات كمال، أو بما له من حق ـ ولو كان في ذلك الاعتراف مساس بما يشتهي الإنسان لنفسه، من كمال، أو مجد، أو أيّ حظ من حظوظ النفس أو الجسد ـ هو من أصول مكارم الأخلاق وكليّاتِها العامة.

ونقيضُ هٰذا الأَصْلِ أَحَدُ أُصُولِ الرذائل الخلقية وكليَّاتِها العامَّة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يجحد ما لغيره من كمالٍ أو حق، ابتغاء وجه الشيطان، أو استجابة لعامل الكبر في نفسه، أو لما يشتهي لنفسه من كمالٍ أو مَجْدٍ، أو استجابة لأي حظ من حظوظ النفس أو الجسد، ضمن المؤثرات الأنانية، هو مِنْ أُصُولِ الرَّذائل الخلقية وكليَّاتها العامَّة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أُصُولِ مَكَارِمِ الأخلاق وما يقابله، نستطيع أَنْ نَعْتَبر الاعترافَ للخالق

العظيم بكمال ربوبيته وإلَهيَّتِهِ، والإذعان لذلك بدافع ذاتي في الإنسان، من بدهيات أمثلة الكمال الخلقي فيه. أما الإلحاد بالله، وجحود ربوبيته وإلَهيَّته، بعد قيام الأدلة على ذلك في فكر الإنسان وشُعُورِه، فذلك من أبرز أمْثِلة الانْحِطَاطِ الخلُقي، ومن أخس دركاته.

وتَفْريعاً علَىٰ هذا الأَصْلِ الْعَامِّ أيضاً نستَطِيعُ أَنْ ندخل في أمثلة مكارم الأخلاق ما يلي:

الاعتراف للوالدين بفَضْلِهِما، والاعترافَ للمعلِّم ولكل ذي فضل بفضله، والاعتراف لكل ذي مَزِيَّةٍ عِلْمِيَّة أَوْ فِكْرِيَّة أو إدَارِيَّة أَوْ عَمَلِيَّة أو جَسَدِيَّة بمزيته وعدم غَمْطه حقه، والاعتراف لكل ذي حق بحقه، مهما كانت العوامل النفسية محرضة على الْغَمْطِ والجحود.

ونستطيع أن ندخل في أمثلة رذائل الأخلاق ما يلي:

جحود فضل ذوي الفضل، وإنكار مزايا ذوي المزايا، وغَمْط الحق لأصحابه، استجابة لدافع من دوافع النفس الأنانية، أو لشهوة من شهواتها، ونحو ذلك من رذائل.

الأصل الثاني:

كلُّ دافعٍ ذاتيّ في الإنسان سواء أكان فطرياً أَمْ مكتسباً يدفَعُهُ حتى يؤدي الحقوق الَّتِي عليه كاملة، أو حتَّى يُنعم على غيره بعطاء من علمه، أو من قدرته، أو

من جَاهِه، أو من ماله، متجاوزاً في ذلك عوامل نفسه الأنانية، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونَقِيضُ هذا الأَصْلِ أَحَدُ أُصُولِ الرذائل الخلقية وكُليّاتها العامة.

فكلُّ دَافِعٍ ذاتيّ في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يعتدي على ما ليس له به حق، بغية حِيَازَتِه لنفسه، أو يَدْفَعُه حتى يَبْخَلَ بعطاءٍ ينفع آخذه ولَا يضُرَّ باذله، أو يَبْخَلُ بما يَدْفَعُ الضَّرورة الملحَّة عن غَيْرِه، مع عدم اضطراره إليه، أو مع عدم حاجته إليه، إلا حاجة الاستجابة للطمع أو الشَّرَه وشَهْوَةِ الاستئثار، أو الاستجابة للرغبة بالاستزادة من الرفاهية المفْرِطة، هو من أصول الرذائل الخلقية وكليَّاتها العامَّة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله، نستطيع أنْ نَسْرُد جُملةً كبيرة مِنْ مكارِمِ الأخلاق، ثم جملة كبيرة مما يقابلها من رذائل الأخلَاق.

الأصل الثالث:

- كل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى ينظر إلى المنح التي يختص الله بها عباده،

ويوزعها بينهم، إنما هي مظاهر حكمة الله وعدله، فهو ينظر إلى ما لَدَيْهِ مِنْها بِعَيْنِ القناعة والرضا، دُونَ أنْ تمتدَّ إلى ما وهب الله غيره منها امْتِداد اعْتِرَاضٍ أو حسد، هو من أُصُولِ مَكَارِمِ الأخلاق وكليَّاتها العامَّة.

ونَقِيضُ هذا الأصْلُ أَحَدُ أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يعترض على حكمة الله، أو يحسد الآخرين على ما وهبهم الله مِنْ فَضْلِه؛ هو من أصول الرذائل الخلقية وكليَّاتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأَصْل العامّ من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله نستطيع أن نسرد عدداً من مكارم الأخلاق، ثم عدداً من رذائل الأخلاق.

* * *

المقولة التاسعة

شمول الأخلاق

(١)

دخول الأخلاق في كل القطاعات الإنسانية:

لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية أَخْلَاقٌ، للفكر أخلاق، وللاعتقاد أخلاق، وللقلب أخلاق، وللنفس أخلاق، وللسلوك الظاهر أخلاق.

١ ـ فمن فضائل أخلاق الفكر تحري الحقيقة بإنْصَاف وتجرُّد وحياد، والصبر على التفكر والتدبر، والبحث عن كل نافع مفيد من الأفكار والمعارف والعلوم، والْبُعْد عن سفاسف الأفكار وتوافهها، والاشتغال بتذكر كل صالح مفيد، ونسيان الأحداث المثيرة للأحقاد والضغائن أو الباعثة على الغضب والانفعالات غير الحسَنَة، وعَدَم التطلع إلى مثيرات الحسد، أو مثيرات الشهوات والأهواء المحرمة، إلى غير ذلك من فضائل.

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الفكر نَقَائِصُ ورذائل يجب على الإنسان اجتنابها أو يَحْسُنُ به اجتنابها؛ ليظفر بالارتقاء في سُلَّمِ الكمال الخلقي في مجال أخلاق الفكر.

٢ ـ ومن فضائل أَخْلَاقِ الاعتقاد أنْ لاَ يَسْمَحَ الإنسانُ لِنَفْسِه بأن يَتَتَبَّعَ الأوهام والظنون الضعيفة، فَيُحِلَّها في مراكز عَقَائده الثابتة الراسخة، وأَنْ لا يجعل مركز عقائده فريسةً للتقلِيد الأعْمَى، والضلالات الشائعات، أو فريس لما تُمْلِيه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب، أو فريسة لما يُمْلِيهِ القادة المضلون والشياطينِ الموسوسون من الإنس والجن، إلى غير ذلك.

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الاعتقاد نَقَائِصُ ورذائل يجب على الإنسان اجتنابها، أو يحسُنُ به اجتنابها، ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقي في مجال أخلاق الاعتقاد.

٣ ـ ومن فضائل أخلاق القلب حُبُّ الحقّ وحبُّ الخير، وكراهية الباطل والشر، وعدم تحمل الأحقاد والضغائن، والشجاعة، إلى غير ذلك من أمور.

ويقابل فضائل أخلاق القلب نَقَائِصُ ورذائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبُعْدِ عنها.

٤ ـ ومن فضائل أخلاق النفس الصبر والعفة، ومجانبة الحسد، والترفُّع عن سفاسف الأمور، والنظر إلى معاليها، وعَلُوُّ الهمة، وجُود النفس، وتسامحها وعفوها عن إساءة المسيء، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

٥ ـ أما فضائل أخلاق السلوك الظاهر فكثيرة، وهي في حقيقتها الصادقة تعبير عما في داخل الإنسان من أخلاق.

ويقابلها نقَائِصُ ورذائِل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

وبهذا تبين لنا شمول الأخلاق الإسلامية لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية.

* * *

(٢)

تناول الأخلاق لجانبي السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي:

والأخلاق تتناول جانب السلوك الفردي، وجانب السلوك الاجتماعي.

١ ـ فمن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الفردي:

القناعة الذاتية، والزهد المحمود، والأناة في العمل، وبعض حالات الصبر والإتقان والنظام والحزم والتفاؤل.

٢ ـ ومن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الاجتماعي: الحلم، والصدق، والأمانة، والصبر على أذى الآخرين، والعفة، والتسامح، والعفو، وحب العطاء، والشجاعة، والتواضع، ولين الجانب، والوفاء.

وقاعدة الأخلاق الاجتماعية الكبرى تتخلص بأن يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، إنه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء فليكن عفوّاً عن إساءاتهم، ويحب أن يكونوا معه أُمَنَاء فليكن معهم أميناً، ويحب أن يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم، ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفاً عن محارمهم، وهكذا.

ويكره منهم أضداد هذه الأمور فلا يعاملهم بما يكره أن يعاملوه به.

وقد أبان الرسول ﷺ هذه القاعدة للأخلاق الاجتماعية بقوله:

«فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيومِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْه».

رواه مسلم عن ابن عمرو[1].

وقد بلغت الأخلاق الاجتماعية في الإسلام مبلغاً من الرقي العظيم، جعلها في مركَزِ القمَّة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثِّقةٍ للروابط الاجتماعية بين الأفراد، ومؤثِّرةٍ تأثيراً عميقاً في تغذية وحدة الجماعة الإسلامية، وتنمية روابط المودة والإخاء بين المسلمين.

وحسبنا أن نذكر في هذا المقام فضائل العفو، والإحسان، والتعاون، والتضحية والإيثار، وإكرام الضيف، وإكرام الجار، والتواضع، ولين الجانب، وحسن المعاشرة، والتزاور في الله وعيادة المرضى، والتهادي والقرض الحسن، ونحو ذلك.

* * *



(١) انظر رياض الصالحين رقم الحديث ٦٦٦.

الفصل الثاني

مفهومات من الأسس العامّة

وفيه ثلاث مقولات:

المقولة الأولى: الحسُّ الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي.

المقولة الثانية: الغاية من التزام قواعد الأخلاق.

المقولة الثالثة: تفنيد مزاعم الماديّين الذين يقولُون بنسبيّة الأخلاق.



المقولة الأولى

الحس الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي

(١)

مقدمة

لقد أودع الخالق العظيم في مَدَارِك الأفكار وفي مَشَاعِر الوجدان الفطرية ما تُدْرِك به فضائل الأخلاق ورذائلها، ونستطيع أن نسمي ذلك «الحس الأخلاقي»، أو «الضمير الأخلاقي».

وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه، وبذلك يمدحون فاعل الخير، ويذمون فاعل الشر.

وقد أرشدت النصوص الإسلامية إلى وُجُودِ هذا الحس الأخلاقي في الضمائر الإنسانية، وأحالت المسلم المؤمن إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته.

ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

زكّاها: نمّاها وارتقىٰ بها. وعكسُ ذلك **دسّاها**: أي دَفَنَها وهبطَ بها.

فالنفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها أُلْهِمَتْ في فطرتها إدراك طريق فجورها وطريق تقواها، وهذا هو الحسُّ الفطري الذي تُدْرِكُ به الخير والشر، ولذلك كان على الإنسان أن يُزَكِّي نفسه ويطهِّرها من الإثم حتى يظفر بالفلاح وإلا خاب سعيه.

ويقول الله تعالى في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

فالإنسانُ لَدَيْهِ بصيرة يستطيع أن يُحَاسِبَ بها نفْسَه مُحَاسَبةً أخلاقية، على أعماله ومقاصده منها، ولو حَاوَل في الجدَلِ اللّسانيّ الدفاع عن نفسه وإلقاء معاذيره.

ويقول الله تعالى في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

لُبَداً: أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض.

فالإنسان كما لديه أدَواتُ الحسّ الظاهر، لديه حِسٌّ باطن يُدْرِك به طريقي الخير والشر، وهما النجدان الممتدان في أرض حياته الدنيا، يختار منهما لسلوكه ما يشاء، وعليه بعد ذلك أن يتحمل نتائج عمله، ونتائج اختياره.

وهذا الحسُّ الباطن يشْمَل ما تُدْركه الأفكار السليمة بموازينها التي فطرها الله عليها، ويشْمَل ما تحسُّ به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التي فطرها الله عليها، ومن ذلك يتكون في الإنسان حِسُّه الأخلاقي.

وروى الإمام مسلم عن النَّواس بن سمعان، عن النبي ﷺ قال:

«الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ».

فهذا الحديث يدل على أن في النفس الإنسانية حسّاً خلقياً بالإثم، ولذلك يكره فاعل الإثم أن يطَّلع عليه الناس، لأنه يعلَمُ أنَّهُمْ يشعرون بمثل ما يشعر، وذلك

بحسٍّ أخلاقي موجُودٍ في أعماق نفوسهم، وهذا الْحِسُّ الأخلاقي هو ما اكتشفه الباحثون الأخلاقيون من الفلاسفة، وأسْمَوْهُ (الضمير).

وروى الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن عَنْ وَابصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبَرِّ؟» قُلْتُ: نعم. فقال: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، والْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وأَفتوْكَ».

ففي هذا الحديث تبيان واضح للحِسِّ الأخلاقي، ولا مانع من أن نسميه الضمير الأخلاقي، وهذا الضمير إذا كان نقياً سليماً من العلَلِ والْأَمْراضِ، فإنَّه يستطيع أن يُحِسّ بفضائل الأخلاق ومَحاسِن السلوك، وأن يُحِسَّ برذائل الأخلاق ومساوىء السلوك، وأن يُميِّز بين الصنفين، وقد جمع الرسول صلوات الله عليه فضائل الأخلاق تحت عنوان (البر) وجمع رذائل الأخلاق تحت عنوان (الإثم).

وفي هذا الحديث أيضاً إشارة إلى مواقع الحسِّ الأخلاقي داخل النفس الإنسانية وهو ما قد يطلق عليه اسْمُ الضمير، وذلك أن الرسول ﷺ قال في الحديث:

«الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْه النَّفْسُ، واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ».
وهذا يدلُّ على أن في النفس الإنسانية قدرةً على الإحْساسِ بالْبِرّ، أو حَاسَّة خاصَّة تُحِسُّ به، ومثل ذلك يوجد في القلب أيضاً، بل القلب أحرى بمثل هذه الحاسة وأجدر بها، فالضمير أو الحسُّ الأخلاقي موجود في النفس وموجود في القلب، أو آثاره تظهر فيهما.

وقد نتساءل: هل يوجد انفصال بين النفس والقلب؟

ونُجِيبُ بِأَنَّهُ قد يكون الجهاز العامُّ واحداً غير أن منافذ الإحساس متعددة، ولكل منها خصائصه: فالنفس يغلب عليها أنها مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع، والقلْبُ مجمع التفكير والعواطف الثابتة.

وعلى الرغم من أنّ النَّفْسَ هي مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع، فإنها تستحسن محاسن الأخلاق، وتستقبح مساويها، وهي بطبيعتها تميل إلى أن تُعَامَل من قبل الآخرين بالخلق الحسن، وتنفر من أن تُعامل بالخلق القبيح، فلديها إحساس بهما، إذا كانت نفساً سليمة من العلل، بريئة من الأمراض، سواء أكانت هذه أصيلة فيها أمْ طارئة عليها، وأما القلب الذي هو مركز التفكير مع العواطف أو مجمعهما أو آثارهما تتجمع

فيه، فمن الطبيعي فيه أن يكون لَدَيْهِ هذا الإحساس، لأن عمدته الفكر السليم والفطرة الصافية، وحين نرجع إلى ضمائرنا نشعر بذلك.

فالبرّ المفسَّر في كلام الرسول بأَنَّهُ حُسْنُ الخلُق يفعله الإنسان السوي وهو مطمئن القلب، ومطمئن النفس، أمّا الإثم فإنَّ الإنسان السويّ لا يقدم عليه إلّا وفي نفسه قلق منه، وفي صدره تردّد واضطراب.

والطمأنينة في النَّفْس والقْلبِ عَلَامةٌ على أنّ العمل هو من أعمال البرّ، والتردّد والاضطراب فيهما وخوف اطلاع الناس على العمل أو على الغرض منه علامة على أنه من أعمال الإثم.

ولكن قد يختلط الأمر في بعض الأعمال على العقل والضمير، ويلتبس عليهما وجْهُ الحق، فيكونان حينئذٍ بحاجة إلى هداية وتبصير، وقد تطغى عليهما الأهواءُ والشهواتُ أو العادات والتقاليد، أو يؤثِّرُ عليهما القادة المضلّون، أو الشياطين الموسوسون من الجنّ والإنس. وفي هاتين الحالتين تقف الشريعة الربّانية فيها هداية وتبصير، فتدلّ بنصوصها أو بأماراتها على نوع الحكم الأخلاقي وعلى درجته.

وسبَبُ اختلاط الأمر والتباسه على الحسّ الأخلاقي في الإنسان، قد يكون راجعاً إلى اشتباه القضية الأخلاقية، وغموض مدرك الحكم فيها، وعدم ظهور وجه الحقّ والخير.

وطريقة المسلم في هذه الحالة هي اتّقاء الشبهات، فإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الترك ـ لأن الأمر مشتبه بين الحلال والحرام ـ كان الأفضل والخير للمسلم أن يترك العمل المشتبه فيه، خشية الوقوع في الحرام، وإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الفعل ـ لأن الأمر مشتبه بين الحلال والواجب ـ كان الأفضل والخير للمسلم أن يأتي بالعمل المشتبه فيه، خشية الوقوع في ترك الواجب، أي خشية الوقوع في الحرام، لأن ترك الواجب حرام.

والدليل على هذه الطريقة التي ينبغي للمسلم أن يتبعها، ما رواه البخاري ومسلم من عدة طرق، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بيِّنٌ، وبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، ومَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيه. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَىٰ اللَّهِ

مَحارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّه، وَإِذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

فهذا الحديث يحدّد ويصور بمنتهى الروعة والدقة واقع حال إدراك الناس للخير والشر، والحقّ والباطل، فمن ذلك ما هو واضح لا غموض فيه، ومنه ما هو مُشْتَبَهٌ يَخْفَىٰ واقع حاله على كثير من الناس، وهنا يقع الخلاف، ويقع الالتباس، والأفضل للمسلم دائماً اتقاء الشبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه عند الله، واستبرأ لعرضه عند الناس.

ويدلّ عليه أيضاً ما رواه الترمذي عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: حفظت من رسول الله ﷺ:

«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَالْكَذِبَ رِيبَةٌ»:

قال الترمذي: حديث صحيح.

أي دع ما يُحْدِثُ في قلبك الاضطراب والقَلَق والشكَّ بسوء العاقبة والوقوع في الشرّ والإثم، إلىٰ مَا لا يُحْدِثُ في قَلْبِكَ شيئاً من ذلك، بل يحدث في قلبك الطمأنينة والراحَةَ والأمن.

ثمّ مثل الرسول ﷺ لما يُحْدِثُ الطمأنينة بالصدق، ومثّل لما يحدث الريبة بالكذب، فالكاذب مُرْتَابٌ قَلِقٌ، وَالصَّادِقُ مُطْمَئِنُّ النَّفْسِ آمِن.

وفي هذا إشارة إلى أن التزام الفضيلة الخلقية ممّا يورث في النفس سعادة الطمأنينة، بخلاف القلق الذي ينشأ عن الريبة فهو عذاب للنفس، وألم ممضّ مقضٌّ للمضاجع.

وظاهر في هذا الحديث التنبيه على الحسّ الأخلاقي الموجود في ضمير الإنسان، وهذا الحسّ الأخلاقي يتمثل في بعض أحواله بالشّكّ والتردُّد، وحينما يوجد هذا الريب المقلق للنفس فالحكمة تقضي بالبعد عمّا يحدث الريب، والأخذ في الطريق الذي لا ريب فيه، ما دام يوجد أمام الإنسان طريق فيه طمأنينة وراحة للنفس وأمن.

ولمّا كان الإنسان مزوداً في فطرته بحسّ أخلاقي كافٍ لإدراك الخير والشرّ والحقّ والباطل، كان قادراً على أن يحاسب نفسه على عمله حساباً دقيقاً، ولذلك يقال له يوم القيامة عند تسليمه كتاب عمله الذي عمله في الحياة الدنيا:

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

فيحال على محكمة الضَّمير ليَعرْف بنفسه ما له وما عليه؛ قال الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

طائره: أي عمله الذي يصدر عنه وينطلق فلا يستطاع إرجاعه.

ثمّ تجري محاسبته بعد ذلك ليرى أنّ محكمة العدل الربّانية محكمة لا تَظْلِمُ أحداً.

وأشار الرسول ﷺ إلى الحسّ الأخلاقي الموجود في قلب كل مسلم بالحديث الذي رواه رزين والآجريّ والحاكم ـ وقال: صحيح على شرط مسلم ـ عن ابن مسعود، ورواه أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَعلَىٰ جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يقول: اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ ولَا تَعْوَجُّوا، وفَوْق ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ

أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ قال: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ».

ثمّ فسّره فأخبر:

«أَنَّ الصِّرَاطَ هُو الْإِسْلَامُ، وأَنَّ الْأَبْوابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللَّهِ، وأنّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللَّهِ، وأَنَّ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقَرْآنُ، وأنّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

فهذا الوعظ الذي في قلب كلّ مؤمن هو الحسُّ الأخلاقي.

(٢)

تربية الضمير الأخلاقي

يخضع الضمير الأخلاقي الفطري لأصول التربية وقواعدها، إذ هو قابل للتنمية بممارسة عواطف الخير، وبدراسة كمال فضائل الأخلاق، وما تُعْطِيه من ثمرات فرديَّةٍ واجتماعيَّة ـ عاجلةٍ وآجلةٍ ـ وبمواعظ الهداية الدينية والنصائح والوصايا الربّانية، وبوسائل الترغيب والترهيب، والقدوة الحسنة، وقصص البطولات الأخلاقية، وغير ذلك من وسائل تربوية.

وخير ضابط له، وأفضل قائد وموجّه، التزام

طاعة الله، وخير صيانة له صيانته بتقوىٰ الله وخوف عقابه ورجاء ثوابه.

وإهمال تربية الضمير الأخلاقي ممّا يضعفه، ويجعله يضْمُر ويتناقص حتى يفقد الحسّ النبيل، ثم يموت. وقد يَفْسُد ويتحول بوسائل التربية المفسدة، حتى يكون جُنْدِياً من جنود شيطان الإنسان، ومؤازراً له في وَسَاوِسه ونزغاته.

(٣)

قواعد لهداية البصيرة الأخلاقية

إضافة إلى الأسس العامة الموجودة في فطرة النفس الإنسانية فكراً وإحساساً داخليّاً ووجداناً، والتي عبّر عنها الرسول ﷺ بقوله: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ» توجد قواعد هادية للبصيرة الأخلاقية، نبّه عليها الرسول ﷺ، منها ما يلي:

القاعدة الأولى: حُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ وحُفَّتِ الْجنَّةُ بِالْمَكَارِهِ.

القاعدة الثانية: عَامِلِ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ.

القاعدة الثالثة: فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ.

أ ـ فالقاعدة الأولى جاءت فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال:

«حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهواتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ».

وفي رواية لمسلم:

«حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ».

وقد اشتمل هذا البيان النبوي على قاعدة أساسية مرشدة للبصيرة الأخلاقية لدى الإنسان، فإذا عُمِّيَ أمْرُ السلوك الأخلاقي على هذه البصيرة، هل هو إلى جانب الخير أو إلى جانب الشرّ، استطاعت هذه القاعدة أن تُسَاعد على معرفة الحقيقة. فإذا كان السلوك من الشهوات التي تَلَذُّها الأنفس، كان ذلك مرجّحاً لجانب المنع على جَانِبِ الإبَاحَةِ لأنّ النَّارَ حُفَّتْ بالشهوات.

وإذا كان السلوك من الأمور الثقيلة على الأَنْفُسِ والمكروهة لها، لأنه يخالف هوى من أهوائها أو شهوة من شهواتها، كان ذلك مرجّحاً لجانب الخير، لأنّ الجنة حفّت بالمكاره.

وقَلَّما يفعل الإنسان الفضيلة حتى يقتحم عقبة من عقبات نفسه، وهذا ما أشار إليه القرآن في وصف الإنسان، بقول الله تعالى في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ
﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ
مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

مسغبة: مجاعة. مَقْرَبَة: قرابة. مَتْرَبة: فقر ملصق بالتراب.

وعقبات النفس كثيرة، منها عقبة الشحّ التي تمنع الإنسان عن البذل، واقتحامها يكون بمغالبة النفس، وإلزامها بالبذل في سبيل الله، كالبذل في عتق الرقاب، وإطعام الأيتام والمساكين في الأيام التي تكون الحاجة فيها شديدة إلى الطعام. ومنها عقبة المكاره أو المصائب أو المؤلمات، وعقبة الجهاد في سبيل الله، وعقبة ترك المحرمات، وعقبة القيام بالواجبات، واقتحام هذه العقبات إنما يكون بالصبر وسعة الصدر وقوة الإرادة. ومنها عقبة الأنانية المفرطة، واقتحامها يكون بمغالبة النفس وتغذيتها بمشاعر المرحمة.

وكلّ ذلك من قبيل المكاره التي تتحملها النفوس على غير هواها، وعلى غير ما تشتهي، وتحمُّلها من مكارم الأخلاق الَّتي يتحلّى بها الإنسان. على أنّ الحدّ

الفاصل بين الخير والشرّ قد يكون في بعض الأحوال دقيقاً جدّاً، فإمّا أن ينحرف الإنسان فيكون من أهل النار، وإمّا أن يستقيم فيكون من أهل الجنة.

وانزلاق الإنسان إلى مواقع النار قد يكون بخطوة واحدة، وارتقاء الإنسان إلى مراتب الجنة قد يكون بخطوة واحدة. روى البخاري عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

ب ـ وأمّا القاعدة الثانية، وهي: عامل الناس بما تحبّ أن يعاملوك به، فقد جاء معناها في كلام رسول الله ﷺ من حديث طويل رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو، وفيه يقول الرسول ﷺ:

«فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْه»[١].

---

(١) أول الحديث: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً. وأول كلام الرسول فيه: إنّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم. انظر: رياض الصالحين، رقم الحديث ٦٦٦.

وهذه القاعدة تشتمل على مِيزانٍ دقيق يهدي البصيرة الأخلاقية إلى فضائل السلوك الأخلاقي، كلّما اشتبه على الإنسان أمْرُ السلوك، وفي تطبيق هذه القاعدة ينبغي للإنسان أن يضَعَ نفسَه في مكان الآخرين، ويفترض أنّ الأمر كان معكوساً، فالأمر الذي يستحسنه لنفسه من الآخرين ممّا لا معصية لله فيه، هو الأمر الذي تدعو إليه الفضيلة الخلقية، أو يدعو إليه السُّلوكُ الأَحْسَنُ في معاملة الناس.

وعلى المؤمن بناءً على هذا أن يُحِبَّ لِأَخِيهِ المؤمن ما يُحِبُّ لنفسه، وهذا ما جاء بيانه في كلام رسول الله ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أنس أنّ النبي ﷺ قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

يشتمل هذا الحديث على قاعدة تَصْلُح لأن تكون مِنْ كُبْرَياتِ الْقَوَاعِد الْهَادِيَةِ للبصيرة الخلقية، فلدى التأمّل يتَبيّن لنا أنّ معظم الأخلاق الاجتماعية الكريمة تعتمد على هذه القاعدة، وهي أن يحبّ المرءُ لأخيه ما يحبّ لنفسه، ومن لاحظ هذه القاعدة والتزم مضمونها في سلوكه الاجتماعي استقام سُلُوكُه، وكان سلوكاً أخلاقيّاً رفيعاً.

إنّ من يعامل الناس على أساس أنْ يُحِبَّ لهم ما يحبّ لنفسه تماماً فإنه سيعاملهم حتماً بكل خلق رفيع، لأن هذا هو ما يحبّ أن يعامله الناس به إذ يحبّه لنفسه، وحين يحبّ الإنسان لغيره ما يحبّ لنفسه يعامله كأنه يعامل نفساً ثانية له. ومن هنا تنبع معظم فضائل الأخلاق الاجتماعية، ومن هنا يندفع المسلم إلى أن يكون صادقاً مع أخيه، لأنه يحبّ أن يصدقه الناس ويكره أن يكذبوه. ويندفع إلى أن يكون أميناً على مال أخيه وعرضه وشرفه، لأنه يحب أن يعامله الناس بأمانة على ماله وعرضه وشرفه، ويكره أن يخونوه في شيء من ذلك. ويندفع إلى مساعدة أخيه ومعاونته في مال، أو علم، أو جَاهٍ، أو خِدْمَةٍ جسدية، أو نصيحة طيبة، أو دَعْوَةٍ صَالِحَةٍ، أو شفاعة حسنة، لأَنَّه يُحِبُّ لنفسه مثل ذلك من إخوانه، ويَكْرَهُ مِنْهُم أن يَضِنُّوا عليه بمعونة أو مساعدة في شيء من ذلك. ويندفع إلى دعوة أخيه إلى الإيمان الصادق والعمل الصالح، لأنه قد أحبّ لنفسه هذا فهو يحبّ لأخيه ما أحبّ لنفسه.

ومن هنا يجد المسلم نفسه مدفوعاً إلى الصبر على أخيه المسلم كلّما دعت ظروف التعامل إلى الصبر، لأنه يُحِبُّ من الناس أن يصبروا عليه، كلّما بدر منه ما لا

يقبله الناس منه إلّا بصبر. ويجد المسلمُ نفسَه مدفوعاً إلى العفو والصفح والمسامحة والإغضاء عن الهفوات والسيئات، كلّما وجد من إخوانه ما يسوؤه من تصرفاتهم معه، لأنه يحبّ من الناس أن يعاملوه بالصّفْحِ والعفو والمسامحة والإغضاء عن الهفوات والسيئات، كلّما بدَر منه من تصرفاتٍ تسوء إخوانه. ويجد نفسه مدفوعاً إلى ستر عيوب إخوانه وعدم نشرها بين الناس وعدم فضيحتهم بها، فهو إذن يكفّ عن غِيبَتِهم، والحديث عنهم بما يكرهون، ويُحَاول جاهداً ستر عيوبهم، ويحرص على أن ينصحهم سراً ما وجد إلى ذلك سبيلًا، لا أن ينصحهم علناً بين الناس، كاشفاً عيوبهم، لأنّ ذلك فضيحة لا نصيحة، وهو يعاملهم بهذا لأنه يُحِبُّ لنفسه من إخوانه مثل ذٰلك. ويكره منهم أن ينشروا معايبه، ويغتابوه بما يكره، وهو يكره أيضاً منهم أن يوجّهوا له نصائح علنية بترك بعض العيوب التي فيه، لأنّه يرى ذلك فضيحة له، وهو يكره الفضيحة.

وهكذا نلاحظ بالتتبع تدفّق كثير من الفضائل الخلقية الاجتماعية من منبع هذه القاعدة الخلقية: أَنْ يُحِبَّ المرءُ لِأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

ففي هذا الحديث تأصيل لقاعدة عظيمة من قواعد

التربية الخلقية، والهادية للبصيرة الأخلاقية إلى كثير من فضائل الأخلاق.

وربط الحديث هذه القاعدة بالإيمان، لأنّ الإيمان هو المنبع الأساسي الأمثل لكُلِّ فضيلة في السلوك، سواء أكان سلوكاً يدخل في باب الأخلاق، أَمْ في باب الآداب، أَمْ في أي باب آخر من أبواب السلوك، وسواء أكان سلوكاً فردياً أَمْ سلوكاً اجتماعياً.

الإيمان الصحيح الكامل طاقة عظيمة مقوّمة لسلوك الإنسان، ومن أجل ذلك اهتم الإسلام في الدرجة الأولى بغرس الإيمان في قلوب المسلمين، وجعله الأساس الأول الذي تبنى عليه كلّ التعاليم الإسلامية، ورَبَطَ به كلَّ الفضائل.

وفي ربط كل سلوك المسلم بالقاعدة الإيمانية تَوْحِيدٌ للمُنْطَلَق النفسي وللمنطلق الفكري في كيان الإنسان، وفي هذا بُعْدٌ عن التعقيد، ولجوء إلى البساطة الفطرية، التي تناسب واقع حال الإنسان، ومع هذه البساطة الفطرية التي لا تعقيد فيها تتجلّى الحقيقة بكلّ إشراقها ونَقَائها، وبكُلِّ نورها وصفائها.

وماذا يطلب الباحث الحصيفُ غَيْرَ الحقيقة البسيطة

المنسجمة مع أفضل ما يُصْلِح الإنسانَ كُلَّ الإنسان فكراً ونفساً وقلباً وسلوكاً؟

وهذا ما يسعى للوصُولِ إليه كُلُّ المخْلِصِين من العلماء والباحثين الإنسانيين، من الفلاسفة، وعلماء الأخلاق، وعلماء الاجتماع، ولكن يصل إليه من يهتدي بهدي الإسلام، أو يسترشد بنور الفكر المشرق بنور الله، ويضلّ عنه من يَخُوضُ في متاهات الأهواء، ويتبع خطوات الشياطين، وينخدع بفلسفات المضلِّين.

الإيمان هو أعظم جوهرة في الوجود تنزّلت من السماء، فتلقّفتها قلوب المؤمنين، فاحتفظت بها كنزاً ثميناً، فأشرقت في حَياتِهم عملاً صالحاً، وخُلُقاً كريماً.

والإيمان أعظم عنصر مسعد في حياة الإنسان، لا يَعْرِفُ قيمته إلّا مَنْ ذَاقَ حلاوته، وللإيمان حَلَاوَةٌ عَجِيبَةٌ يذوقها المؤمنون حينما يعْمَلُون أعمالًا يقتضيها الإيمان، وحينما يستجيبون لندائه في عَمَلٍ مِنْ أعماله، أو ظاهرة من ظواهره، يعرف هذا من جرَّبَه، ويجهله من جَهِلَه.

جـ - وأمّا القاعدة الثالثة، وهي: «فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِه وَعِرْضِه».

فقد سبق بيانها، وفيما يلي شرح الحديث المشتمل عليها شرحاً موسعاً.

قاعدة السلوك الديني والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات:

روى البخاري ومسلم من عدّة طرق عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَام، كَالرَّاعِي يَرْعَىٰ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيه. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنّ حِمَىٰ اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

هذا الحديث من الأحاديث الأصول الجوامع، وفيه كليات عظيمة تتصل بأمهاتٍ سلوكية وأخلاقية أوصَىٰ بها الإسلام.

وهو يشتمل على قاعدة التقسيم الثلاثي للأحكام الدينية والأخلاقية:

القسم الأول: قسم الحلال، والحلال الصِّرْفُ الذي لم تخالطه شبهة بيّن واضح، لا يختلف فيه الناس، ولا تتأثَّمُ منه النفوس ولا تتحرَّج، وكلُّ إنسان يأتيه وهو مُرْتَاح الضَّمِير مطمئِنُّ الفؤاد، لا يَخْشَىٰ أَنْ يطَّلِعَ عليه الناس وهو مُلْتَبِسٌ به.

وَمَجَالَاتُ الْحَلال في الحياة كثيرة، والنفوس بفطرتها تعرفها وتحسُّ بها، ويهديها إليها الحسُّ الأخلاقي الذي أَوْدَعَهُ الْخَالِقُ العظيم في فطر النفوس.

وهذا القسم هو ما دل عليه قول الرسول ﷺ في الحديث: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ».

القسم الثاني: قسم الحرام، والحرام الصرف هو أيضاً بيّن واضح، لا يختلف فيه عقلاء الناس ومفكِّرُوهُمْ وأصِحَّاءُ الْبَصِيرة الأخلاقيَّةِ منهم، ولا يفعله الفاعل منهم إلاّ وفي نفسه من فِعْلِه حرجٌ وشعورٌ بالإثم، وكل سليم البصيرة يأتيه إذا أتاه وهو يَشْعُر بوخْزٍ في الضَّمِير، وقَلَقٍ في الفؤاد، وخوف من سوء المصير ومن سوء العقاب بالعدل.

ومجالات الحرام في الحياة كثيرة، والنفوسُ بفطرتها تَعْرِفُها وتَحِسُّ بها، ويهديها إليها الحس الأخلاقي الذي أودعه الله الخالق العظيم في فِطَرِ النفوس.

وهذا القسم هو ما دل عليه قول الرسول ﷺ في الحديث: «وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ».

القسم الثالث: هو ما بين الحلال والحرام، وتدخل هنا أمور مشتبهات الأحكام، لها شبه من الحلال ولها

شبه من الحرام. وهذه الأمور تَخْتَلِطُ على كثير من الناس فلا يُميِّزُون أحكامَها، ولا يعلمون وجوه حلالها من وجوه حرامها، لاختلاط العناصر فيها اختلاطاً يصْعُبُ معه التمييز فيما بينها عند كثير من الناس، وهذه قد سمَّاها الرسول ﷺ مُشْتَبِهات، هكذا بصيغة الجمع لا بصيغة الإفراد، إشارة إلى أن هذا الوسط يقع في درجات، فمشتبه من الدرجة الدنيا القريبة من الحلال البيِّن، ومشتبه من الدرجة العليا القريبة من الحرام البيّن، ومتوسطات بين هاتين الدرجتين.

والرسول ﷺ يعطي قاعدة السلوك بالنسبة إلى هذه المشتبهات وهي البعد عن كل ما فيه شبهة.

والشُبْهَةُ في الأمر هو الالتباس فيه، من جراء اختلاط عناصر مختلفة الأصول اختلاطاً متداخلًا من غير تَمْيِيزٍ، والأمر المختلط العناصر المتباينة يعطي شبهاً من كل منها، فتارة يراه الناظر إليه مشبِهاً أحد المتبايِنَيْنِ، وأخرى يراه مشبهاً الآخر، فيلتبس عليه الأمر، هل يُلْحقه بهذا أو بهذا.

ومن أجل هذا يقال لغة: أمور مُشْتَبِهَةٌ، أيْ: مشكلة يشبه بعضها بعضاً. والأسلم للإنسان أن يَتْرُكَ ما اشتبه عليه ويعمل ما لا شُبْهَةَ فيه، وهذا ما أوصى به

الرسول ﷺ بقوله في الحديث: «فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ» أي طلب البُرء والسلامة من الإثم لدينه، ومن العيب لعرضه.

والمشْتَبِهاتُ أُمُورٌ مشكُوكٌ في حِلِّها مُرْتَابٌ في حُرْمَتِها، والأسلم الأبرأ للإنسان أن يتركُهَا ولا يأتيها، ولذلك قال الرسول ﷺ في الحديث الآخر: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ»، رواه الترمذي عن الحسن بن علي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعن عطية بن عروة السَّعْدي قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَراً لِمَا بِهِ بَأْسٌ».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وما دام الأمر متموجاً بين الحلال والحرام غَيْرَ بيِّن الوجه، فإنّ الواقع فيه مُجَازِفٌ بِنَفْسِه، واقعٌ في الحرام لا محالة، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: أَنْ يكونَ في الأمْرِ عناصرُ مُحَرَّمة قطعاً، فهو يقع فيها مع خليط الحلال، وترك الحلال من أجل المخالِط الحرام هو الواجب للسلامة وبراءة الذمة من الإثم والنَّقِيصَة.

الوجه الثاني: أن تكون الشبهة آتيةً من مجاورة حدود الحرام مجاورَةً تُلقي ظِلال الْحَرامِ على المُباحِ، وحينما يقع الإنسان بالمباح المختلط بظلال الحرام يهون عليه القربُ من الحرامِ والدخول في حدوده شيئاً فشيئاً، ثم اجتناء ثمرته الخبيثة، وهذا ما أوضَحَهُ الرسول ﷺ في الحديث بقوله:

«وَمَنْ وقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كالرّاعِي يَرْعىٰ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ».

وبعد أن وضَعَ الرسولُ ﷺ قاعدة السلوك الديني والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات قال:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَىٰ اللَّهِ مَحَارِمُه».

الحمى: هو ما يُحْمَىٰ ويُحْفَظُ مِنْ أيِّ دَاخِلٍ إِلَيْهِ.

وفي هذا كشف لخطورة مواقع الحرام، إن مواقع الحرام هي حِمَىٰ الله، واقتحامُ حِمَى الله أمرٌ خطير، وليس باليسير.

إذا كان الناس يخشون حِمَى مُلُوكِهِمْ، ويحْذَرُونَ اقْتِحَامَ حُدُودِهَا، لأن هؤلاء الملوك يملكون القدرة على العقاب والانتقام، فكيف بمن يقتحم حِمَى ملك الملوك

الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شيء؟! ألا وإن حِمَىٰ اللَّهِ مَحَارِمُه.

أما الوسيلة الجذرية العميقة لتقويم السلوك وضبط النفس دون حدود حِمَىٰ الله التي هي مَحَارِمُه، فهي وسيلة إصلاح أعمق ما في الإنسان، أَلَا وهُو قَلْبُه، المضغة الصغيرة في الجسد التي إذا صَلَحَتْ صلَح الجسد كله، وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجسَدُ كُلُّه، فالعناية كلها ينبغي أن تتوجه لإصلاح القلب. إنَّه نَواةُ الإنسان، وبِزْرَةُ شجرته كلِّها، والعنايةُ بالظاهر دون القلب لا تغني، وكم من الناس مَنْ تشغَلُهم الظواهر ويهملون أَمْرَ القلوب.

فهذا الحديث من جوامع كَلِم الرسول ﷺ إلَّا أنَّه اقتصر على جناح الحرام، ولم يذكر جناح الواجب، وباستطاعتنا أن نقيس جناح الواجب على جناح الحرام، في كل ما جاء فيه، أو نُدْخل جناح الواجب في عموم جناح الحرام باعتبار أن الواجب حرام تركه، فَنُعَمِّمُ الْحَرامَ ونَجْعَلُهُ شَاملًا لما هو حَرامُ الفعل وحَرَامُ التَّرْك.

وهذا من بلاغة الرسول ﷺ ومن إيجازه، ومن جوامع كلِمِه.

* * *

المقولة الثانية



لدى التأمل في النصوص الإسلامية والمفاهيم العامة المقتبسة منها: نلاحظ أن الغاية من التزام فضائل الأخلاق والابتعاد عن رذائلها تنقسم إلى عنصرين:

العنصر الأول:

اكتساب مرضاة الله تعالى الخالق الرازق المنعم المحيي المميت، الذي يجازي على الحسنة بأضعافها، ويجازي على السيئة بمثلها، فإنه سبحانه يحب فعل الخير، ويكره فعل الشر، ومن استطاع أن يرضي الله تعالى بعمله الصالح ظفر بمقدار عظيم من سعادة الحياة الدنيا في دار الابتلاء، وظفر بمقدار أجل وأعظم من سعادة الآخرة في دار الجزاء.

والتزام مكارم الأخلاق التي أمر بها الإسلام أو رغب بفعلها، واجتناب نقائص الأخلاق التي نهى عنها الإسلام

أو رغب بتركها، من الأعمال الصالحات التي يظفر عاملوها بنسب من مرضاة الله تعالى ملائمة لمقادير أعمالهم ونياتهم، ولذلك يكون نصيبهم من سعادة القلب وسعادة الجزاء المعجّل في الحياة الدنيا؛ على مقدار ما حققوا بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله تعالى، ويكون نصيبهم المضاعف من السعادة العظمى في الآخرة ملائماً لما حقَّقُوه بأعمالهم ونيّاتهم من مرضاة الله جل وعلا.

وباكتساب مرضاة الله تعالى تتحقق النجاة من الشقاوة والتعاسة، التي يجلبها الإنسان لنفسه بإسخاط ربه، فيما يقوم به من أعمال سيئات.

وهذا الجزاء المسعد لا يظفر به إلا من ابتغى مرضاة الله فأخلص له النية فيما يقوم به من صالح العمل.

هذا العنصر يتلخص:

أولاً: بالظفر بسعادة معجلة دنيا، وسعادة مؤجلة أبدية خالدة، وهاتان السعادتان تأتيان جزاءً على أعمال صالحة ابتَغىٰ بها المكلّف وجه الله تبارك وتعالى، وذلك لا يكون إلا مع الإيمان بالله.

ثانياً: بالنجاة من شقاوة يجلبها الإنسان لنفسه،

بإسخاط ربّه فيما يقوم به من أعمال سيئة، يخالف بها أوامر ربّه ونواهيه.

العنصر الثاني:

تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق في ظروف الحياة الدنيا، وهي أنواع السعادة التي تمنحها سُنَنُ الله في كَوْنه، الشاملة لجميع خلقه، من آمن به منهم ومن كفر به، والنجاة من أقساط من الشقاوة التي تجلبها الجرائم والجنايات وفق سنن الله في كونه، الشاملة لجميع خلقه، من آمن به منهم ومن كفر به.

والتزام قواعد الأخلاق الإسلامية كَفِيلٌ بتحقيق أكبر نسبة من هذه السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ثم لسائر الشركاء في الحياة على هذه الأرض وذلك بطريقة بارعة جدّاً يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى، ويتم فيها إعطاء كل ذي حق حقه، أو قسطاً من حقه وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المحفوف بالحق والعدل.

فمن الواضح في هذا العنصر أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تُهْمِل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها، ولم تُهْمِل ابتغاء سعادة

الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها.

وروعة الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام، تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر فيما تحقِّقُه من وحدات السعادة الجزئية في ظروف الحياة الدنيا، بقدر ما تسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة، التي تشمل جميع العاملين، مؤمنين بالله أو كافرين، أخلصوا له النية أم لم يخلصوا.

بخلاف العنصر الأول فإنه لا يتحقق إلا لمن آمن بالله وأخلص له في العمل.

عناصر السعادة:

وحين نتساءل عن العناصر التي يشعر الإنسان فيها بالسعادة نجد أن أهم هذه العناصر مشاعر اللَّذات، ومشاعر الخلو من الآلام.

ولذات الجسد وآلام الجسد أهون اللَّذات والآلام قيمة، ولكنها تدخل ضمن الوحدات الجزئية التي تَمْنَحُ الإنسان قسطاً من السعادة، كرذاذ سريع الجفاف ولا يملأ ساحة النفس والقلب والروح.

وفوقها تأتي لذَّاتُ النفس وآلامها، فهي أعمق؛ وأشمل، ومُدَّة بقائها أطول.

وفوقهما تأتي لذات الروح وآلامها، فهي أعمق منهما وأشمل منهما، وأبقى منهما.

وقد تطغى لذة النفس على ألم الجسد فلا يشعر الإنسان بألم الجسد، وقد تطغى لذة الروح على ألم النفس فلا يشعر الإنسان بألم النفس.

فمغانم السعادة تأتي على مقدار قيمتها الحقيقية.

وقد تطغى آلام النفس على لذات الجسد، فلا تكون للذات الجسد أية قيمة، وقد تطغى آلام الروح على لذات النفس، فلا تكون للذات النفس أية قيمة، فمصائب التعاسة والشقاء تأتي على مقدار قيمتها الحقيقية أيضاً.

فأعلى أنواع السعادة ما يأتي عن طريق لذات الروح، ويَنْبَعُ من داخل كيان الإنسان. وأشد أنواع التعاسة والشقاء ما يأتي عن طريق آلام الروح، وينبع من داخل كيان الإنسان، ولا يأتيه من خارج عنه. ودون ما يأتي عن طريق الروح ما يأتي عن طريق النفس، ودونهما ما يأتي عن طريق الجسد.

وهذا الذي نبهت عليه النصوص الإسلامية، هو ما

انتهى إليه معظم عقلاء الفلاسفة والأخلاقيين والمفكرين المنصفين.

ومما لا ريب فيه أن أنواع اللّذات كلها قد تساهم مساهمةً مَا في اغتنام أقساط من السعادة، ما لم تعارضها آلام أشدُّ منها وأقوى وأدخل في أعماق الإنسان. كما أن أنواع الآلام كلها قد تساهم مساهمة ما في الإصابة بأقساط من التعاسة والشقاء، ما لم تعارِضْهَا لذّات أشدُّ منها وأقوى وأدخل في أعماق كيان الإنسان.

والإسلام لم يُهْمِل أيَّ نوعٍ من أنواع اللّذات والآلام، ولكنه قد أدخلها جميعاً في حسابه، ثم أقام قواعد التوفيق الأخلاقي على هذا الأساس.

وبالإضافة إلى ملاحظة اللذات والآلام لاغتنام أكبر قسط مستطاع من السعادة للفرد والمجتمع، أدخلت الأخلاق الإسلامية في حسابها ـ الذي أقامت عليه قواعد الأخلاق ـ المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، العاجلَ من كُلٍّ ذاك والآجل للفرد وللجماعة، وأجرت بين المتعارضات منها موازنات وتوفيقات عجيبة، كفيلة بجلب أعظم نسبة مستطاعة من الخير، ودفع أكبر نسبة يستطاع دفعها من الشر، مع المحافظة على العدل بين ذوي الحقوق، ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا.

وفي الشريعة الإسلامية وَفْرَةٌ من النصوص المشيرة إلى السعادة بوصفها غاية منشودة، وإلى اللّذة بوصفها أمراً قد توجد به أو معه السعادة.

ووفرة أيضاً من النُّصُوص المشيرة إلى الشقاء الذي يدخل الحذر منه واتخاذ الوسائل لتفاديه ضمن الغاية المنشودة، ومن النصوص المشيرة إلى الألم بوصفه أمراً قد يُوجَدُ به أو معه الشقاء.

فمن هذه النصوص ما يلي:

أ ـ يقول الله تبارك وتعالى في معرض الحديث عن يوم القيامة في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان للغاية العظمىٰ التي يَنْشُدُها المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ألا وهو نَيْلُ السعادة الخالدة والنجاة من الشقاء. وفيه أيضاً بيان أن الناس في النتيجة ينقسمون إلى فريقين:

١ ـ فريق شقي.

٢ ـ وفريق سعيد.

أما الفريق الشقي فهو الفريق الذي جَحَد وكفر وعَمِل عملًا سيئاً، استجابة لأهوائه وشهواته الأنانية، واتباعاً لخطوات الشيطان.

وأما الفريق السعيد فهو الفريق الذي آمَنَ وأطَاعَ واتّقَى وعَمِل عملًا صالحاً، استجابة لله وللرسول، وتلبية لدعوة الخير التي فيها حياة ناعمة سعيدة لمن استجاب لها.

ب ـ ويقول الله تعالى في وصف الجنة في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

تُحبرون: تَتَنَعَّمُون وتَسْعَدُون.

ففي هذا النص بيان لأنواع من اللذات المسعدة، ومنها لذات النظر، إذ قال تعالى: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾.

واللذة إحساس مسعد تشعر به النفس، وقد يكون طريقه إحدى الحواس الجسدية الظاهرة.

ج ـ ويقول تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ينزفون: يسكرون وتذهب عقولهم من السُّكْر.

ففي هذا النص تنويه باللذة التي تأتي عن طريق الفم.

د ـ واستعمل القرآن تعبيراً أعَمَّ وأشمل من لفظ اللَّذَة، هو التعبير بكلمة النعيم، للدلالة على أنواع من السعادة.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

فاكهين: يتفكهون بأصناف الملاذّ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناكح وغير ذلك.

ومن أجل ذلك تكَرَّر في القرآن تسْمِيةُ الجنة بأنها جنة النعيم، وتسمية الجنات بأنها جنات النعيم، إشعاراً بأن النعيم فيها من العناصر المسعدة لأصحابها المنعمين فيها.

هـ ـ ولكن في الجنة ما هو أكبر من نعيمها، مما يحقق لأهلها سعادة أعظم، ألا وهو رضوان من الله، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

فهذا الرضوان يَمْنَحُ المؤمنين في الجنة سعادة أكبر من السعادة التي يمنحها النعيم وأنواع اللذات المادية والمعنوية المختلفة.

و ـ وجاء التعبير عن الآلام المشقِيَةِ لأَهْلِ الشقاء بعدة ألفاظ، منها الألم، ومنها العذاب، والآلام منها آلام حِسِّيَّة، ومنها آلام نفسية، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

وفي العذاب المعنوي يقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

فالإهانة تتضمن عذاباً معنوياً شديد الألم، وربما يكون العذاب المعنوي أشد إيلاماً من العذاب الماديّ الحسّيّ.

وبدهي أن أنواع العذاب متفاوتة، ولذلك قال الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وكذلك تتفاوت أنواع النعيم ودرجات اللذات.

وبهذا البيان يظهر لنا أن الغاية التي يرشد إليها الإسلام من التزام قواعد الأخلاق الإسلامية تقع في مركز القمة.

أما بحوث الباحثين الأخلاقيين المخلصين في البحث العلمي فإنها ـ ما لم تطابق ما جاء في الإسلام ـ تَظَلُّ مِنْ دون القمة التي ارتقت إليها المفاهيم الإسلامية.

* * *

لمحة عن نظرات الفلاسفة والباحثين في علم الأخلاق:

بحث الفلاسفة القدماء، والفلاسفة المتوسطون، وفلاسفة المدنية الحديثة عن الغاية من التزام قواعد الأخلاق، فاتَّجَه معظمهم إلى أن السعادة هي الغاية من التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها، ولكنهم جميعاً عدا أهل الإيمان لم يدركوا غير العنصر الدنيوي الذي تقتضيه سُنَنُ الكون الثابتة، وتقتضيه ـ بحسب نظرهم ـ طبيعة هذه الحياة، ولم يفتهم أن يلاحظوا أثر اللذات والخلو من الآلام في مشاعر السعادة، ولقد دارت جميع بحوثهم في هذا المدار.

ثم إن أكثرهم عقلًا وبصراً في الأمور قرروا أن السعادة المنشودة لا تأتي من خارج النفس الإنسانية، كالمال والجاه والبنين والشهوات ومُتَعِ الجسد ونحو ذلك، ولكنها تأتي من داخل النفس الإنسانية، كلذَّاتِ القناعة، والرضا، وتحصيل المعارف الكبرى، ولذات فعل الخير وإرضاء الضمير.

وسيطرت الماديَّاتُ على بعضهم فرأوا أن السعادة إنما تجلبها اللذات المادية، فانطلقوا في المفاهيم الأخلاقية ضمن حدود اللذات المادية، فانحرفوا انحرافاً كبيراً، وكان من بين هؤلاء فريق لم يؤمن بأن للأخلاق

غاية تقصد، فدعا إلى إطلاق العنان للأهواء والشهوات، ودعا إلى إنماء الأنانيات الفردية في هذا المجال، وعمل على تهديم الأبنية الأخلاقية السائدة في المجتمعات البشرية.

واستطاع أحسنهم بصراً أن يلاحظ الجماعة ولكن من خلال مشاعر السعادة التي يشعر بها الفرد، وتأتي هذه المشاعر عن طريق مشاعر الإيثار أوالمشاركة الوجدانية المعارضة لمشاعر الأنانية، وعن طريق مشاعر الضمير الذي يحس بالخير والشر، وقرروا أن الإنسان يسعد عند شعوره بسعادة الآخرين، ويتألم لآلامهم، وهذا ما يدفعه إلى فعل الخير لأجل الآخرين، ومن هنا تتفجر منابع أخلاق كريمة كثيرة؛ أما سعادة الضمير بفعل الخير وترك الشر، فهي سعادة تتفجر منها فضائل خلقية كثيرة أيضاً.

فالفرد الإنساني في نظرهم يلتزم فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها لأنه يشعر بالسعادة الذاتية إذا هو فعل ذلك، وهذا أسمى ما انتهى عقلاؤهم إليه. وأفرط بعضهم كالفيلسوف (كانْتْ) فرأى أنه يجب على الإنسان أن يفعل الخير للخير، دون أن يلاحظ شيئاً من الثواب على فِعْلِه، حتى ولا مشاعر السعادة الذاتية التي يشعر بها من يفعل الخير، ورأى أن الفضيلة الخلقية ينبغي أن

تكون مجرَّدة عن المصلحة الذاتية مطلقاً، وهذا خروج بالإنسانية عن الواقعية إلى أمور خيالية نظريَّةٍ لا مثال لها في الواقع الإنساني، وإن وجد لها بعض الأمثلة في بعض الأحوال فذلك شذوذ عن الطبيعة الإنسانية العامَّة. والفضائل ليست لهذا الصنف وحده المتميز عن طبيعة الناس، وإنما هي لجميع الناس، والغرض منها سعادة البشرية بوجه عامّ، وإصلاح سلوك الناس كل الناس.

فأَحْسَنُ ما وصل إليه الباحثون في علم الأخلاق، حول موضوع الغاية من التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها، هو ما ذكروه من الشعور بالسعادة الذاتية التي يُحَقِّقُها لنفسه الملتزم.

ولكن تبدو لنا في حدود هذا الرأي الناقص مشكلة إصلاح الذين لا يتحسسون بمشاعر السعادة الذاتية عند فعل الخير، ولا يتحسسون بالآلام الذاتية عند فعل الشر، وليس لديهم مشاركة وجدانية لغيرهم في سعادة أو ألم، لأنهم أنانيون مفرطون في أنانياتهم، وكيف يأمن المجتمع شُرُورَ هؤلاء، وكيف يظفر المجتمع بأخوّتهم الصحيحة وبالتعاون معهم، وهم في حدود مشاعرهم وأحاسيسهم الذاتية لم يُعَكِّرُوا صَفْوَ سعادتهم، وإنما فعلوا ما رأوا فيه سعادة أنفسهم؟!

لقد قصّرت ههنا وكَبَتْ الفلسفة الإنسانية التي لم تسترشد بتعاليم الدين الربّانيّ الصحيح ولم تَهْدِها أنوارُ الإيمان بالله واليوم الآخر، فظهر نقصها وعجزها، إذ لم تستطع أن تأتي بما يضمن إصلاح النسبة العظمى من المجتمع البشري. كما يظهر أيضاً نقصها وعجزُها في حدود سعادة الفرد نفسه، وذلك حينما تطغى عليه شهوة من الشهوات، أو يُسَيْطِرُ عليه هوىً من الأهواء، فيرى أن سعادته إنما تتحقق بأن ينال لذّاتِ شهوته أو هواه، فتجني عليه هذه اللّذات المؤقتة جنايات كبرى، تدفع به إلى جحيم من التعاسة والشقاء والآلام الدائمة.

إن الإنسان وَحْدَهُ من دون إرشادات الوحي وتعاليم الدين الصحيح، لا يكفي لإدراك ما يُشْقِيه ويشقي المجتمع الإنساني، ومن أجل ذلك كان بحاجة شديدة إلى دليل يدله، وعاصم يعصمه عن الانحراف والخطأ. وبحاجة شديدة أيضاً إلى زاجر يزجره، ويساعده على أهواء نفسه وشهواتها، ومرغب يرغبه بالخير، فيساعده بذلك على أهواء نفسه وشهواتها.

أما مشاعر الإيثار والمشاركة الوجدانية باللّذات والآلام والسعادة الذاتية بفعل الخير، فهي مساعداتٌ تساعد الإنسان على الالتزام بالخير والابتعاد عن الشر،

والتقيد بالتعاليم التي أرشد الله إليها عِبَادَه، وهي من نعم الله على عبده، حتى يشعر بلذَّةِ فعل الخير إذا هو فعله، ويشعر بالنفور من فعل الشر إذا مالت نفسه وأهواؤه إلى فعله.

وتظل الفلسفة الإسلامية في مركز القمة.

* * *



المقولة الثالثة

تفنيد مزاعم الماديّين الذين يقولون بنسبية الأخلاق

في خطة خبيثة لهدم أبنية الأخلاق، أخذ فَرِيقٌ من الماديّين الملحدين ينشرون فكرة شيطانية، يزعمون فيها أن الأخلاق أمور اعْتِباريَّة نِسْبِيَّة لا ثبات لها، فهي تختلف من شعب إلى شعب، ومن أمة إلى أمة، ومن زمان إلى زمان. فبعض الأمور تعتبر منافية لمكارم الأخلاق عند شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، في حين أنها غير منافية لمكارم الأخلاق عند شعب آخر أو أمة أخرى، وبعض الأمور كانت في زمان مضى أموراً منافية لمكارم الأخلاق، ثم صارت بعد ذلك أموراً غير منافية لها؛ وهذا يدل على أن الأخلاق مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها، وليس لمقاييسها ثبات.

وحين يتبصر الباحث في أقوال هؤلاء، يستطيع أن يكتشف عناصر المغالطات التي يلتجئون إليها، للتضليل بأفكارهم؛ وهذه المغالطات ترجع إلى مَدّ عنوان الأخلاق مدّاً يشمل التقاليد والعادات والآداب وبعض الأحكام الدينية التي لا علاقة لها بموضوع الأخلاق من حيث ذاتها، ويشْمَلُ مفاهيم بعض الناس للأخلاق ولأسسها، مع أنها مفاهيم غير صحيحة، إلى غير ذلك من أمور ليست هي من الأخلاق أصلًا.

والغرض من ذلك استغلال أمْثلَةٍ تَخْضَعُ للتغيُّر والتبدل من هذه الأمور؛ لنقض حقيقة ثبات الأخلاق بها، ثم لنقض الأخلاق نقضاً كليّاً، ونقض الأسس الأخلاقية، والإقناع بأن الأخلاق أمور اعتبارية نسبيَّةٌ تتواضع عليها الأمم، وليس لها ثبات في واقع حالها.

وبذلك يسهل على هؤلاء المضلين إفساد الأجيال، حتى تتمرد على جميع الضوابط الأخلاقية التي تمثِّلُ في الأمم قوى ترابطها وتماسكها، وعناصر ارتقائها الإنساني.

ومنشأ المشكلة يرجع إلى الخطأ في تحديد مفهوم الأخلاق، وتحديد دوافعها وغاياتها، وتحديد مستوياتها، من قبل كثير من الناس، بما فيهم كثير من الباحثين في علم الأخلاق، من فلاسفة ومفكرين؛ هذا هو الذي يفتح

الثغرة الفكرية التي يعبر منها الخبثاء الماكرون، ليهدموا الأبنية الأخلاقية الحصينة التي تتمتع بها الشعوب العريقة بأمجادها، ولا سيما المسلمون الذين سَبَق أن رفعتهم الأخلاق العظيمة إلى قمة مجد لم يطاولهم فيها أحد.

وحين يتبصر الباحِثُ بالأسس الأخلاقية، التي تم فيها تحديد مفهوم الأخلاق وتحديد دوافعها وغاياتها، وتحديد مستوياتها، وفق المفاهيم المقتبسة من التعاليم الإسلامية، يتبين له بوضوح تساقط أقوال الذين يزعمون أن الأخلاق نسبية أو اعتبارية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقائق ثابتة، وذلك لأنه يستطيع أن يكتشف بسرعة عناصر المغالطة التي يصطنعها هؤلاء المضللون، إذ يأتون بأمثلة جزئية يزعمون أنها من الأخلاق، ثم يثبتون أنها أمور اعتبارية أو نسبية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، ثم ينقضون بها ثبات الأخلاق نقضاً كليّاً، بطريقة تعميمية لا يقبل بها العلم، حتى ولو كانت هذه الأمثلة من الأخلاق فعلًا، لأنه لا يجوز الحكم على النوع من خلال الحكم على بعض أفراده، ما لم يثبت أن سائر الأفراد مشتركة بمثل الصفة التي كانت علة صدور الحكم على بعض الأفراد.

ومغالطتهم هذه تشبه مغالطة من يأتي بمجموعة من

القرود، ويلبسها لباس البشر، ويدخلها بين مجموعاتهم، ثم يقول: إن الناس جميعهم لهم صفات القرود، بدليل أن هذا الإنسان ـ ويشير إلى بعض قروده ـ له صفات القرود، وهذا الإنسان ـ ويشير إلى فرد آخر من هذه المجموعة ـ له صفات القرود؛ وهكذا يأتي بأمثلة متعددة من هذا العنصر الدخيل، ثم يصدر حكمه التعميمي في مغالطة أخرى فيقول: ومن هذا يتبين لنا أن جميع الناس لهم صفات القرود.

إن هذه العملية قد تضمنت مغالطة مركبة تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إدخال عنصر ليس من البشر تحت عنوان البشر.

المرحلة الثانية: تعميم الحكم الذي يصدر على هذا العنصر الدخيل، وجعله شاملاً للناس جميعاً.

هذا مثال مطابق تماماً لمغالطتهم في موضوع الأخلاق، إن عَمَليَّتَهُمْ هناك قد تضمنت أيضاً مغالطة مركبة تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إدخال ما ليس من أفراد الأخلاق تحت عنوان الأخلاق.

المرحلة الثانية: تعميم حكمهم على هذه الأفراد الدخيلة، وجعله شاملاً لجميع أفراد الأخلاق الحقيقية.

ولهؤلاء المضلِّلِين مغالطة أخرى حول الموضوع نفسه، وهي اعتمادهم على مفاهيم بعض الناس للأخلاق، واعتبار هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة الأخلاق، مع أن مفاهيم الناس قد تصدق وقد تكذب، فهي لا تُمثّل جزءاً من حقيقة الشيء الذي هو موضوع البحث، وإنما تُمثّل مقدار إدراك أصحابها لحقيقة الشيء، فقد يكون هذا الإدراك مطابقاً، وقد يكون مخالفاً، وقد يكون كاملًا وقد يكون ناقصاً، وهو لا يؤثر بحالٍ من الأحوال على حقيقة الشيء.

لقد كان للفلاسفة القدماء مفاهيم عن السماء، وهذه المفاهيم مخالفة لواقع حال السماء، ومع ذلك فلا يقبل العقل اعتبار هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة السماء.

وللناس مفاهيم كثيرة باطلة عن الخالق، ولا يجوز أن تكون هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة الخالق.

وينكر كروية الأرض منكرون، ولكن مفاهيمهم هذه لا يمكن أن تجعل الأرض في واقع حالها غير كروية.

وهكذا يُدخِل فريق من الناس في الأخلاق ما هو

ليس من الأخلاق؛ كتقاليد وعادات وأحكام وضعية. ويَجْحَد فريق من الناس بعض ما هو من الأخلاق، فيزعم أنه لا داعي للتقيد بقواعد الأخلاق فيها، فلا يؤثر هؤلاء ولا هؤلاء على الحقيقة المطلقة للأخلاق، فليست مفاهيم الناس هي التي تصنع الحقائق، وإنما وظيفتها أن تعمل على إدراك الحقائق، حتى تكون صورة مطابقة لها.

قال المغالطون ـ الذين زعموا أن الأخلاق نسبية اعتبارية، وليس لها حقيقة مطلقة ثابتة، وهي قابلة للتغير والتبدل من زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة ـ: إن مما يدل على ذلك أن بعض الشعوب ترى خروج النساء بدون حجاب عملًا منافياً للأخلاق بينما ترى شعوب أخرى أن هذا العمل أمْرٌ طبيعي لا ينافي ضوابط الأخلاق بحال من الأحوال.

ويَدُلُّ على ذلك أيضاً أن بعض الأمم تُحَرِّمُ أكْلَ بعض أنواع من اللحوم، وتحرم شرب بعض أنواع من الأشربة، وتعتبر مخالفة ذلك عملًا منافياً للأخلاق، بينما ترى أُمَمٌ أخرى أنه لا شيء من ذلك محرم أو منافٍ للأخلاق.

ويأتون أيضاً بمثال تعدد الزوجات وإباحته عند أمة وتحريمه عند أمة أخرى، وبأمثلة الطقوس السائدة في

البلاد الأوقيانوسية، ومنها تحريمهم الطعام تحت سقف، والمكث في المسكن إذا كان الإنسان مريضاً، وتحريمهم استعمال الأيدي في تناول الغذاء بعد فراغ الإنسان من حلق شعره، أو بعد فراغه من صنع زورق، ويقولون: هذه أمورٍ منافية للأخلاق عندهم، مع أنها عند غيرهم أمور عادية لا تنافي الأخلاق مطلقاً.

أليس عجيباً جدّاً أن يُدْخِلُوا مثْلَ هذه الأمثلة في باب الأخلاق مع أنها في جوهرها من أبواب أُخْرى غير باب الأخلاق، فهي إما أحكام دينية، أو طقوس وعادات وتقاليد!! وإدخالها في باب الأخلاق خطأ فادح يَجُرُّ إلى خطأ آخر أكبر منه بكثير، إنه خطأ يجعل الأخلاق أموراً نسبية اعتبارية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقيقة ثابتة في ذاتها!!

وما قيمة مفاهيم الناس حول حقيقة من الحقائق؟!، ولنفرض أن بعض الناس استحسنوا رذائل الأخلاق، ولم يَجِدوا أيَّ رادع من ضمائرهم يردعهم عنها، فمارسوا الظلم بمثل الجرأة التي يمارسون بها العدل، ومارسوا الخيانة بمثل الجرأة التي يمارسون بها الأمانة، ومارسوا قسوة القلب بمثل الجرأة التي يمارسون بها الشفقة والرحمة، ومارسوا الكذب الضار بمثل الجرأة التي

يمارسون بها الصدق النافع؛ أفيغَيِّرُ ذلك واقع حال الرذائل فيجعلها من قبيل الفضائل؟!

كم نشاهد من شعوب تألف القذارات وتعيش فيها ولا تشعر بأنها تعمل عملًا غير مستحسن أو غير جميل، فهل تُغَيِّرُ مفاهيمهم من واقع حال القذارة القبيح شيئاً؟!

إن فساد مفاهيم الناس حول حقيقة من حقائق المعرفة لا يغير من واقع حال هذه الحقيقة شيئاً، وجميع حقائق المعرفة تتعرض لمشكلة فساد مفاهيم الناس عنها، وفساد تَصَوُّر الناس لها.

إن موضوع حجاب المرأة وسفورها، أَمْرٌ لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، إنما هو في حدوده الشرعية حكم ديني يهدف إلى تحقيق مصالح دينية واجتماعية يَقْصِدُها الشارع، فإدخالهم هذا الحكم في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو من عناصر الْغَلَطِ إذا حسَّنَّا الظن.

وكذلك موضوع الأطعمة والأشربة، فهو غير ذي علاقة بالأخلاق، وأحكام الأطعمة والأشربة أحكَامٌ دينية تهدف إلى تحقيق مصالح دينية وصحية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذه الأحكام في موضوع الأخلاق جزء من

عناصر المغالطة، أو من عناصر الغلط إذا حسنًا الظن.

ونظير ذلك سائر الأمثلة التي أوردوها لنقض ثبات الأخلاق، إنها أمثلة من العادات والتقاليد الاجتماعية، أو من الظواهر الجمالية الأدبية، أو من الأحكام المدنيَّة، أو من الأحكام الدينية لدين صحيح أو لدين وضعي من وضع البشر، ونحو ذلك، وليست في حقيقة ذاتها من الأخلاق.

ويوجد سبب ثالث للخطأ الذي يقع فيه الباحثون في علم الأخلاق، هو اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجَعْلُهَا المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق، ونسبوا إلى هذا المقياس العصمة عن الخطأ، مع أنه مقياس غير كاف وحده، فقد يخطىء، وقد يُصاب عند بعض الناس بعلة من العلل المَرَضية، فيَعْشَىٰ أو يَعْمَىٰ أو تختل عنده الرؤية فَيُصْدِرُ أحكاماً فاسدة.

ومما سبق يتضح لنا أن أسباب الغلط أو المغالطة عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق، ترجع إلى ثلاثة:

الأول: تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخلقية، عن الظواهر الجمالية والأدبية، وعن العادات والتقاليد

الاجتماعية، وعن التعاليم والأحكام المدنية أو الدينية البحت، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية.

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أن في كثير من هذه المفاهيم أخطاءً فادحة، وفساداً كبيراً، يرجع إلى تحكم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضاً إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحَرّي العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يَحْكُمُوا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكلُّ الحقائق عُرْضَةٌ لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك فيها متشككون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها.

الثالث: اعتمادُهُمْ على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعْلُهَا المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق.

أما مفاهيم الإسلام فإنها ـ كما قد عَلِمْنَا ـ قد ميزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تُعَمِّمْ تعميماً فاسداً، ولم

تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضاً لم تعتمد على مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنَّها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلَّما أخطأا سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلَّغَها رُسُلُه. أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد صلوات الله وسلاماته عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

فمن تَبَصَّر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأن الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأن هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب أو بالعقاب، فإنه لا بد أن يظهر له بجلاء أن الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة ما دام نظامُ الكون ونظامُ الحياة ونظامُ الخير والشر أموراً مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة

زمان.

أما الأمة الإسلامية فهي أُمَّةٌ واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بَيَّنَها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه.

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجَدْنَا أن كل واحدة منها ـ ضمن شروطها وقيودها وضوابطها ـ ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنْطِق السليم للتحول من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن. إن حَسَنها حَسَنٌ في كل زمان، وقبيحها قبيح في كل زمان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأُمَمِ على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثراً بالأهواء، أو بالشهواتِ، أو بالتقاليدِ العمياء.

إن الإسلام يقرر أن حُبَّ الحق وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أن كراهية الحق وحب الباطل رذيلة خلقية، فهل يشك أحد سويّ عاقل في أن هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحوُّل ولا للتغيُّر، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية.

أما طريقة دهاة التضليل لهدم الأبنية الأخلاقية فهي تتلخص بما يلي:

١ ـ أن يُقْنِعُوا الأجيال بأن الأخلاق نسبية اعتبارية لا ثبات لها، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، فهي خاضعة للتبدُّل والتغير.

٢ ـ أن يستغلوا بخبث بعض النظريات الفلسفية التي من شأنها تقليل قيمة الأخلاق في نفوس الناس، إذ تقيمها على أسس واهنة ضعيفة، أو على شفا جرف هار!! ومتى قامت في نفوس الناس على مثل ذلك تدَاعَتِ الأبنية الأخلاقية التقليدية، ثم انهارت، وحلَّتْ محلها أنانيات فوضوية، تعتمد على القوة والحيلة، والإباحية المطلقة لكلِّ شيء مستطاع، فلا خير إلا ما تدعمه القوة، ولا شر إلا ما تضعف القوة عن تحقيقه.

٣ ـ أن يُلَفِّقُوا من عند أنفسهم نظريات فلسفية يخدعون بها الناس، ولا سيما الناشئون منهم، ويستغلون فيهم رغبات المراهقة بالتمرد على الحق والواجب، تطلّعاً لمجد موهوم، وقد تطول فترة المراهقة عند بعض الناشئين، حتى تكتسح عُمْرَ الشباب منهم، وجزءاً من عمر الكهولة، وسبب ذلك الاستسلام التام لعواصف طَوْرِ المراهقة، ووجود المغذيات الشيطانية الخبيثة، وضعف

التربية الإسلامية أو انعدامها. ومتى وجدت هذه الظروف المواتية لنمو الشر، فليس من البعيد أن يَصِير الإنسان شيخاً في سِنِّه وجِسْمِه ويبقى مراهقاً في عقله ونفسه.

٤ ـ اتخاذ الوسائل العمَلِيَّةِ التطبيقية لإفساد أخلاق الأمم، وأهمها الغمس في بيئات موبوءة بالأخلاق الفاسدة، حتى تكون الانحرافات عادات مستطابات.



الفصل الثالث

المسؤولية عن السلوك الأخلاقي وشروط ترتيب المسؤوليّة

١ ـ السلوك الأخلاقي وشروط ترتيب المسؤولية.

٢ ـ المسؤولية ذات طابع شخصيّ.

٣ ـ قطاعات الكسب الإرادي باعتبار موقع السلوك.

٤ ـ ما يسأل الإنسان عنه يوم الحساب.

٥ ـ الحريّة وحدودها.



(١)
السلوك الأخلاقي وشروط ترتيب المسؤولية

السلوك الأخلاقي كسائر أنواع السلوك الإنساني الإرادي من جهة المسؤولية لا فرق بينه وبينها، فالإنسان المدرك الواعي موضوع في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، والمبتلىٰ مسؤولٌ عن سلوكه الإرادي، ومحاسب عليه، وبعد الحساب وفَصْلِ القضاء يكون الجزاء.

شروط ترتب المسؤولية:

ومسؤولية الإنسان الحقيقية عن عمله مَنُوطَةٌ باستيفاء شروط ستة:

الشرط الأول: أن يكون صاحبُ العمل أهلاً لتحمُّلِ المسؤولية.

الشرط الثاني: أن يكون العمل عملاً إرادياً.

الشرط الثالث: أن تتوافر في العمل النية والقصد لما ينجم عنه من نتائج خير أو شر.

الشرط الرابع: العِلْمُ بالعمل، وبما يؤدي إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي.

الشرط الخامس: كون العمل مستطاع الفعل والترك.

الشرط السادس: أن يكون صاحب العمل مُتَمَتِّعاً بحريته عند أداء العمل، غير مكره عليه.

ولهذه الشروط العامة تفصيلات وتحديدات وبعض قيود، يقتضي منا البحث معالجة أهم ما فيها، فلنعالج ذلك بمقدار.

أولاً: شرح الشرط الأول:

وهو أن يكون صاحب العمل أهلًا لتحمل المسؤولية:

وقد حدد الشارع أهلية تحمل المسؤولية الدينية ذات العقاب الأخروي، بالعقل والبلوغ، أما فاقد العقل فلا مسؤولية عليه طبعاً، ولا اعتبار لأيّ عمل من أعماله، وأما غير البالغ فقد أعفاه الخالق من المسؤولية الأخروية في رأي جمهور الفقهاء وإن كان مُمَيّزاً، دون أن يَحْرِمَه من ثواب عمله الصالح، وذلك لتكون مدّة ما قبل البلوغ مدّة تربيةٍ وتعليم وإنضاج فكريّ ونفسيّ، وخفف مسؤوليته الدنيوية إلى مستوى المسؤولية التربوية التي يتولاها أولياؤه المربون له، فيؤدبونه بمختلف وسائل التأديب التي أذن بها الشارع، ومنها بعض أنواع العقاب المادي كالضرب والحرمان ونحوهما، ومنها بعض المؤاخذات الجزائية الماليَّة، وتختَلِفُ وسائِلُ التربية

والتأديب باختلاف حَالِ غَيْرِ البالغ، مميزاً كان أَمْ غير مميز، قارب سِنّ البلوغ أمْ لم يقاربه.

وفي رفع المسؤولية عن المجنون وعمَّنْ كان دون البلوغ جاء في الحديث الصحيح:

«رُفِعَ الْقَلَمُ عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّىٰ يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّىٰ يُدْرِكَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ».

وقد تعددت طرق هذا الحديث ما بين مرفوع وموقوف، دون أن يبلغ المرفوع منها درجة الصحة، وقال ابن حجر: وللمرفوع شاهد من حديث أبي إدريس الخولاني: أخبرني غير واحد من الصحابة ـ منهم شداد بن أوس، وثوبان ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«رُفِعَ الْقَلمُ في الْحَدِّ عَنِ الصَّغِيرِ حَتّىٰ يَكْبُرَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظ، وعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّىٰ يُفِيقَ، وعَنِ الْمَعْتُوهِ الْهَالِكِ»[1].

وقد أخذ الفقهاء بمضمون هذا الحديث.

---

(١) انظر فتح الباري عند شرح الحديثين ٦٨١٥ و٦٨١٦، «باب لا يُرْجَمُ المجنون والمجنونة».

والمراد من رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ رفع قلم المؤاخذة عنه، أما قلم الثواب فلا يرتفع، وذلك فضل من الله ورحمة، فيكتب لمن هم دون البلوغ ثواب أعمالهم الصالحة، إذا فعلوها بإراداتهم على وجهها، ولذلك كلَّفَ الشارع أَوْلِياءَ الصِّغَارِ بأن يأمروهم بالصلاة وفعل الخيرات، وينهوهم عن المعاصي والآثام.

روى الإمام أحمد وأبو داود بإسناد حسن عن عَمْرو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدّه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، واضرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

وقال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ . . . ﴿٥٨﴾﴾.

* * *

ثانياً: شرح الشرط الثاني:

وهو أن يكون العَمَلُ عملًا إرادياً.

أي: صادراً عن إرادة صاحب العمل، ومتى اختل هذا الشرط سقطت المسؤولية. وبناءً على ذلك فإن الأعمال التي لا تكون إرادة الإنسان الحرة ذات وساطة ما في وُجُودِها، لا يكونُ الإنسان مسؤولًا عنها، كالرّعَشات، وكحركة النائم، وكتصرفات المجنون الذي فقد إرادته العاقلة، وكالمُلجَأ إلى الأمر إلجاءً، مثل المقذوف مكرهاً يقع على إنسان فيَقْتُلُه، أو على شيء فيُتْلِفه. فالأعمال الصادرة في هذه الحالات وأمثالها أعمالٌ لا مسؤولية فيها على من صدرت عنه، لأنها في الحقيقة حاصلة فيه لا حاصلة منه، ثم كان لها آثارٌ في غيره دون أن يكون لإرادته تسبب فيها.

والعمل الإرادي ينقسم إلى قسمين:

١ ـ قسم إيجابي.

٢ ـ قسم سلبي.

فالقسم الإيجابي: هو ما يصدر به عن الإنسان عمل ظاهر، كإنفاق في الخير، وجهاد في سبيل الله، ومعونة بطاقة جسدية، وشفاعة حسنة، وتعليم الجاهلين ما

ينفعهم في دينهم، وما ينفعهم في دنياهم من غير شر، ونحو ذلك.

والقسم السلبي: هو ما يتعمد فيه الإنسان ترك العمل مع قدرته عليه، ولذلك يثابُ الإنسان على ترك المحرمات، إذا تركها بإرادته ناوياً طاعة الله في ذلك، مع أنه لم يفعل شيئاً ظاهراً، إنما فعل فعلاً سلبيّاً، ويعاقب على ترك الواجبات، لأن هذا الترك عمل سلبي تجاه أمر واجب التنفيذ.

وبناءً على ذلك فمن رأى إنساناً غافلًا يمشي إلى هاوية فلم يُنَبِّهْه، ولم يعمل أيَّ شيء يردُّه عن السقوط، مع قدرته على ذلك، وتركه حتى سقط، فإنه يتعبر في مفاهيم الشرع جانياً، ومسؤولًا عن عمله السلبي الذي عمله، ويعاقب عند الله على ذلك.

ولذلك كان السَّاكِتُ عن الحق في نظر الشرع شيطاناً أخرس، لأنه كتم ما يجب عليه بيانه.

وقال الله تعالى في شأن من يكتم الشهادة في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

فجعل كَتْمَ الشهادة من قبيل العمل الذي تأثم به القلوب، مع أنه سلوك سلبي تُجاه عَمَلٍ كان يجب عليه أن يقوم به.

والمسؤولية عن الأعمال السلبية ملاحظ فيها أن الإرادة الإنسانية ذات وِسَاطة ما في وُجُودها، فمن استطاع أن يَكُفَّ شرّاً فلم يفعل فإن لإرادته وِسَاطةً ما في وقوع الشر.

* * *

ثالثاً: شرح الشرط الثالث:

وهو أن تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله الإيجابي أو السلبي ما ينتج عن العمل فعلًا من خيرٍ أو شر.

فإذا كان لصاحب العمل نيّةٌ أو غاية أخرى غير ذلك؛ فإن المسؤولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته، دون ظاهر السلوك وما نَجَمَ عنه، وأما السلوك الظاهر فيكون عندئذٍ من قبيل العمل الملْغَىٰ، وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض.

ولذلك تُلْغى عند الله أعمال المرائين والمنافقين، مهما كان مظهرها مظهر صلاح وخير، ويحاسبون على نياتهم وغاياتهم التي كانوا يضمرونها في قلوبهم،

ويتجاوز الله عن أعمال المسيئين، إذا كانت نياتهم التي يضمرونها في قلوبهم نيَّاتٍ صالحة، بشرط أن يكونوا معذورين في أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة.

وقد دلنا الله على هذه الحقيقة بعدة نصوص، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

ولما كانت دوافع الأعمال ما تكنّه الصدور من نيات؛ كان الابتلاء موجهاً لما في الصدور، قال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

ولما كان الخطأ خالياً من القصد القلبي، كان من مقتضى العدل الربانيّ رفع الجناح عنه، قال الله تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

هذا عند الله لأن الله يعلم ما في قلوب عباده من نيّاتٍ ومقاصد، ولذلك كانت النيات عنده هي مناط المسؤولية، ومناط ترتيب الجزاء.

والنص الكليُّ الجامع في هذا الباب هو ما جاء في الحديث الصحيح الذي يقول الرسول ﷺ فيه:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُه لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

فالأعمال تُحدَّد قيمتها الحقيقية بقيمة النيات الباعثة عليها، أما مظاهر الأعمال المادية فلا قيمة لها وحدها، لكن إذا استوت النيات فإنه ينظر بعد ذلك إلى قيم الأعمال المتفاوتة، والله تعالى لا يضيع مثقال ذرة من عمل يبتغى به وجهه.

أما بالنسبة إلى الناس وأحكامهم الجزائية، فبما أن النيات خفيَّاتٌ عليهم غير ظاهرات؛ فإنهم مضطرون أن يحكموا على أعمال الناس بحسب ما يظهر منها.

النيَّةُ من غير عَمَل:

ظهر لنا أن النيّة من العمل هي المناط المحجوب الذي لا يَعْلَمُه إلَّا علَّامُ الغيوب ومن ارتضى من ملَك أوْ رسُول.

ولكنْ لو وُجدَت النيّة وَحْدها، دُونَ أنْ يكون لَها أثرٌ في عمَلٍ مادّي فَما هي حدود المسؤولية؟

لدينا عدة نصوص منها:

١ ـ روى البخاري ومسلم عنْ أبي بكْرَة عن النبي ﷺ أنّه قال:

«إذا الْتَقَىٰ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النّارِ».

قال أبو بكرة: قلت: يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال:

«إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِه».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ الله تَعَالىٰ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكْتُبْ عَلَيْه، فَإِنْ عَمِلَها كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

٣ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُها، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتَكَلَّمْ».

وعند مسلم:

«إنّ الله تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ».

٤ ـ وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ عِنْدَهُ حَسَنةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إِلَىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَها كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

٥ ـ وروى البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ بِمِثْلِ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً».

٦ ـ وروى الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال:

«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلَا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمْ المرض» وفي رواية:

«إِلَا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ».

٧ ـ وروى الإمام البخاري عن أنس قال: رَجَعْنَا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال:

«إِنَّ أَقْواماً خَلْفَنَا فِي الْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلَا وَادِياً إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ».

٨ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

فمن جملة هذه النصوص نستطيع أن نستخلص عدة

مفاهيم إسلامية، ونجمع بينها في نسق فكري متكامل، يُظهِر كمال العدل الرباني، وكمال الفضل في موضوع الأعمال والنيات الباعثة عليها.

أ ـ فمن قول الرسول ﷺ: «إِذَا الْتَقَىٰ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» ومن جوابه لأبي بكرة في تعليل عذاب المقتول مثل عذاب القاتل بقوله: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبه»؛ نستدل على أن سبب مؤاخذة المقتول نيته التي كان مُصَمِّماً على تنفيذها، وحريصاً عليه، ولو لم يظهر لنيته أثرٌ مادي، إذ عاجله أجله، فمنعه من التنفيذ، ولو تمكن من ذلك لم يقصر.

فمسؤوليته نيطت بنيته الجازمة التي لم يصرفها بنية أخرى، مع أن هذه النية لم تترجم في الواقع إلى عمل ذي أثر. أما التلاقي بالسيوف على سبيل التهديد ومن غير أن يكون القتل غايته؛ فليس جزاؤه مثل جزاء القتل، إلّا أَنَّ تَسَاوِيَ القاتل والمقتول في العقوبة يشعر بأنَّ تساوِيَهُما في النية هو السبب في ذلك. وفي قول الرسول: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» إفصاح كافٍ عن المناط الذي تعلق بسببه الجزاء، وهو الحرص على القتل، والحرص على القتل هو النية المصحوبة بإرادة وتصميم ومحاولةٍ للتنفيذ، ثم كان المانع من التنفيذ أمراً خارجاً عن إرادة صاحب هذا الحرص.

هذا في جانب المؤاخذة، ونظير ذلك يقال في جانب الثواب: فالنية الصالحة الجازمة المصحوبة بإرادة وتصميم - وهي التي يكون المانع من تنفيذها أمراً خارجاً عن إرادة صاحبها، وكذلك التي يكون المانع من تنفيذها عذراً طارئاً يبرر عدم تنفيذها في نظر الشارع - كافية في ترتب الثواب كله، كما لو تم معها تنفيذ العمل، ويدلُّ على ذلك حديث: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ بِمِثْلِ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً» وحديث: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلا قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ حَبَسَهُمُ الْمَرضُ» وحديث: «إِنَّ أَقْوَاماً خَلْفَنَا فِي الْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلَا وَادِياً إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ».

وهذا ما ذهب إليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم، عند شرحه لحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَها مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»:

(مذهب القاضي أبي بكر بن الطيب أن من عزم على المعصية بقلبه، ووطن نفسه عليها أَثِم في اعتقاده وعزمه، ويحمل ما وقع في هذه الأحاديث وأمثالها على أن ذلك فيمن لم يوطن نفسه على المعصية وإنما مر ذلك بفكره

من غير استقرار، ويسمى هذا هماً، ويفرّق بين الهم والعزم.

قال القاضي عياض، رحمه الله: عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب).

ثم قال النووي تعقيباً على ما ذكره القاضي عياض:

(هذا آخر كلام القاضي، وهو ظاهر حسن لا مزيد عليه، وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ﴿١٩﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾﴾.

والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين،

وإرادة المكروه بهم، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها، والله أعلم).

انتهى كلام النووي رحمه الله تعالى.

ب ـ أما إذا ضعفت النية عن التنفيذ بسبب تناقص مستوى الإرادة الجازمة، أو بعارض داخلي ثبط الهمَّة لكسل أو مشاغل: فإذا كانت نية حسنة كتبت له بمعدل حسنة واحدة من غير مضاعفة، بخلاف التي ترقى إلى مستوى التنفيذ فإنها تضاعف إلى عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة حسب مقتضيات الفضل الإلهي، وذلك لأن الصارف لم يكن أمراً خارجاً عن إرادة الإنسان، ولا عذر يبرره. وإذا كانت نية سيئة لم تكتب عليه مطلقاً، لأنها لم ترق إلى مستوى التنفيذ، حتى تكتب عليه بمعدل سيئة واحدة، حسب مقتضيات العدل الإلهي.

ويدل على ذلك حديث:

«إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكْتُبْ عَلَيْه، فَإِنْ عَمِلَها كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

فالهمُّ الذي لم يرق إلى مستوى التنفيذ الفعلي، نيةٌ اقترنت بحركة نفسية لم تصل إلى حد التغلب على العوارض الداخلية في الإنسان، فلم يكن لها مستوى العمل الكامل، لذلك فإن فضل الله يشملها بالثواب على قدرها إذا كانت حسنة، وبالعفو عنها إذا كانت سيئة، تشجيعاً على ممارسة النيات الصالحات، والتراجع عن النيات السيئات، والهمُّ يسهل صرف السيء منه بملاحظة الخوف من الله، وابتغاء مرضاته، وطلب ثوابه، ومراقبة برهانه، ويسهل انصراف الحَسَنِ منه بالكسل أو بأي مثبط آخر من مُثَبِّطَات النفس.

ج ـ وأما إذا كان صرف النية الجازمة عن التنفيذ قد تم بنية مضادة: فإذا كانت الأولى نية حَسَنةً كتبت له بمعدل حسنة واحدة من غير مضاعفة، لأنه قد شغل كيانه الداخلي بعمل من أعمال الخير مُدّة من الزمن، فالله لا يضيع له هذا العمل، فضلًا منه وكرماً، ولو أوقفه عن التنفيذ بإرادته ونيته الثانية المضادة. وإذا كانت الأولى نيةً سيئة كتبت له بمعدل حسنة كاملة، لأنه نسخ هذه النية السيئة بنية أخرى مُضَادَّة وهذه النية الأخرى المضادة ناسخ حسن، فيعطى ثوابه بقوَّة نية حسنة.

ويدل على ذلك حديث:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذَلِك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَة، وإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَها الله عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إلىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَة. وإن هَمّ بسيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنةً كَامِلَةً، وإنْ هَمَّ بِها فَعَمِلَهَا كَتَبَها اللَّهَ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

وجمعاً بين حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عباس رأينا أن الهمَّ في حديث عبد الله بن عباس قد جاءت نيةٌ أخرى تنسخه، لذلك يكتب الهمّ السيء الذي لم يتم تنفيذه حسنة كاملة، نظراً إلى الصارف الحسن الذي جاء عقبه. بخلاف الهمّ الذي ورد في حديث أبي هريرة فإنَّهُ هَمٌّ لم يرْقَ مِنْ ذاته إلى مستوى التنفيذ ومغالبة العوارض، لذلك فإن السيء منه يقف عند حدّ عدم كتابته، ولا يرقى عدم تنفيذه إلى أن يكون بقوة نية حسنة، أما الحسن منه فإنه يكتب بقوة نية حسنة فضلاً من الله وكرماً.

د ـ وأما أحاديث النفس ووساوسها التي تظل في حدود الخواطر، ولا ترقى إلى مستوى الهمّ فالإرادةِ الجازمة، فهي أمور تجاوز الله عنها، لأنها أحاديث لم تقترن بإرادة ما، فليست من قبيل النيات حتى ترتبط بها مسؤولية، ويفتح لها حساب.

ويدل على ذلك حديث: «إن الله تعالى تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل به أو تتكلم».

الخلاصة:

من خلال البحوث السابقة حول النيات الباعثات على الأعمال، نستطيع أن نقدم الخلاصة التالية:

١ ـ إن الأعمال لا ينظر إليها عند الله إلا من خلال النيات الباعثات عليها، وبحسب هذه النيات يجري الحساب والجزاء على الأعمال عند الله تبارك وتعالى.

٢ ـ إذا كانت النيات مخالفة ظواهر الأعمال، ألغيت الأعمال وجرى الحساب والجزاء على النيات فقط، كأعمال المنافقين والمرائين.

٣ ـ إذا وجدت النيات الجازمات، ولم يقف دون تنفيذ الأعمال إلا عقبات أو أعذار خارجة عن إرادة الإنسان، فإن مناط المسؤولية حينئذ هي النيات وحدها، ويجري الحساب عليها كما لو تم تنفيذ الأعمال التي تقتضيها.

٤ ـ إذا وجدت النيات الجازمات، ولكن لم يتم التنفيذ للأعمال التي تقتضيها بسبب يرجع إلى الإنسان نفسه، فإن سيئاتها لا تكتب عليه، ويتجاوز الله عنها.

فإذا كان ذلك خوفاً من الله وابتغاء مرضاته، فإن الله يكتب له بذلك حسنة، وأما حسناتها فتكتب له في صحيفته على مقدارها دون مضاعفة، بخلاف ما لو فعلها فإنها تضاعف له أضعافاً كثيرة فضلًا من الله وكرماً.

٥ ـ الخواطر والوساوس معفو عنها ولا تدخل في حدود العمل المراد ما لم تصل إلى مستوى النيات المقترنة بالإرادة الجازمة، ولكن قد يثاب الإنسان على خواطر الخير إذا كانت ثمرة توجه إرادته.

٦ ـ الهم بالعمل، إذا كان هماً بفعل حسنة فالله يثيب عليه من غير مضاعفة إذا لم يتم تنفيذه، ومع المضاعفة الكثيرة إذا تم تنفيذه. وإذا كان هماً بفعل سيئة فله حكم الوساوس والخواطر المعفو عنها، فالله يتجاوز عنه ولا يسجله على صاحبه فضلًا منه وكرماً.

* * *

رابعاً: شرح الشرط الرابع:

وهو العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي.

فمن الظاهر في مفاهيم الشريعة أنه لا مسؤولية مع الجهالة التي يعذر بها صاحبها.

وللمعرفة بفضائل الأخلاق ورذائلها طريقان:

الطريق الأول: ما أودع الخالق في فطر العقول من موازين ذاتية تدرك بها جملة من الفضائل والرذائل، وما أودع في فطر القلوب والنفوس من مشاعر داخلية تحس فيها بطائفة من فضائل الأخلاق ورذائلها.

أما ما يلتقي الناس على إدراكه من ذلك فيعتبر معلوماً بالفطرة، لذلك فإن العدالة الربانية تتولى الجزاء عليه، إن عاجلًا وإن آجلًا، وتعتبر المسؤولية بالنسبة إليه مسؤولية تامة.

فمن أمثلة ذلك الظلم الذي يلتقي جميع الناس على إدراكه كما تدركه أمم من البهائم غير العاقلة؛ ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يفرض على جميع الظالمين يوم القيامة أن يؤدوا الحقوق إلى أهلها، سواء أبلغهم تشريع رباني أمْ لم يبلغهم ذلك، لأن أحداً لا يجهل قبح الظلم مهما ضعفت مداركه، إلا أن يكون ذا جنون مطبق.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ - أَيْ: الَّتِي لَا قُرُونَ لَهَا - مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ».

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

الطريق الثاني: الإعلام المباشر أو بوساطة المبلغين.

١ ـ وقد علم الله أن معظم عباده سيظلون غافلين عن قضايا الإيمان، وعن كثير من قواعد التشريع والأخلاق، فألزم نفسه بتبليغ عباده شرائعه لهم، عن طريق رسله الذين يصطفيهم للقيام بمهمات التبليغ، وما يتعلق به من وظائف. ولم يتركهم لما أودع في فطرهم من أنوار يستطيعون بها أن يعرفوا الخير والشر والحق والباطل، لأن الاستطاعة الفطرية قد تظل راكدة نائمة، فهي بحاجة إلى من يُحرِّكُها ويُوقِظُها ويبصرها، ويهديها إلى سبيل كمالها.

ولو لم ينزل الله الشرائع لكان للناس أن يحتجوا بجهلهم أو بغفلتهم وعدم انتباههم، ولكان احتجاجهم هذا مقبولًا في محكمة العدل الربانية.

وفي بيان ما ألزم الله به نفسه من إعلام عباده شرائعه لهم؛ يقول تبارك وتعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

ويقول سبحانه في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

ويقول في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

في أُمّها: أي في نحو عاصمتها التي هي المركز الرئيسي لها، وسائر القرى تابعة لها.

ويقول في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

وفي بيان قطع أعذار الناس حتى لا يعتذروا بالجهل، أو بالغفلة، أو بمواريث البيئة، يقول الله تبارك وتعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾.

وفي معرض بيان جذور الإيمان الأولى في فطر الناس، وما جاء من تأكيدها ببلاغات الدين المنزّلة، يقول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾.

٢ ـ ولما كان النسيان الذي يعذر به صاحبه حالة من حالات الجهالة، لأن الناسي قد ارتفع علمه بالتكليف وقت نسيانه، كان سبباً من أسباب ارتفاع المسؤولية عنه.

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي، وهو حديث صحيح لطرقه.

أما النسيان الذي لا يعذر به صاحبه فلا تُرْفَعُ المؤاخذة بسببه، كالنسيان الناشيء عن الإهمال والتهاون والتقصير، وكنسيان الحقائق الكبرى التي تقترن بالمذكرات الدائمة[1].

٣ ـ لا يقال باستطاعة الإنسان إذن أن يتهرب من المعرفة، ويبقى في الجهل، ليعفي نفسه من المسؤولية؛ لأن الإنسان مسؤولٌ أولاً عن تعلم ما يجب عليه التزامه من سلوك حسن، ومسؤول عن تعلم ما يجب عليه اجتنابه من سلوك قبيح، ومسؤول ثانياً عن تطبيق العلم بالعمل.

وقد أنزل الله الشرائع، وأرسل الرسل، فعرفوا الناس، ولفتوا أنظارهم إلى ما يجب عليهم أن يعرفوه ويعملوا به، فلا عذر بعد ذلك للهارب من المعرفة، زاعماً بذلك أنه يعتصم بالجهل الذي يجعله بريء الذمة، إنه سيسأل مرتين: لِمَ لم يتعلم؟ ولِمَ لم يعمل؟ وقد كان باستطاعته أن يتخلص من الجهل، ويعرف ما يجب عليه أن يعمله، وما يجب عليه أن يجتنبه، وهذا مما هو مسؤول عنه، ومُلْزم به، وقد لُفِتَ نظره إليه.

---

(١) انظر بحث النسيان في كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها» للمؤلف.

لكنه إذا سعى وراء المعرفة فلم يصل إليها، أو لم يتسع وقته للوصول إليها، فإن جهله حينئذ غير ناشىء عن تقصير منه، فيعذر به، وترتفع عنه بسببه المسؤولية.

لذلك فلا يعذر عامة المسلمين، إذا تركوا واجباتهم الدينية أو وقعوا في المحرمات الدينية، مُتَعلِّلين بجهلهم بأحكام الشريعة لأنه كان يجب عليهم أن يتعلموا، وقد قصروا بهذا الواجب، فعليهم أن يتحملوا تبعات تقصيرهم.

أما المعذور فعلًا بالجهل، كالذي لم يلفت نظره إلى المعرفة أحد، أو لم يتهيأ له ظروف التعلُّمِ مع سعيه إليه، فإن الله يرفع عنه حينئذٍ المؤاخذة، لعدم مسؤوليته بفقد شرط العلم.

* * *

خامساً: شرح الشرط الخامس:

وهو كون العمل مستطاع الفعل والترك.

فلا مسؤولية عن العمل مع العجز، سواء أكان عجزاً عن الفعل، أم كان عجزاً عن الترك، وبداهة العقول تقضي بأن الاستطاعة شرط لترتب المسؤولية.

أما نصوص الشريعة الدالة على ذلك فمتعدِّدة، منها

قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿١٥٢﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴿٧﴾﴾.

فعلى مقدار الهبة الربانية للإنسان تكون درجة التكليف والمسؤولية، وما لا قُدْرَةَ للإنسان عليه ـ حتى ولو كان من حركات نفسه ـ هو خارج عن دائرة مسؤوليته، كالخواطر التي لا يستدعيها بإرادته، وكالهمّ النفسي بشهوة من الشهوات التي لا يتعمد إثارتها، ولا يتخذ بإرادته أسبابها، وكالحب الذي لا يملك الإنسان جلْبَهُ ولا دَفْعَه ولا رَفْعَه، إلى غير ذلك مما هو خارج عن دائرة استطاعة الإنسان، وليس خاضعاً لسلطان إرادته.

لذلك فإننا نستطيع أن نقول في باب الأخلاق: إن المفطور على سرعة الانفعال حتى لا يستطيع أن يملك

نفسه ملكاً تاماً، تخف مسؤوليته في مجال خلق الحلم إلى المقدار الذي يملكه من نفسه بإرادته، بخلاف المفطور على بطء الانفعال، فإن مسؤوليته في مجال خلق الحلم تكون أكبر وأعظم، فإذا هو أسرع بالغضب مع قدرته على ضبط نفسه، فإنه يلام بنسبة أكبر من النسبة التي يلام بها المفطور على سرعة الانفعال، نظراً إلى أنه أقدر على ضبط نفسه منه.

ونظير ذلك المفطور على نسبة عالية من الشح أو الجبن: إن مسؤوليَّتَه في مجال الجود أو الإقدام أخف من مسؤولية المفطور على نسبة عالية من الكرم أو الشجاعةِ، وكل منهما تقف مسؤوليته عند حدود استطاعته مغالبةَ نَفْسِه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه فإن مسؤوليته عندئذ ترتفع، إذْ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾.

ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لاحظَ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل، وكالخروج إلى الجهاد في سبيل الله عند النفير العام في باب الشجاعة، باستثناء أحوال العذر كالعمى والعرج والمرض بالنسبة إلى الجهاد، وكذلك كُلُّ أصحاب الأعذار الذين

أعفاهم الشارع أو خفف عنهم من بعض التكاليف.

* * *

سادساً: شرح الشرط السادس:

وهو أن يكون صاحب العمل متمتعاً بحُرِّيَّتِه عند أداء العمل، غير مكره عليه.

والإكراه: هو الإلزام على سبيل القهر والغلبة بالقيام بعمل من الأعمال المادية الظاهرة، تحت تأثير قوة ملجئة، أو تهديد بانتقام أشد ضرراً وشراً من الضرر أو الشر اللَّذَيْن يفضي إليهما العمل المكره عليه، والملزم بالقيام بالعمل كاره له، مقهور عليه، مغلوب على أمره فيه.

ومن المعلوم أن الإرادة لا تكون تامة الحرية في حالة الإكراه، بل هي مغلوبة مستكرهة، لذلك نلاحظ أن الأحكام الإسلامية قررت رفع مسؤولية الإنسان عن الأعمال المادية التي يستكره على فعلها، وذلك ضمن شروط وتفصيلات مبينة في كتب الفقه.

روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي، وهو حديث صحيح لطرقه.

أي: إن الله تجاوز عن مؤاخذة الإنسان على عمله في كل منها، ضمن شروط الإعفاء من المسؤولية المبينة تفصيلاتها في أحكام الشريعة الإسلامية.

ومن أول الشروط في رفع المسؤولية عن المكره ألا تتفق إرادته القلبية مع إرادة من استكرهه على العمل، أو ألا تكون إرادته القلبية موافقة على القيام بالعمل لذاته بعيداً عن ملاحظة حالة الإكراه الضاغطة عليه.

ومن أمثلة ذلك إكراه أولياء الإماء إماءهم على البغاء بسلطان الولاية، قال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: غفور لهن رحيم بهن، لأنهن كن مكرهات على ما فعلن كارهات له.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن يُكرَه المؤمن على إعلان الكفر بتهديده وتوعده بالقتل الذي لا يستطيع دفعه، أو بالعذاب الشديد الذي لا يستطيع تحمله. وهنا يوازن المؤمن بين إعلانه الكفر أمام الكافرين وبين قتله أو

تعذيبه، فقد يرى أن هذا الإعلان أخف شراً وضراً من القتل أو التعذيب، فينجي نفسه من ذلك بما يرضي عدوه من قول أو فعل، وقلبه مطمئن بالإيمان، أو لا تقوى نفسه على تحمل ما هدد به، فيفعل ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان، قال الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

وذلك لأن الإكراه لا يستطيع أن يصل إلى تحويل القلوب عن إيمانها مهما كان شأنه، إلا أن تُتَّخذ فيه وسائل تُسْلَبُ معها إرادة الإنسان سلباً تاماً، وعندئذ ترتفع المسؤولية بسلب الإرادة لا بالإكراه. ويقف مدى تأثير الإكراه عند الإلزام بأعمال مادية ظاهرة فقط، كإعلان الكفر باللسان، فهذا الذي يتجاوز الله عنه في حالة الإكراه. ولا يشمل هذا الحكم فيما نرى من إذا أعلن الكفر ولو على سبيل الإكراه كفر من ورائه ناس مقتدون به كفراً حقيقياً، وذلك لأن الشر الذي ينجم عن إعلانه هذا أشد بكثير من الضر الذي يناله بالموت شهيداً في سبيل الله، أو بالتعذيب والإيلام.

ومن أجل ذلك لم يأذن الله لحملة رسالاته للناس بمثل هذا الإعلان مهما نالهم من ضرٍ وأذى، فهذا الإذن خاص بالأفراد العاديين الذين لا يتأثر غيرهم بما يظهر منهم.

ورفع المسؤولية عمَّن يُعْلِنُ الكفر تحت تأثير الإكراه وقلبه مطمئن الإيمان، يعني رفع المسؤولية الإلزامية، لا رفع المسؤولية مطلقاً، فالمسؤولية الاستحسانية تظل قائمة؛ فالأفضل للمؤمن أن يصبر، ولو أفضى به الأمر إلى التضحية بنفسه في سبيل الثبات على دينه. وقد استطاع كثير من صادقي الإيمان واليقين بالله أن يصبروا، ويتحَدَّوْا إكْراهَ المكْرِهين، ويتحملوا ألوان العذاب التي لم ترفع عنهم حتى لاقوا حَتْفَهم، ولو أنَّهم تنازلوا فتفوهوا ببعض كلمات الكفر لنجوا، ولكنهم آثروا الصَّبْرَ والشَّهادة على التظاهر بالكفر؛ وهذا هو سبيل المحسنين.

ولقد صبر فريق من المستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ صبراً عظيماً على ألوان البلاء التي كان المشركون يُنْزِلُونها بهم، دون أن يتفوه هؤلاء المستضعفون بما يريد المشركون أن يقولوه من ألفاظ الكفر. وقد أثنى الرسول صلوات الله عليه عليهم وعظَّم صَبْرَهُم، ولم ينههم عما فعلوا. وممن صبروا بلال

وخباب وياسر وسمية رضي الله عنهم، وكان ياسر وسمية أول قتيلين استشهدوا في الإسلام، بسبب صبرهما وعدم تفوههما بألفاظ الكفر.

وعن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال:

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِه» رواه البخاري.

وكل إكراهٍ يمكن التخلص منه بوسيلة لا ضرر فيها، أو بوسيلة ضررها أخف من ضرر ما حصل عليه الإكراه، ويستطيع المستكْرَهُ، مباشرَتَها، فإنه إكراه لا ترتفع معه المسؤولية، ولا يكون مناطاً للاعتذار به في استحقاق العفو.

وليس من الإكراه حمل الإنسان على ارتكاب إثم كبير وجرم خطير عن طريق تهديده بإنزال ضرر فيه دون الضرر الذي يتحقق بذلك الجرم. ومن أمثلة ذلك حَمْلُ الجنْدِيّ عَلَىٰ قَتْلِ إنْسَانٍ بريءٍ غَيْر مُدانٍ في القضاء

الشرعيّ بالْقَتْل، فإن لم يفعل ما أمر به سُرِّحَ مِنْ عَمَلِه، أو سُجِن، أو خُسِمَ من راتبه مبلغ من المال؛ فإنه في مِثْلِ هذا غَيْرُ مُكْرَهٍ أصلًا، لأنه آثر أن يرتكب جريمة القتل خشية أن يُسَرَّح من عمله أو يُسْجَن أو يُخْسَم من راتبه مبلغ من المال، ولن يجد لنفسه عذراً عند الله بأنه كان مُكْرَهاً على العمل، ولكنّه سيلاقي جزاءه، فهو من شُرَكاء الظالمين وأعوانهم.

ومن روائع أمثلة إيثار العذاب على الوقوع في معصية الله ما كان من يوسف عليه السلام، فإنه لما سمع تهديد امرأة العزيز له إذ قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴿٣٣﴾﴾.

ونأخذ من كلام فقهاء الشريعة أن العملَ الذي قد يحصل فيه الإكراه تعتوره الأحكام الخمسة: فقد يكون الْعَمَلُ مباحاً، وقد يكون واجباً، وقد يكون حراماً، وقد يكون مندوباً إليه وقد يكون مكروهاً.

فمن أكره بالقتل على شرب الخمر مثلًا وجب عليه أن يشربها حماية لنفسه من القتل، لأن ضرر شربها أخف من ضرر التعرض للقتل.

ومن أكره بالقتل على قتل إنسان آخر حرم عليه أن

يقتله، لأن عملية القتل ستتمُّ على كل حال، ولكنه إذا قتل بسبب الإكراه فقد أضاف إلى جريمة القتل إرادته قتل غيره لينجي نفسه، أمَّا لو لم يفعل فإن جريمة القتل انفردت بها إرادةَ المُكْرِه.

ومن أكره بالقتل على إعلان الكفر جاز له أن يعلن الكفر لينجي نفسه من القتل، ولكن الأفضل له أن يصبر، ما لم ير أن نجاته قد تكون أنفع للإسلام والمسلمين فإن إعلانه الكفر في هذه الحالة هو الأفضل.

(٢)
المسؤولية ذات طابع شخصي

من الواضح في المفاهيم الإسلامية، وقواعد العدل الربانية، أن المسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصية، لا تَحْمِلُ مواريث الأصول الأقربين والأجداد والآباء الأولين، ولا تتحمَّل نصيباً من سلوك الأهل والأقارب والعشيرة المعاصرين، ولا تورِّث تبعاتها للذراري القادمين، والنصوص الإسلامية الدالة على ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ... ﴿٢٨٦﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن

وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

فهذه النصوص القرآنية ونظائرها تقرر بوضوح تام أن المسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصية، فلا يتحمل أحد وزراً من عمل غيره، دون أن يكون له فيه كسب ما، ولا ينال ثواباً من عمل غيره، دون أن يكون له فيه كسب ما.

ولذلك قال الرسول ﷺ للأقربين من عشيرته: «اعْمَلُوا لِأَنْفُسِكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً» ونادى بذلك جملة من صفوة أقاربه حتى بلغ إلى ابنته فاطمة فقال لها: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ اعْمَلِي لِنَفْسِكِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ من الله شيئاً».

وقال صلوات الله عليه:

«وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1].

فالجزاء عند الله بالثواب أو بالعقاب لا تحويل فيه، ولا امتداد، ولا اشتراك، مهما تدانت القرابة. وتأتي مسؤولية الآباء والأجداد عن صور القدوة والتربية التي قدّموها لأبنائهم وأحفادهم، وتأتي مسؤولية الأبناء والأحفاد عن التقليد الأعمى أو البصير لآبائهم وأجدادهم في عاداتهم ومفاهيمهم وطرائق سلوكهم.

والله تعالى يقول في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن أبي هريرة، أوله: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا». انظر الحديث (٢٦٩٩) في صحيح مسلم.

فلا مجال في العدل الرباني لتصوُّرِ خطيئة موروثة، ولا لأخذ البريء بخطيئة المذنب، بل كل فرد مسْؤُولٌ وحْدَهُ عَنْ عَمَلِه. وقد يبدو أن قاعدة العدل هذه تتعرض لبعض الاستثناءات، إلا أن التأمل الدقيق يكشف مواطن الشُّبَهِ، ويدفَعُها بالحلول المنطقية المقبولة، فمن ذلك ما يلي:

أ ـ أما مخاطبة أحفاد اليهود بذنوب آبائهم وأجدادهم فلأن هؤلاء الأحفاد لم يغيروا في حياتهم من خلائق آبائهم وأجدادهم شيئاً، وفي مفاهيمهم الحاضرة تبرير أعمال الأولين، ولو أنهم وجدوا في مثل ظروفهم لفعلوا مثل فعلهم، فمسؤوليتهم إذن عما هم عليه في واقع حالهم.

ب ـ وأما مسؤولية الأمة بعامة عن أعمالها الجماعية، فإنها ترجع في حقيقتها إلى المسؤولية الشخصية، لأن كل واحد من الجماعة يتحمل قسطه من المسؤولية على مقداره من الجماعة، وينال من الجزاء على مقدار كسبه الشخصي، سواء أكان كسباً إيجابياً أم كسباً سلبياً.

ج ـ وأما النصوص التي تثبت أن بعض المسيئين يتحملون أوزاراً من أوزار غيرهم من الناس، فإنما يتحملونها لأنهم كانوا أصحاب كسب ما في وجودها،

باعتبار أنهم قادة مضلون، أو دعاة إلى الشر، أو سانّون سنة سيئة في الناس فاتَّبعهم من ورائهم مقلّدون لهم في الشر، ونحو ذلك.

وفي مقابل هذه النصوص وردت نصوص أخرى تثبت أن بعض المحسنين ينالون ثواب أعمالهم، وثواباً آخر مماثلًا لثواب أعمال أناس آخرين، والسبب في ذلك أنهم كانوا أصحاب كسب ما في وجودها، باعتبار أنهم قادة مصلحون، أو دعاة إلى الخير، أو سانّون سنّة حسنة في الناس فاتبعهم من ورائهم مقلدون لهم في الخير، ونحو ذلك.

والسر في تحقيق هذه النتائج أن الإنسان مسؤول عن عمله الإرادي، وعن كل ما ينجم أو ينتج عن عمله الإرادي من آثار، فليس الأمر مقتصراً على ذات العمل، أو على مجرد نتائجه المباشرة، ولكنه يشمل ذات العمل ونتائجه المباشرة وآثاره القريبة والبعيدة، حتى إن الإنسان ليموت وتظل صحيفة أعماله مفتوحة، يسجل فيها كل أثر يتجدد من آثار أعماله التي كان قد عملها في الدنيا وهو حي مكلف مسؤول.

وهي حقيقة مخيفة جدّاً، ولكنها مُطْمِعَةٌ جدّاً بفعل الخير، وهي منسجمة مع سنّة الله في كونه، فإن الإنسان

قد يفعل في الحياة المادية عملًا صالحاً يسيراً، فينتج عنه خير كثير. إنه قد يزرع بزرة طيبة واحدة في أرض خصبة، فتمر السنون فنشاهد أن هذه الأرض قد امتلأت بالنبات الطيب، وغدا الجم الغفير من الناس ينتفعون من هذه البرزة الواحدة التي بذرها، مع أنها لم تأخذ منه إلا جهداً يسيراً. وإن الإنسان قد يفعل في الحياة المادية عملًا خبيثاً قليلًا، فينتج عنه شرٌّ مستطير، إنه قد يقذف بمقدار بزرة الزرع جراثيم وبائية في ماء مدينة من المدن، فتتكاثر هذه الجراثيم الوبائية، حتى يَعُمَّ الوباء المدينة، ويتسبب بقتل وتعذيب الجم الغفير من أهلها. فمن العدل أن يجني الأول ثمرة العمل الصالح الذي عمله على قدر آثاره، مهما نتج عنه من آثار حسنة، وأن يتحمل الثاني جريرة العمل الخبيث الذي عمله على قدر آثاره، مهما نجم عنه من آثار سيئة، وذلك ما تقضي به قواعد الجزاء الربانية.

وقد تكاثرت النصوص الشرعية التي تؤكد هذه الحقيقة، فمنها النصوص التالية:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن المضلّين:

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ

ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

فالمضلون يتحملون آثامهم وآثاماً مماثلة لآثام الذين تأثروا بهم فاستجابوا لإضلالهم؛ دون أن ينقص هذا من مسؤولية أتباعهم شيئاً.

٢ ـ ويحكي الله لنا مقالة بعض أهل النار يوم القيامة فيقول في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

٣ ـ وجاء في كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين».

فقد بين الرسول له أنه إذا أسلم آتاه الله أجره مرتين، وذلك لأن لإسلامه أثراً في توجيه أتباعه ومقلِّدِيه إلى الحق، وإن تَوَلَّىٰ تحمَّل إثْمَ كفره وإثم كفر الأريسيين(١)، وهم من لهم صفة التبعية لأمرائهم ورؤسائهم.

---

(١) حقق الشيخ أبو الحسن الندوي أنهم أتباع «أريويس» من النصارى، وأريويس كان صاحب مذهب في النصرانية ينكر فيه ألوهية عيسى عليه السلام ويثبت أنه عبد الله ورسوله، انظر كتابه «السيرة النبوية».

٤ ـ وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً».

ففي هذا الحديث تصريح جلي بأن الإنسان ينال ثواب عمله الصالح، وثواب كل الآثار التي تنتج عن عمله الصالح، فمن دعا إلى هدى كان له من الأجْرِ مثل أجور من تبعه في دعوته، وهذا يشمل كل من يتبعه إلى يوم القيامة، ولكلّ من التابعين أجورهم على أعمالهم، لا ينقص منها شيء، أي: لا يقتطع منها لصالح من دعاهم شيء، ولكنَّ اللَّهَ يُعْطِي الجميع من فضله. وفي هذا الحديث تصريحٌ جليٌّ بأن الإنسان يتحمل جزاء عمله، وجزاء كل الآثار التي تنجم عن عمله، فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإِثم مِثْلُ آثام من تَبِعَهُ في ضلالته، وهذا يشمل أيضاً كُلَّ مَنْ يَتْبَعهُ إلى يوم القيامة، وعلى كلٍّ واحد من التابعين جزاء عمله، لا يَنْقُصُ منه شيء بسبب تحمُّل من كان السبب في إضلالهم مثل أوزارهم.

٥ ـ ويقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح الذي

رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي:

«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَام سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

(باب الحث على الصدقة)

٦ ـ وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود، أن النبي ﷺ قال:

«لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

أي: إلا كان عليه نصيب من دَمِها، لأن قَتْلَهُ لأخيه صار في الناس سُنَّةً سيئة مُتَّبعة من بَعْدِه.

ومن هذا نعلم أن آثار عَمَلِ الْإِنْسَانِ لا تَخْرُجُ عَنْ حُدُودِ عمله، إلا أن من الآثار ما هو مباشر، ومنها ما هو غير مباشر، وربما يأتي الأثر بعد زمن بعيد جدّاً، فهو كالمتفجرة الموقوتة.

وفق هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم قول الرسول ﷺ الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

فإذا مات ابن آدم انقطع عمله لانتهاء فترة ابتلائه، ولكن تبقى آثار عمله تضاف إلى صحيفته. والإنسان مسؤول عن آثار كسبه الإرادي ومحاسب عليها، ولو كان ظهور هذه الآثار بعد أمدٍ بعيد، وتَظَلُّ التَّبِعة تُلاحقه، فهو يجني من ثمرات أعمال الذين كان له تسبب ما في ممارستهم لأعمالهم، حسنة كانت أمْ سيئة.

د ـ وأما النصوص التي تثبت أن المقصرين في بعض الأعمال الصالحات قد يلحقون في مراتب الجنة بالسابقين في أعمالهم، فذلك يرجع إلى إكرام الله للسابقين الذين يحبون أن يُلْحَقَ بهم في الأجر من كانوا يحبون في الدنيا من أهليم وذرياتهم وغيرهم، أو يرجع إلى أعمال قلبية خفية كفيلة بأن تلحقهم بالسابقين بمقتضى فضل الله وجوده العظيم.

فمن الأول قول الله تعالى في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

فشرط هذا الإلحاق أن يكون المُلْحَقون مؤمنين، وسببه إكرام السابقين، ولكن هذا لا يؤثر على السابقين بنقص من درجة اسْتِحْقاقِهم لصالح الذين ألحقوا بهم، وإنما هو فضلٌ من الله، ولذلك قال تعالى في الآية: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما نَقَصْنَاهُمْ من عملهم من شيء.

ومنه قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

ومن الثاني ما جاء في أقوال الرسول ﷺ من إلحاق المحبين في الله المقصرين بالمحبوبين في الله السابقين، ومنه ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ (أي: في صالح العمل) فقال:

«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

فالحب في الله فضيلة تلحِقُ بجود الله المسبوق بالسابق.

هـ ـ وأما الشفاعة فأعظم ما فيها الدعاء بالعفو والغفران، ضمن قواعد المغفرة التي وضعها الله لعباده المذنبين، وهي لا تكون إلا بالإذن، ولا يتحقق المرجو فيها إلا بإرادة الله، ووفق حكمته فيما يعطي عباده من جوده وفضله.

(٣)
قطاعات الكسب الإرادي باعتبار موقع السلوك

لا ينحصر الكسب الإرادي ـ الذي هو مناط الابتلاء والتكليف ـ بالكسب الجسدي؛ بل هو شامل للكسب الجسدي، والكسب النفسي، والكسب القلبي، والكسب الفكري، وكل أنواع الكسب هذه خاضعة للتكليف والمسؤولية، بشرط أن تكون خاضعة لسلطان الإرادة الحرة في الإنسان.

فكل ما يملكه الإنسان بإرادته من ذاته هو محل للابتلاء والتكليف والمسؤولية.

أمثلة:

فمن أمثلة الكسب الجسدي الإيجابي أو السلبي ما يلي:

بذل المعروف، وهو كسب جسدي إيجابي. الكف

عن أكل أموال الناس بالباطل، وهو كسب جسدي سلبي. وهذان الكسبان من أمثلة فعل الخير.

العدوان على حياة الآخرين أو أجسامهم بالقتل أو الأذى، وهو كسب إيجابي جسدي. الامتناع عن تأدية الحقوق المادية لأربابها، وهو كسب سلبي جسدي. وهذان الكسبان من أمثلة فعل الشر.

وعلى الرغم من وجود أمور نفسية كثيرة تخرج عن مدى استطاعتنا وما تملكه إراداتنا ـ فلا نعتبر مسؤولين عنها لأنها واردات غير خاضعة للإرادات ـ فإنها توجد حركات نفسية أخرى يملكها الإنسان بإرادته، أو يملك أسبابها ومقدماتها، ويشعر الإنسان معها بأنه يسيء إذا مارس منها ما هو إثم، ويحسن إذا مارس منها ما هو بِرٌّ، لأنه يملك صرف ما هو منها إثم عن نفسه، باتخاذ الوسائل لذلك، ويملك اجتلاب ما هو منها بِرٌّ إلى نفسه، باتخاذ الوسائل لذلك.

فمن تشهّى في نفسه ما لا حقّ له به ـ وقد ورد هذا التشهي بسبب لم يجلبه بإرادته ـ فإنه قد يستطيع أن يعمل على صرف هذا التشهي عن نفسه، بتذكر ما يجب عليه، ومراقبة الله، والتبصر بالحق، وبذلك يكسب كسباً نفسياً مبروراً يثاب عليه عند الله. ومهما صرف عن نفسه هذا

التشهي الذي لا حق له فيه كان له كسباً نفسياً مبروراً، أما إذا لم يعمل على صرفه وكان باستطاعته ذلك، بل ترك نفسه تنطلق في تشهي ما لا حق له فيه، ثم أخذ هذا التشهي ينمو في نفسه بسبب من إرادته، حتى صار بعض القبائح النفسية المقيمة لديه، فإنه من دون شك يعتبر كاسباً في نفسه كسباً إرادياً آثماً يؤاخذ عليه عند ربه. وقد يكون الإسهام في الكسب النفسي بصفة إيجابية، وقد يكون بصفة سلبية.

ومثل التشهيات الممنوعة أهواء النفوس الجانحة عن سبيل الخير.

وقد توجد تشهيات وأهواء نفسية خيرة، تخضع هي أو أسبابها لسلطان الإرادة، فيكون دَعْمُها وتنميتها بإرادة الإنسان، واتخاذ الوسائل لذلك من الكسب المبرور الذي يثاب عليه.

(٤)
ما يُسأل الإنسان عنه يوم الحساب

دلّت النصوص على أن الإنسان يُسْألُ عن كلّ الأشياء التي جعل الله له سلطاناً عليها، أو قُدْرَة على التصرّف فيها ولو من وجه من الوجوه، أو قُدْرَة تأثير بقول أو عمل أو تفكير.

ومسؤولية الإِنسان في ذلك تنحصر في حدود استطاعته وقدرته على التصرف أو التأثير: فمن كان باستطاعته العمل والواجب الديني يُلزِمه بالعمل فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته القول والواجب يُلزِمه بالقول فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته إبداء الرأي والفكر والواجب يُلزِمه بذلك فهو مسؤول عنه. وهذه المسؤولية تلاحقه منذ يبدأ تكليفه حتى يوافيَهُ أَجَلُه، ما لم يسقط التكليف لانعدام شرط من شروطه، وتزداد مسؤوليَّتُه كلما ازدادت منح الله له، وتَنْخَفِضُ مسؤوليته بمقدار انخفاض منح الله له.

فمن النصوص المبيّنة لمسؤولية الإِنسان، قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي لا تَتَّبِعْ أيها الإِنسان في أي أمر من أمورك في حياتك ما ليس لك به علم، إذ لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصر في الأمور، فإذا اتَّبَعْتَ ما ليس لك به علم فقد عطلت أدوات المعرفة التي لديك. لذلك فلا بُدَّ أن تكون هذه الأدوات مسؤولة عن تأدية وظائفها

الفطرية، أي: لا بُدَّ أن تكون أنت المسؤول عنها أيها الإِنسان، لأن هذه الأدوات جزء من كيانك.

ومن النصوص ما رواه الترمذي ـ وقال فيه: حديث حسن صحيح ـ عن نَضْلة بن عبيد الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاه؟ وَعَنْ عَمَلِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِه مِنْ أَيْنَ اكتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَه؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟».

فهذه الأربعة: العمر، والجسم، والعلم، والمال، طاقات وضعها الله تحت يد الإنسان يستطيع بها أن يفعل خيراً وأن يترك شراً، وأن يؤدي واجباً، وأن يكُفَّ عن محرم، فهو يسأل عنها بمقدار ما وهبه الله منها، وعلى مقدار استطاعته العمل أو الكف عن العمل.

ومجال نشاط هذه الأربعة ما يحيط بالإِنسان في هذه الدنيا، مما يستطيع التصرف فيه، أو تسخيره أو توجيهه، من أشياء وأحياء، مما هو داخل في ذاته أو خارج عن ذاته.

ومن النصوص ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَىٰ النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَىٰ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَىٰ مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

فأبان الرسول ﷺ في هذا الحديث مسؤولية الرعاية المنوطة بكل راع، عظُمَتْ دائرة رعايته أمْ صَغُرت، ومسؤوليته تكون على مقدار دائرة رعايته ومقدار سلطته فيها.

(٥)
الحرية وحدودها

لا توجد حرية مطلقة لمخلوق، والحديث عنها خُرَافة من الخرافات، وطلبها وهم من الأوهام المستحيلة الوقوع، ولا ينخدع بطلبها إلا ناقصو العقل من المراهقين الذين يسبحون في أحلام اليقظة، ويعيشون في دائرة أوهام أنفسهم فقط، أما الواقع في الحياة فمخالف مخالفة تامة لأحلامهم وأوهامهم.

إن الحرية المطلقة ليست إلا لمن بيده الخلق

والأمر، وهو على كل شيء قدير، ومع ذلك فهو بحكمته لا يفعل إلا ما فيه الخير، ولا يختار بإرادته ذات الحرية المطلقة إلا ما فيه الخير. وقد كتب على نفسه الرحمة، وحَرَّم على نفسه الظلم، وأَلْزَم نَفْسَه بأُمُورٍ كثيرة تُجاه عِبَادِه، مع أنه لا حق لمخلوق على خالقه، ولكنَّه تبارك وتعالى رتَّبَ على نفسه حقوقاً لعباده، فهو سبحانه على صراط مستقيم.

فمن النصوص التي تُثْبِتُ طائفةً من الالتزامات الربانية ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٣ ـ وجاء في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا. . . إلخ».

فمن أين للإنسان أن يكون له حرية مطلقة؟ إن حرية الإنسان لتحقيق ما يريد أو يهوى أو يشتهي مقيدة بواقع الضعف والعجز الذي هو مُكَبَّلٌ به. قد تتوجه مثلًا إرادة الإنسان الحرة إلى أن يكون أول السابقين، ولكن يُقَصِّرُ به العجز عن تحقيق السبق لنفسه، فيظهر له بالتجربة الواقعيّة أنه لم يكن حراً في تحقيق ما أراد، وقد يعجز عن إبداء أية محاولة فيها شيء من الحرية. يتمنى الساقط من مكان شاهق أن يكون لديه القدرة على الطيران لِيَسْلَمَ، ويريد ذلك، ولكنه لا يَجِدُ أَنَّه حُرٌّ في أن يفعلَ مَا يُريدُ، إنه كالمكبل بالأغلال مشدود الوثاق فاقد الحرية. يتمنى الإنسان أن يكون واسع الثراء عظيم الجاه قوي السلطان، ويريد ذلك لنفسه، ولكنَّه لَا يَجِدُ أَنَّه حُرٌّ في أن يصل إلى ما يريد، فحُرِّيَّتُه مُقَيَّدَةٌ غيرُ مطلقة، وكذلك كثير من الأماني.

هل نملك الحرية المطلقة في أن نطير طيران النسر؟ أو نغوص غوص الحوت؟ أو نعرج عروج الملائكة؟

هل مَلَكْنَا الحرية المطلقة حينما ولدنا؟ وهل نملك الحرية في أن ندفع عن أنفسنا الموت متى انتهت آجالنا؟

إن قدرات الإِنسان ـ مهما كانت فائقة ـ لا تَتَّسِع لتحقيق كل مطالبه الخيالية، ولو خلا له مجال الحياة، وتهيأت له كل الفرص المواتية لانطلاق حريته الشخصية. فحقُّ الحرية الشخصية مقيَّدٌ تَقْيِيداً طبيعياً، شاء الإنسان أم أبى.

إن حق حرية الإِرادة معارض بحقوق كثيرة، منها حقوق شخصية، تدخل في ذلك حقوق الإِنسان صاحب الإِرادة، ومنها حقوق اجتماعية، ومنها حقوق ربَّانية.

وهذه الحقوق لا تُنَال جميعها، إلا على طريقة التوفيق بينها، وذلك بأن يعطى لكل منها نسبته الصالحة النافعة ضمن التوزيع العام العادل، جلباً لأقصى ما يمكن جلبه من الخير، ودفعاً لأقصى ما يمكن دفعه من الشر. والأصل في الإرادة الحرَّة في الإِنسان أن تكون حاكمة عادلة، تعطي كل ذي حق حقه بالعدل، فإن استخدمت حريَّتَها في غير ذلك كانت جائرة، غير صالحة لأن تكون حاكمة في كيان الإِنسان، وغير مؤهلة لهذا السلطان العظيم النادر في الوجود، سلطان حرية اختيار ما تشاء، ضمن دوائر الاستطاعة. وحينما يُعْطىٰ للحاكم سلطة الحكم المطلقة، فليس معنى ذلك إعطاؤه حَقًّا في أن يظلم، ويجور ويهضم حقوق الناس، لمجرد أن يثبت سلطته، ويطلق فيها إرادته العمياء تفعل ما تشاء.

فمن الحقوق الشخصية: حق تكميل الفكر بالمعرفة، وحق جلب السعادة والطمأنينة للقلب والنفس. ومنها حقوق الجسد على الإِنسان: كحقِّهِ في الغذاء من غير إسراف، وحقِّه في الدواء النافع، وحقه في الاستمتاع بالراحة واللذات المباحات من غير إسراف ولا تقتير، وحقِّه في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره.

فهل من حَقّ حرية الإِرادة الشخصية أن يقتل الإِنسان نفسه ليرضي شهوته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يُمرِض الإِنسان جسمه ليرضي نهمته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يخرب الإِنسان طاقته الفكرية وقوته العقلية ليرضي هواه في عادة استحكمت فيه، وتمكنت من نفسه؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يدمن الإِنسان المسكرات، أو المخدرات، ويقذف بنفسه في مصائب عواقبها مؤلمة؟!

هذا أمر لا يقبل به ذو عقل.

أما الحقوق الاجتماعية فكثيرة: منها أن لا يتعرض الإِنسان من أجل إثبات حريته الشخصِيَّة إلى شيء من حقوق الآخرين بظلم أو عدوان، ومنها أن يشترك مع المجتمع في تكافل اجتماعي يتبادل فيه أفراد المجتمع الأخذ والعطاء، ضمن قواعد العدل والإِحسان والواجب.

ما دام الإِنسان كائناً اجتماعياً فلن يكون ذا حرية مطلقة، إن شركاءه في الهيئة الاجتماعية سَيحُدُّون من حريته، لأن لهم مصالح مثلما له مصالح، ولأن لهم مطالب مثلما له مطالب، ولن تتسع حياة الجماعة لجميع المطالب الخيَاليَّة التي يصبو إليها الأفراد.

فهل من حق الحرية الشخصية أن يقتل الإِنسان غيره ليثبت حريته؟ هل من حقِّ الحريَّة الشخصية أن يُرْضِيَ الإِنسان شهوة من شهواته في حين أنه ينجم عنها آلام آخرين وعذابهم؟ هل من حقّ الحرية الشخصية أن يُدْمِن الإِنسان المسكرات ويخلف ذرية ترث عنه العاهات والأمراض الخطيرة بسبب إدمانه؟ إنه بإدمانه المسكرات لا يجني على نفسه فقط إنما يجني على نفسه وعلى ذريته، وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، لما يجلب له من متاعب، وما يحمله من أعباء. هل من حق الحريَّةِ الشخصية أن يقذّر الإِنسان في طريق عام، ويعرض الآخرين للأذى، ويعرّض صِحَّتَهُمْ للأمراض والأوبئة؟ إنه لا يملك أن يفعل مثل هذا في بَيْته الخاص به، إذا كان لفعله أضرار وآثار تتعدى للآخرين. ولو أنه كان مريضاً بمرض معدٍ يسري بحسب سُنَنِ الله الكونية إلى الآخرين، لم يَكُنْ من حقِّ حُرِّيَتهِ الشخصية أن يجتمع بالناس، لئلا

يسبب لهم العدوى، وعليه أن يفرض على نفسه حَجْراً صحّياً. هل من حق الحرية الشخصية أن يسلب الإِنسان مالَ غيره بالباطل؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يُعْلِنَ الإِنسان جحوده بالحقائق الثابتة، ويعمل على إضلال الناس؟ إنه يجب أن يعاقب ويحجز ويمنع من ذلك، ولا سيما إذا كانت هذه الحقائق تتصل بمصالح الناس وأنظمتهم، وضوابط هيئتهم الاجتماعية.

وأما الحقوق الربانية، فهي حقوق الخالق المالك على عباده، وليس من حق الإِنسان أن يستخدم ما أعطاه الله من الحرّيّة الشخصية في العدوان على حقوق مانِحِ هذه الحرية، وأن يتجاوز بها الحدود التي حدَّها له، وكان باستطاعة الخالق المالك وما يزال باستطاعته أن يسلبه حريته وحياته وكل ما أعطاه.

إن مما لا شك فيه أن الحقوق لها حدود، وأن كل حق متى تجاوز حده خرج من دائرته فكان عدواناً وظلماً.

فدعوى حق الحرية الشخصية المطلقة لا تقوم إلا على أساس واحد، هو إلغاء كل الحقوق إلا حق الحرية، وهذه الحرية الشخصية هي في الأساس خادمة للحقوق الأخرى، ومنظمة لها، وليس لها مطالب ذاتية، غير الشعور باستقلال الذات.

إن الذين يزعمون أنهم يعطون أنفسهم حرياتها الشخصية يقعون فريسة للأهواء والشهوات والشياطين، وعندئذ لا تكون لهم حريات شخصية، وإنما تكون لهم إرادات مستعبدة مذلة بين أيدي الأهواء والشهوات والشياطين.

إن الذي يستطيع أن يظفر بأكبر قسط من الحرية الشخصية هو الذي يكون عبداً لله حقاً، فمن تحقق بعبوديته لله تبارك وتعالى ملك هذا الحظ الأوفر، فاستطاع بحرّيّةٍ تامة أن يدير شؤون نفسه إدراة حكيمة عاقلة، غير واقعة في إسار جمهور أهواء النفس الجامحة، والشهوات الجانحة، وحَمَىٰ نفسه من أن يكون عرضة لاستحواذ شياطين الإِنس والجن عليه، لأن من كان عبداً لله حقاً تحرر من أسر كل ما عداه.

فالعبودية لله تعالى تصون وتحمي، وتعلي وترفع، وتسدد الطريق، وتحمل الإِنسان على سفينة النجاة، في خضم بحر الحياة المتلاطم، وتأخذ بيده إلى السعادة العاجلة، ثم إلى السعادة الخالدة.

ومن ترك العبودية لله تعالى منخدعاً بزخرف أوهام الحرّيَّة الشخصية قذف بنفسه في أودية الهلاك والدمار، ودفع بها إلى أقبح أنواع الاستعباد والإِسار، إذ تتخطفه الأيدي المختلفة، وتجتاله الشياطين، وتجعله عبداً ذليلًا

لها، وتمزقه شر ممزق، وعندئذ يذوق آلام الشقاء في حياته الدنيا ثم في حياته الأخرى.

نعوذ بك اللهم من ضَلالِ الرأي، ونعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ويحمل بعض المراهقين أقوال الفوضويين في الحرية الشخصية بغباء، ويرِدِّدُونها بدون عقل ولا بصيرة، زاعمين أن طريق الظفر بالسعادة في الحياة إنما يكون في إطلاق حرّيات الأفراد، في أن يفعل كل منهم ما يريد، دون أن يكون له رادع يردعه، أو حاجز يحجزه، من سلطة إدارية، أو هيئة اجتماعية، أو دين أو أخلاق أو قوانين، وزاعمين أن الحرية الشخصية المطلقة دون أي قيد حق طبيعي فطري من حقوق الإِنسان، ولا يَصِحُّ أن ينزع منه.

ويستغل المفسدون في الأرض هذه الفكرة المدمرة لهدم كيان الجماعات، وتبديد طاقاتها، دون أن يخسروا في ذلك شيئاً من رجالهم، أو أموالهم، أو عتادهم، وذلك إذ ينطلق مراهقو الشعوب بدافع من هٰذه الفكرة الخبيثة، وهم يحلمون بأمجاد وهمية، ويُظْلِم عليهم اللَّيْلُ وهم مندفعون، ثم لا يجدون أنفسهم ولا يجدون شعوبهم إلا ضحايا وأَسَارَىٰ في أيدي أعدائهم الشياطين.

الباب الثاني

مهمّات من كليّات الأخلاق وفروعها

وفيه مقدمة وسبعة فصول.

مقدمة: الأُسْوة المثلَىٰ في الأخلاق محمد رسول الله ﷺ.

الفصل الأول: حبّ الحق وبعض فروعه وظواهره السلوكيّة وأضدادها.

الفصل الثاني: الرحمة وبعض فروعها وظواهرها السلوكية وأضدادها.

الفصل الثالث: الصبْرُ وبعض فروعه وظواهره السلوكية.

الفصل الرابع: حبُّ العطاء وبعض فروعه وظواهره السلوكية.

الفصل الخامس: سماحة النفس.

الفصل السادس: علوُّ الهمة وبعض فروعها وظواهرها السلوكية.

الفصل السابع: بعض ظواهر خلقية لأكثر من أَصْلٍ خُلُقِي.

مقدمة

الأسوة المثلَى في الأخلاق
محمّد رسول الله ﷺ
ذو الخُلق العظيم

وصف الله رسوله محمداً صلوات الله عليه بأنه على خلق عظيم، ووجه له الوصف على سبيل الخطاب الذي يمدحه ويثني عليه فيه؛ فقال تبارك وتعالى في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

فهذا النص القرآني يثبت أنّ محمداً ﷺ لعلى خلق عظيم، أي: فهو متمكن من أخلاقه العظيمة المثلى، قابض على ناصيتها، وقد دلّ على هذا المعنى الاستعلاء الذي دلّ عليه حرف (على) في: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهذا النص يدفعنا بطريقة غير مباشرة إلى دراسة شخصية الرسول ﷺ، بوصفه المثل الإِنساني الكامل،

لاكتشاف صفاته الخلقية التي يتحلَّى بها، واعتبارها كتاباً في مكارم الأخلاق مجسّداً في صورة إنسان.

وبدراسة شمائل الرسول صلوات الله عليه، تُعرف مكارم الأخلاق معرفة تطبيقية عمليَّة، ثم تكون لدى العقلاء الحكماء أمثلةً للاقتداء بها، واتّباع خطواتها.

وبدراسة شمائله تتهيأ أمام الناس القدوة الحسنة، ذات الصفات الخلقية العظيمة، والتي تجذبهم إلى محبتها والاقتداء بها.

وإذ وصف الله رسوله بأنه على خلق عظيم، وجّه المؤمنين إلى الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة، فقال تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

وكما نستطيع أن ندرس الذهب كلّه ونعرف خصائصه، إذا نحن درسنا قطعة عظيمة من الذهب الخالص، فإننا نستطيع أن ندرس كلّ مكارم الأخلاق ونتعرف عليها، إذا نحن درسنا شمائل الرسول محمد صلوات الله عليه.

وشمائله المنقولة في الأحاديث الصحيحة الثابتة رسمٌ كلاميٌّ لشخصيته.

وقد ألف عدد من المؤلفين العلماء بالحديث عدة كتب في شمائل المصطفى الخَلْقية والخُلُقية، وسائر تصرفاته السلوكية، والأصل في المسلم أن يدرسها ويتعرف عليها، ليضع نُصب عينيه صورة القدوة الحسنة المثلى، التي جعلها الله للناس المثل الكامل.

لقد كانت حياة الرسول وسيرته بصفة عامة مدرسة تربوية خلقية سلوكية شاملة، حتى الأنماط السلوكية التي لا تظهر فيها أوّل الأمر أسس المفاهيم الخلقية، كانت في حياة الرسول موصولة بأسس المفاهيم الخلقية، ولو من وجه من الوجوه، فكان لها صفة الظواهر الناتجة عن أخلاقٍ راسخة في النفس، متمكنة في أركانها.

ومن البدَهِيّ بعد هذا أن يكون الكمال التطبيقي النبوي صورة مماثلة للكمال الذي وجّه القرآن له ورغّب فيه، وهذا ما جعل السيدة عائشة أم المؤمنين تقول في وصف خلق الرسول ﷺ: «كان خلقه القرآن» أيْ كان خلقه مطابقاً لما وجّه له القرآن من فضائل.

وقد وصفه أصحابه رضوان الله عليهم بأنه أحسن الناس خلقاً، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً.

ولذلك كان صلوات الله عليه مزكّياً لمن آمن به واتّبعه واقتدى به واهتدى بهديه، بقوله وعمله وأخلاقه، والتزكية التطهير من أدناس الأعمال والأخلاق السيئة والنيات الفاسدة والعقائد والأفكار الباطلة، قال الله تعالى في وصفه في سورة (الجمعة ٦٢ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

فجعل الله من صفاته أنّه يزكيهم، ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرّد، بل لا بد فيها من أن يكون الرسول مثالاً واقعيّاً حيّاً لما يدعو إليه ممّا تكون به تزكيتهم.

ولمّا كان الرسول ﷺ أعلى مثل في كل صفاته الخُلُقية والسلوكية، كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وبذلك وصفه الله بقوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ . . . ﴿٦﴾﴾.

* * *

الفصل الأول

حبُّ الحقّ وبعض فروعه وظواهره السلوكية وأضدادها

وفيه اثنتا عشرة مقولة:

المقولة الأولى: الشرح التحليلي لخلق حبّ الحقّ.

المقولة الثانية: الاعتراف بالحقّ والإذعان له.

المقولة الثالثة: الصدق من فروع خلُق حبّ الحق.

المقولة الرابعة: موقف الإسلام من الصدق والكذب.

المقولة الخامسة: شهادة الزور.

المقولة السادسة: الصدق في العهد وفي الوعد والكذب فيهما.

المقولة السابعة: العدل:

المقولة الثامنة: الأمانة.

المقولة التاسعة: الخيانة.

المقولة العاشرة: بواعثُ جحود الحقّ والكفر به مع ظهور أدلته.

المقولة الحادية عشرة: تحذير الإسلام من الكبر والغرور بالنفس.

المقولة الثانية عشرة: الحسد.

المقولة الأولى

الشرح التحليليّ لخلق حبّ الحقّ

ظهر لي بالتأمل التحليلي أنّ من الأصول الخلقية وكلّياتها العامة حبَّ الحقّ وإيثارَه، وأنّ لهذا الأصل فروعاً أخلاقية متعدّدة، منها الصدق، ومنها العدل، ومنها الوفاء بالعهد والوعد، ومنها الأمانة إلى غير ذلك.

والانحراف عن هذا الأصل الخلقي العام يُفْضِي إلى السقوط في رذائل خلقية متعدّدة، منها الكذب، ومنها الظلم، ومنها الغدر، ومنها الخيانة، ومنها قسوة القلب عن قبول دعوة الحق، إلى غير ذلك.

ولهذا الانحراف أسباب كثيرة، ترجع معظمها إلى الأنانية الذاتية المفرطة، وغلبة الأهواء والشهوات، ويرجع بعضها إلى خبث النفس وكراهيتها للآخرين، ونزغاتها الشيطانية الشريرة.

وباستطاعتنا أن نجد الإِشارة إلى هذا الأصل الخلقي العام في طائفة من النصوص الإِسلامية.

يقول الله تعالى في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

فدلّ هذا النص على أن الله قد حبّب إلى قلوب المؤمنين الإِيمان، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن الإِيمان هوالتصديق بأجلِّ الحقائق الكبرى، فحُبُّ الإِيمان أوّل ظاهرة جليلة الخطر من ظواهر حبّ الحق، إذ الأركان الذي يجب الإِيمان بها في الإِسلام هي من الحق، وحبّ الإِيمان بها حبّ للحق وإيثار له على الباطل. وحبّ الحق يستلزم كراهية الباطل وما يتصل به، وإن تعلّقت به أهواء النفوس وشهواتها، ولمّا كان الكفر والفسوق والعصيان من الباطل، كان من الطبيعيّ أن تكْرَهَهُ قلوبُ المؤمنين الذين أحبّوا الحقّ وآثروه.

ولمّا أَحَبَّ المؤمنون الحق وآثروه على أهوائهم وشهواتهم آمنوا بالإِسلام واتّبعوا الهدى.

أمّا الكافرون فقد كرهوا الحقّ الذي يخالف أهواءهم

وشهواتهم، فكفروا بالإسلام واتَّبعوا الشياطين، واتخذوا أهواءهم وشهواتهم آلهة لهم من دون الله، وإذ كرهوا الحقَّ كَرِهُوا الدَّاعين إليه والناصحين به، وكان من الطبيعي فيهم أن يحبُّوا الباطل الموافق لأهوائهم وشهواتهم، ويؤثروا العمى على الهدى، قال الله تعالى يصف ثمود في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

استحبّوا: أي أحبُّوا بشّدة.

فهؤلاء ثمود قد استحبوا العمَىٰ وهوالكفر على الهدى وهو الإيمان، ومعلوم أنّ الكفر التزام بالباطل، والهدَىٰ استمساك بالحقّ.

ولما كره الكافرون الحق وأحبوا الباطل كرهوا الدعاة إلى الحقّ والناصحين به، ولذلك خاطب صالح عليه السلام قومه ثمود بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

هذا ما قصه الله علينا حكاية لقول صالح بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وكرهوا أيضاً ظهور الحقّ وانتشاره، وكرهوا إحقاق الحق وإبطال الباطل، قال الله تعالى في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿... وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

فهؤلاء المجرمون يكرهون إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، لأنّ ذلك يضر بمنافعهم وامتيازاتهم وزعاماتهم القائمة على الباطل، فهم يُحِبُّون ظهور الباطل حرصاً عليها، ويكرهون ظهور الحقّ خوفاً من فواتها.

وقال الله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

فالمجرمون في كل زمان يكرهون إحقاق الحقّ، لأنه يخالف ما هم عليه من باطل.

ويكره الكافرون بالحقّ أن يمتدّ نوره ويعمّ، لأنهم يريدون أن تظلّ الجماهير الجاهلة مسخّرة لأهوائهم، خاضعة لزعاماتهم الباطلة، ومتى ظهر نور الحق وعمّ انتشاره تيقظت الجماهير المسخّرة لهم من غفلتها، وألقت

عن ظهورها أوزار المتحكمين بهم، والمتسلّطين عليهم من المجرمين الكافرين بالحقّ، الظالمين لعباد الله، وفي شأنهم يقول الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ويقول سبحانه في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

والمقصود بنور الله هنا نور المعرفة والعلم، ونور رسالة الحق التي أرسل الله رسوله بها، والكافرون يحاولون أن يطفئوا نور هذه الرسالة الحقّ بأضاليلهم التي يقولونها بأفواههم، ليغشّوا بهذه الأقوال على عقول أتباعهم فلا يروا نور الحقّ المبين، ونور الله لا تطفئه أفواه المضلّين، ويأبى الله إلّا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون.

ولدى الإِحصاء الإِنساني نجد أنّ أكثر الناس يكرهون الحقّ، متى صادم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم ومنافعهم ولذاتهم الخاصة، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

فأثبت الله في كلٍ من هذين النصين أنّ أكثر الناس للحقّ كارهون، وبين النصّ الأول منهما السبب في كراهيتهم للحق بقوله تعالى:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾.

فدل هذا على أن أهواء نفوسهم الجانحة عن سبيل الهدى هو السّبب في كراهيتهم للحق، وحين تسيطر على

الإِنسان أهواؤه وشهواته تقع عواطفه تحت تأثير هذه السيطرة، فيتجه حبّه وتتجه كراهيته وفْقَ اتّجاه أَهْوائِه وشَهَواته، لا وَفْقَ مَنْطِق عقله ومشاعر وجدانه الفطرية الأصيلة السليمة.

وقد نلاحظ أنّ بعض المؤمنين الذين يحبّون الإِيمان ويكرهون الكفر، قد يحبّون من دون الكفر أموراً من الباطل تشتهيها نفوسهم أو تميل إليها أهواؤهم، كما نلاحظ أن بعض غير المؤمنين الذين يحبّون الكفر ويكرهون الإِيمان، قد يحبّون من دون الإِيمان أموراً من الحقّ تميل إليها عواطفهم وفطرهم.

ونستطيع أن نسمّي هذا نزوعاً جزئياً إلى الباطل، وحباً جزئياً له في نفوس الذين يحبون الحقّ ويؤثرونه، ونزوعاً جزئيّاً إلى الحقّ، وحبّاً جزئيّاً له في عواطف الذين يحبون الباطل ويؤثرونه. ومعاصي المؤمنين قد يكون كثير منها ظواهر لهذا الحبّ الجزئي للباطل، بتأثير أهواء نفوسهم وشهواتهم، وفضائل غير المؤمنين قد يكون كثير منها ظواهر لهذا الحبّ الجزئي للحقّ، بتأثير جوانب من فطرهم السليمة، وعواطفهم الإِنسانية الكريمة، ونجد الإِشارة إلى هذا النزوع الجزئي في قول الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مع أن بعض هؤلاء قد كانوا من المؤمنين، إلّا أنَّهم سقطوا في معصية إشاعة الاتهام الكاذب على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حتى نزل القرآن ببراءَتِها وطهارَتِها.

فحبُّ الحقّ وإيثاره خلق ينتج عنه فضائل عظيمة خلقية وسلوكية، وحبّ الباطل وإيثاره خلق ينتج عنه رذائل خلقية وسلوكية فاحشة، إذن فهو أصل من الأصول الأخلاقية العامة، وله فروع متعدّدة، فلْنَبْحَثْ في بعض هذه الفروع بشكل تفصيلي.

* * *

المقولة الثانية

الاعتراف بالحق والإِذعان له

من الظواهر التي ترجع إلى خلق حبّ الحق وإيثاره الاعتراف بالحق والإِذعان له.

ومن البدهي أنّ مَنْ لا يعترف بالحقّ ولا يُذْعِنُ له بعد ظهوره له واستبانته لأدلته، محرومٌ من جوهرة عظيمة أساسيّة ورئيسيّة من جواهر عقد الأخلاق، ومصابٌ بداءِ قسوة القلب عن قبول دعْوَة الحق والاستجابة لنداء الخير والهداية[1].

فلو رأينا إنساناً اتَّهَم بالجنون رجلًا عاقلًا ذكيّاً حصيفاً، فإنّنا بالبداهة نصف هذا المتهِمَ الظالم بأنه مَحْرُوم من خُلُق كريم، إذ جحد حقيقة واقعة يتصف بها الرجل الذكيّ العاقل الحصيف، وأثبت له خلافها ممّا ليس فيه، وشمته بذلك.

---

(١) سيأتي إن شاء الله شرح قسوة القلب في المفاهيم الإِسلامية، عند شرح خلق الرحمة والخلق المناقض لها.

فجحود الحق مع العلم بأنه حقّ انحراف خلقي قبيح، والعوامل النفسية الدافعة لهذا الجحود كثيرة، وكلُّها لا تَعْدو أن تكون من قبيل الأهواء الجانحة.

ولو أقرضنا إنساناً مبلغاً من المال فجَحَدَه وأنكره، فإننا نصفه بأنه آكل لأموال غيره بالباطل، منحرف في خلقه عن المكارم، ولو أنَّه أدى ما عليه إلّا أنه جحد المعروف ولم يَعْتَرِفْ به، فإننا نصفه أيضاً بأنه جاحد للحقّ، منحرف في خلقه عن المكارم، ناكرٌ للجميل.

وكذلك الذي يُنْكِرُ فَضْلَ ذوي الفضل، ويجحد علم أصحاب العلم، ولا سيما إذا كان ذلك يُفْضِي إلى الإضرار بمصالح ذوي الفضل والعلم، إنه لا يفعل شيئاً من ذلك إلّا محروم من ركن أساسي من أركان الأخلاق الكريمة، وساقط في رذيلة كبرى من الرذائل الخلقية، هي رذيلة جحود الحق وعدم الاعتراف به والإذعان له.

وأكثر خسة وأعظم لؤماً وانحرافاً خلقياً من يجحد فضل أبويه عليه ولا يُذْعِنُ له، ولا يقوم بما عليه من حقّ لهما.

وأقْبَحُ من ذلك من يجحد رسالةَ رُسُلِ الله، ولا يعترف بها، ولا يُذْعِنُ لها، مع ظهور الأدلة ووضوح

البراهين!! ولهذا الجنوح الخلقي الشنيع سمة خاصة عنوانها الكفر.

وأخسّ من ذلك وأشنع وأقبح إنْكَارُ وُجُودِ الله، وعدَمُ الاعتراف بأنه الخالق الرازق المحيي المميت، الذي يجازي على الخير خيراً وعلى الشر شرّاً، مع أنّ الله تبارك وتعالى قد بَثَّ أدلة وجوده وصفاته في كل ما خلق من شيء!! إنّ إنكار وجود الله وإنْكَارَ صفاته وعظيم نعمه لُؤْمٌ وخسة وحَقَارَة بالغة، وسوء خلُقِيٍّ بلغ الدَّرْكَ الأَسْفَل، لأنَّه جُحُودٌ لكبرى حقائق الوجود، وجحود لنعم المنعم بالحياة والعقل والإِرادة وسائر ما في الحياة من نعم وخيرات، وجحود للمنعم بالجزاء العظيم على الإِيمان به والتزام طاعته. إنّ هذا الجحود يدلّ على انهيار خلقي شنيع.

لقد جاء موسى عليه السلام فرعون وقومه بالآيات البينات فجَحَدُوا بها ظلماً واستعلاءً بغير حق، مع أن أنفسهم قد استيقنتها، فكان جحودُهُمْ بها بسبب انحراف خلقيٍّ ذميم لديهم، هو الظلم والاستعلاء بغير حق، قال الله تعالى في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وبين الله أنه لا يجحد بآياته إلّا كلّ غدّار كفور، فقال تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الختار: هو الغدار.

والجاحد المشار إليه في هذه الآية جاحد من نوع معين، إنّه حينما تعرّض للأزمات والشدائد دعا ربه وأخلص له الدّين، وأعطى العهد على الطاعة والتزام الإيمان الصادق، فلما أنجاه الله رجع فأعلن جحوده بآيات الله، وهذا منتهى الغدر الخسيس، إنه مخلوق مراوغ أعطى عهد الإيمان لينجو، فلما نجا غدر بعهده الذي عاهد الله عليه، ولذلك وصفه الله بأنه ختار ـ أي: غدار ـ ووصفه بأنه كفور، أي: كثير الكفر كثير الجحود للحق، كثير الجحود لنعم الله عليه، والغدر والكفر من أخس الرذائل الخلقية.

* * *

المقولة الثالثة

الصدق من فروع خلق حب الحق

أ ـ يعرَّف الصدق بأنه قول الحق، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة.

ويعرّف بعضهم الصدق بأنه الكلام المطابق لاعتقاد المتكلّم سواء طابق الواقع والحقيقة أو لم يطابق، وهذا التعريف معترض عليه بأنه لو جاز أن نسمي ما طابق اعتقاد المتكلم صدقاً لكان قول المشركين فيما يعتقدون لشركائهم كلاماً صدقاً، مع أنه كذب ظاهر، مخالف للواقع والحقيقة.

وأرى التفريق بين الكلام والمتكلّم: فإذا تحدث الإِنسان بخبرٍ ما وكان كلامه الذي قاله مطابقاً لما يعتقد في الموضوع الذي تحدث به ومخالفاً للواقع، فإنه منسجم مع نفسه، وهو في حديثه صادق غير كاذب، إلاّ أنّ كلامه هو بحد ذاته كَذِبٌ. لأنه مخالف للواقع

والحقيقة. أما إذا تحدث الإنسان بخبرٍ ما وكان كلامه الذي قاله مخالفاً لما يعتقد في الموضوع الذي تحدَّث به، ومطابقاً للواقع والحقيقة، فإنه غير منسجم مع نفسه، وهو في حديثه كاذب غير صادق، إلاّ أنّ كلامه هو بحد ذاته صدق، لأنه مطابق للواقع والحقيقة. وعلى هذا فقد نصف المتكلم بأنه كاذب لأنه تكلم على خلاف اعتقاده، مع أن كلامه قد يكون موصوفاً بالصدق لأنه موافق للواقع والحقيقة فلكلٍ من الكلام والمتكلم وصف ملائم لواقع حاله. ومن أمثلة ذلك قول المنافقين المتظاهرين بالإِسلام، إذ قالوا بألسنتهم كلاماً حقاً مطابقاً للواقع، وهو كلامٌ بحدّ ذاته صِدْق، إلاّ أنهم لا يعتقدونه، فهم كاذبون في إعلانه، ولذلك وصفهم القرآن بأنهم كاذبون، لأنهم منافقون لا يعتقدون ما يقولون، قال الله تعالى في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ①﴾.

فهؤلاء المنافقون قالوا لرسول الله ﷺ: نشهد إنك لرسول الله، وقولهم هذا كلام حق وصدق، إلّا أنهم مع ذلك كاذبون لأنّهم قالوا كلاماً لا يعتقدونه، ولذلك قال تعالى قبل إعلان أنّهم كاذبون: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وذلك أنهم لا يعتقدون ما يقولون.

ويرى علماء البلاغة أنّ الله أكذبهم بقولهم: «نشهد» لأنّ معنى نشهد: نقول بألسنتنا ما هو في قلوبنا، وهذا مخالف للحقيقة والواقع، إذ قلوبهم مخالفة لما ذكروه بألسنتهم.

ونقول في جواب هذا: إن كل إنسان يقول بلسانه خبراً على خلاف ما في قلبه من اعتقاد يقدِّمُ شهادةً بما يعتقد، سواء أذكر عبارة الشهادة أم لم يذكرها، وبذلك يصح لنا أن نسميه كاذباً.

وفي رأيي ينحل الإِشكال حين نفرق في الوصف بين الكلام والمتكلم، فنصف كلًّا منهما بما يناسب واقع حاله، فالكلام الصدق هو ما كان مطابقاً للواقع والحقيقة، والمتكلم الصادق هو المخبر بما يطابق اعتقاده.

ومن الأدلة الدالة على أن وصف المتكلم بأنه كاذب لا يكون إلا إذا كان المتكلم يعلم من نفسه أنه كاذب، وأنه يقول ما يقول افتراءً يفتريه على الحقيقة، قول الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

فجعل الله في هذه الآية مُفْتَرِي الكذب هم وحدهم الكاذبين، أي: المدانين بما يقولون من أقوال كاذبة، لأنَهم يفترونها، فهم يقولونها وهم يعلمون أنها كذب مفترى.

فالإِدانة بالكذب إنما تكون مع علم المتكلم بأن ما يقوله كلام كذب مخالف للواقع أو لما يعتقد، ومن شواهد ذلك قول الله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقول الله أيضاً في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

فهؤلاء من أهل الكتاب يقولون كلاماً كذباً، وهم يعلمون أنه كذب، فهم كاذبون مدانون بالافتراء.

أما قول الله تعالى في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

فهؤلاء قد أنكروا البعث من غير دليل، وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين: لا يبعث الله من يموت، دون أن يكون لهم أيُّ مَسْتَنَدٍ عقلي أو علمي أو خبري يبرر ادعاءهم، بل الحجج العقلية والنقلية تثبت خلاف ما يقولون. فليس من المعقول أن تكون لديهم عقيدةٌ جازمة بأن الله لا يبعث من يموت، حتى يقسموا بالله جهد أيمانهم على ذلك، وحتى نعتبرهم منسجمين مع أنفسهم، لذلك فهم يقولون كلاماً كذباً، وهم مدانون بأنهم كاذبون.

وعلى فرض أنهم يعبرون عن عقيدتهم، فإنهم سيعلمون يوم القيامة أنهم كانوا كاذبين أي: كانوا يقولون كلاماً كذباً مخالفاً للواقع والحقيقة.

ب ـ وكما يكون الصدق والكذب في الأقوال يكونان في الأفعال، فقد يصدق الناس في تعبيراتهم الفعلية، وقد يكذبون، فإذا كانت تعبيراتهم الفعلية مطابقة في دلالاتها للحقيقة والواقع، فإنها تكون أفعالاً صادقة، وإذا كانت غير مطابقة فإنها تكون أفعالاً كاذبة.

فقد يفعل الإنسان فعلًا يوهم به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة بالفعل مثلما تكون المخادعة بالقول، وربما يكون الكذب في الأفعال أشد خطراً وأقوى تأثيراً من الكذب في الأقوال.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله لنا من أقوال وأفعال إخوة يوسف عليه السلام، إذا جاؤوا أباهم عشاءً يبكون بكاءً كاذباً، وقالوا ـ كذباً ـ: يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وجاؤوا على قميص يوسف بدَمٍ كذب، فجمعوا بين كذب القول وكذب الفعل، قال الله تعالى في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ

كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

فبكاؤهم فعل كاذب، قصدوا به التعبير لأبيهم عن حزنهم على يوسف الذي أكله الذئب بزعمهم، وهم الجانون عليه إذ ألقوه في الجُبّ. وقصتهم التي أخبروا عنها قصة مفتراة من عند أنفسهم، والذئب بريء من دم أخيهم، فأقوالهم فيها أقوال كاذبة، وتلطيخهم قميص يوسف بدمِ شاةٍ ذبحوها ليوهموا به صحة ما زعموه من أكل الذئبَ له فعل كاذب والدم ليس دم يوسف بل هو دم كَذِبٌ، وهكذا لفّقوا عدة أكاذيب قوليَّة وفعليَّة ليستروا بها ما جنوه على أخيهم.

ونستطيع أن نعتبر الأعمال التي يقوم بها المراؤون من قبيل الكذب العمليّ، وأبلغ منها الأعمال التي يعملها المنافقون ليخادعوا بها المؤمنين فهي من قبيل الكذب العملي، وهي مضافة إلى أكاذيبهم القولية التي زعموا فيها أنهم مسلمون مؤمنون موالون.

أما الأعمال الصادقة فهي الأعمال التي تكون دلالاتها التعبيرية مطابقة لما في نفس فاعلها وقلبه، وهي التي ليس بينها وبين ما يخفيه فاعلها في نفسه وقلبه منافاة ولا تعارض.

فالمجاهد في سبيل الله الصادق في جهاده هو الذي يكون عمله ترجمة صادقة لإِيمانه، وتكون نيتُه مطابقة للدَّلالة التعبيرية التي دل عليها جهاده.

والحركات التعبيرية الصادقة كإشارات اليد والعين والحاجب والرأس هي الإِشارات التي تكون دلالاتها مطابقة للواقع والحقيقة، وكم من إشارة فعلية تقوم مقام القول في دلالتها. ومن الإِشارات الفعلية ما هو صادق ومنها ما هو كاذب، وما أكثَرَ ما يكذب الناس بإشاراتهم وبأفعالهم، ولعل الكذب في الأفعال أكثر عند الناس من الكذب في الأقوال.

ولما كان الصدق والكذب مما تُوصَفُ بهما الأقوال والأفعال كان لنا أن نقول: إن كل ذي دلالة مقصودة إما أن تكون دلالته صادقة وإما أن تكون كاذبة، والصادق منها ما وافق الواقع والحقيقة، والكاذب منها ما خالف الواقع والحقيقة.

ولمّا كان الصدق مطلوباً من المؤمنين في أقوالهم وأعمالهم أمر الله المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، فقال تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

والصادقون هم الذين صدقوا في إسلامهم، وصدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أقوالهم، وصدقوا في أعمالهم. وصدقهم في أعمالهم يكون في أن يبتغوا بها وجه الله تعالى، وهي بذلك تكون معبِّرة عن إيمانهم تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا سمعة ولا نفاق.

ج ـ لا يكون الكذب من الأخلاق الفطرية التي يطبع عليها الإِنسان:

يظهر من ملاحظة الصغار أنهم مفطورون في أساس تكوينهم على حبّ الحق، وعلى حب الصدق، وأن خلق الكذب لا يكون أصيلًا في طبع الإِنسان بحسب فطرته وإنما يكتسبه بعد ذلك في حياته اكتساباً، بعوامل شتى، منها البيئة، ومنها مؤثرات الأهواء والشهوات، ومنها الاعتياد بتكرُّرِ الخبرات، ثم تتحول العادة فتكون خلقاً مكتسباً.

روى الإِمام أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُطْبَعُ المُؤْمِنُ عَلَىٰ الخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ والْكَذِبَ».

فهذا الحديث يدل على أن الإِنسان مفطور في أساس

تكوينه على حب الحق، والذي يحب الحق لا يكون خائناً ولا كذاباً، وأن الخيانة والكذب يأتيان إلى أخلاق الناس اكتساباً.

وذكر الحديث المؤمن ولم يذكر الإِنسان، إلا أن كل إنسان مفطور على الإِيمان، فهو مؤمن بالفطرة، ويفسد فطرته بعد ذلك بإرادته، أو تعمل البيئة على إفساد فطرته، وقد دل على هذا قول الرسول ﷺ:

«كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يَنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجّسَانِهِ أَوْ يَتْرُكَانِهِ مُسْلِماً».

ودل عليه أيضاً قول الله تعالى سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولما كان الإِنسان في فطرته أكْثَرَ ميلًا إلى الحق والصدق كانت تربيته على حب الحق والتزام الصدق أمراً مَيسوراً، يجد من الفطرة مساعدات عليه، وعلى المربين أن يستغلوا ذلك استغلالًا حسناً.

د ـ حاجة المجتمع الإِنساني إلى سيادة خلق الصدق، والمضار الكثيرة التي يجلبها خُلُقُ الكذب:

تبدو لنا حاجةُ المجتمع الإِنساني إلى خلُقِ الصدق، حينما نلاحظ أن شطراً كبيراً من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإِنسانية، تعتمد على صدق الكلمة، فإذا لم تكن الكلمة معبّرة تعبيراً صادقاً عما في نفس قائلها، لم نجد وسيلة أخرى كافية نَعِرْفُ فيها إرادات الناس، ونعرف فيها حاجاتهم، ونعرف فيها حقيقة أخبارهم.

لولا الثقة بصدق الكلمة لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس، ويكفي أن نتصور مجتمعاً قائماً على الكذب، لندرك مبلغ تفكُّكِه، وانْعِدَام صُوَر التعاوُنِ بين أفراده.

كيف يكون لمجْتَمعٍ ما كيانٌ متماسكٌ وأفراده لا يتعاملون فيما بينهم بالصدق؟ وكيف يكون لمثل هذا المجتمع ثروة من ثقافة أو تاريخ أو حضارة؟

كيف يوثَق بنقل المعارف والمعلوم إذا لم يكن الصدْقُ أَحَدَ الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإِنساني؟

كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن

الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع؟

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟

كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإِثبات القوليَّة ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟

ما هو مصير مجتمع قائم على الكذب؟ أليس مصِيرُه الانحلالَ والتفكّك، ثم التخلُّف الحضاري الشنيع، ثم الخراب والدمار؟ أليس الجهل المخزي أحد سمات هذا المجتمع المنحل؟

* * *

المقولة الرابعة

موقف الإِسلام من الصدق والكذب

ولما كان الصدق ضرورةً من ضرورات المجتمع الإِنساني، وفضيلة من فضائل السلوك ذات النفع الحضاري العظيم.

ولما كان الكذب عنصر إفساد كبير للمجتمعات الإِنسانية، وسبب هدم لأبنيتها الحضارية، وتقطيع لروابطها وصِلَاتِها، ورذيلة من رذائل السلوك ذات الضرر البالغ؛ أمر الإِسلام بالصدق، ونهى عن الكذب، وأعلن أن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإِسلامي، ووضع قواعد تربية هذا المجتمع على الصدق، واتَّخذَ كُلَّ الوسائل الكفيلة بغرس هذا الخلق العظيم في نفوس أفراده جميعاً، صغاره وكباره، ورجاله ونسائه.

وفيما يلي بيان لطائفة من النصوص الإِسلامية:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهَ كَذَّاباً».

وفي رواية أخرى:

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلىٰ الْجَنَّةَ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً».

فدل هذا الحديث على أن الصدق يهدي إلى البرّ، وَالبِرُّ كلمةٌ جامعة تدل على كلّ وجوه الخير، ومختلف الأعمال الصالحات، مما هو زائد على فعل الواجبات وترك المحرمات، الأمور التي تقتضيها مرتبة التقوى.

ونتساءل كيف يهدي الصدق إلى مختلف وجوه البر؟ وبالتأمل والتحليل نلاحظ ما يلي:

إذا كان الإِنسان صدوقاً أي: كان خلق الصدق أصيلًا في نفسه، فما هو موقفه السلوكي إذا عرف الحق وسئل عنه؟

إنه لا بد أن يكون موقفه تجاهه الإِعلان عنه بصدق، بأن يقول: هو حق.

فإذا سئل عن أركان الإِيمان بعد أن يعلم أنها حق بالأدلة التي تثبت ذلك؟

إنه لا بد أن يعلن اعترافَهُ بأَنَّهَا حَقٌّ لأَنَّه صادق لا يطاوِعُه خُلُقه أن يكذب، مهما كانت أهواؤه جانحة إلى إعلان الجحود والإِنكار.

وبهذا يَتَبَيَّنَ لنَا أن الصِّدْق يَهْدِي إلى الإِيمان، والإِيمان هو القاعدة الأساسية للتقوى وقد هدى إليه خلق الصدق.

ومن كان صدوقاً خُلُقه الصدق فإنه لا يمكن أن يكون منافقاً، لأن الكذب هو العماد الأول للنِّفَاق، والصادق إما أن يؤمن حقاً، ويعلن إسلامه بصدق، وإما أن يتوقف حتى تتبيَّن له الحقيقة، فخلق الصدق يمنعه من أن يظهر الإِيمان كذباً، ويبطن الكفر، كما يمنعه من جحود الحق بعد معرفته.

فخلق الصدق يبعد صاحبه عن درك عميق فيه الهلاك والشقاء، ويدنيه إلى صراط السعادة، صراط الجنة، إذ يهدي صاحبَه إلى برِّ الإِيمان ويبعده عن فجور الكفر والنفاق.

وبهذا اتضح لنا التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلىٰ الْبِرّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلىٰ الْجَنَّةِ».

ولننتقل إلى مثالٍ توضيحي آخر فنقول: إذا كان الإِنسان متحلياً بخلق الصدق، فهل يطاوعه خلقه أن يعطي عهداً وهو كاذب فيه، أو يعد وعداً وهو كاذب فيه؟

إنه لا يفعل ذلك إلا إذا خالف خلقه، فما دام متحلياً بخلق الصدق فلا بد أن يكون صادق العهد صادق الوعد، والوفاء بالعهد والصدق في الوعد من وجوه البرّ العظيمة التي توصل إلى أعمال برٍّ أخرى كثيرة، ثم إلى رضوان الله والجنة.

وحين يعلن المسلم الصادق شهادة الإِسلام، فإنه يُعَبّر عن دخوله بإرادته في جماعة المسلمين، ويعلن عن قبوله ورضاه بأحكام الإِسلام، وهذا الإِعلان بمثابة عَهْدٍ

مع الله ومع المسلمين بأن يلتزم في حياته معنى شهادة التوحيد، فلا يجعل مع الله شريكاً في ربوبيته، ولا في إلَـهيّته، وبأن يلتزم في حياته معنى الشهادة برسالة محمد ﷺ، فلا يرفض شيئاً مما جاء به من أمور الدين، وهذا الإِعلان هو أيضاً بمثابة وَعْدٍ بالتزام الأحكام الإِسلامية في حياته العملية.

فمن أعلن إسلامه، فقد أعطى عهداً بأنْ يَلْتَزِمَ مَفَاهِيمَ الإِسلام في حياته الفكرّية الاعتقاديّة، وأعطىٰ وَعْداً بأن يَلْتَزِمَ تعاليمَ الإِسلام في حياته العملية، فإذا كان خُلُق الصدقِ خُلُقاً أصيلًا في نَفْسِه، لم يطاوِعْهُ خُلُقُه أن يَكُونَ واقع حاله على خِلَافِ إعلانه، وبذلك يَهْدِيه خلُقُ الصدق إلى مختلف وجوه البر، والبر يأخذ بيد صاحبه إلى رضوان الله وجنته.

وبهذا يتضح لنا أيضاً التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ».

ودل هذا الحديث أيضاً على أن خُلُقَ الصدق في حياة الإِنسان قابل للاكتساب، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة، فَمِنْ مظاهر الإِرادة الجازمة تحرّي الصدق في الأقوال كلها،

وفي مختلف وسائل التعبير العمَلِية. والذي يتحرَّىٰ الصِّدْقَ لا يَسْمَحُ لنفسه بأن يلقي كلاماً جُزَافاً دون تروٍّ ولا بصيرة، ولا يسمح لنفسه بأن يتبع ما ليس له به علم، فيحكم بالظنون التي ليس لها ما يدعمها ويؤيدها من الأدلة الكافية للإثبات أو للنفي، ولا يسمح لنفسه بأن يرائي أو ينافق في أعماله لأنه يحرص على الصدق ويتحرى بإرادته الجازمة الصدْقَ في أقواله وأعماله، وعندئذ يكون صِدِّيقاً، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بقوله في الحديث: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً» وجاء في رواية أخرى: «وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صدِّيقاً».

ودل هذا الحديث على أن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار.

والفجورُ في اللُّغة هو في أصله الميلُ والإنحراف عن الحق، وفيه معنى الإِقبال الشديد بتدفق إلى ارْتِكَابِ القبائح والمعاصِي والآثام. فالفاجر هو المائل المنحرف عن طريق الهداية. المنْبَعِثُ بتدفقٍ وَقِحٍ ذميمٍ إلى ارتكاب القبائح والمعاصي والآثام، ومن أجل ذلك يطلق الفجور على هذا الانبعاث المتدَفّق الوقح.

إذن، فالبرُّ والفجورُ ضِدَّان متقابلان، أما البِرُّ فَهُو

لفظ جامِعٌ يُرادُ به مختلف وجوه الخير وأنواع الطاعات الزائدة على فعل الواجبات وترك المحرمات، وأما الفجور فهو لفظ جامع أيضاً، يراد به الإنبعاث في مختلف أعمال الشر وأنواع المعاصي والآثام، والتدُّفق إلى ارتكاب ما لا يحلُّ للإِنسان ارتكابه من عمل.

ونتساءل: كيف يهدي الكذب إلى الفجور؟ وبالتأمل والتحليل نلاحظ ما يلي:

من كان الكذبُ خُلُقاً أَصيلًا فيه هَانَ عَلَيْهِ أنْ يُنْكِر الحقَّ ويدَّعي خلافه، فإذا عرف أن أركان الإِيمان حقٌّ بعد أن أقيمت له الأدلةَ البينة، لم يجد حرجاً في نفسه أن ينكرها، ويدَّعي خِلَافَها كَذِباً وُبهتَاناً، استجابةً لأهواء نفسه، وتلبية لشهواته. ولم يَجِدْ حَرَجاً في نفسه أيضاً أَنْ يُعْلِنَ أن معتقداتِه الباطلات التي يظهر له بطلانها هي معتقدات صحيحة مطابقة للحقيقة والواقع، وهو يعلم أنه يكذب على الحقيقة والواقع، ويُحَاوِلُ أنْ يُقْنِع الآخرين بأكاذيبه التي يفتريها على الحقيقة والواقع، كل هذا يفعله استجابة لأهواء نفسه، وتلبية لشهواتها.

ومعلوم أن الكفر بأركان الإِيمان من أفجر الفجور، وقد ساعد عليه وهدى إليه خلق الكذب، ولو أنه كان صادقاً ـ أي: كان خلق الصدق أصيلًا في نفسه ـ لم

يُطاوِعْهُ خُلُقه على جحود الحق الذي ظهر له، لكنه كان كذاباً فوجد في نفسه مفَرّاً من وجه الحق بافتراء الكذب.

والمنافق يستطيع أن يتظاهر بالإِسلام زوراً وكذباً، ليحميه النفاق من نِقْمَة المسلمين في الدنيا، أو ليظفر بمطامع مادِّيَّةٍ يُشَارِكُ فيها المسلمين الصادقين، وقد ساعده على ذلك خُلُق الكَذِب، إذْ جَعَلَهُ يركب في سلوكه أَفْجَرَ الفجور، وهو إلنفاق، ولما كان النفاق أفجر الفجور كان المنافق في الدَّرْكِ الأسفل من النار.

وللمنافق علامات ـ أساس معظمها الكذب ـ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا أؤتمن خان.

ولو كان الصدق خلقاً أصيلًا في نفسه لما طاوعه على ركوب هذه الموبقات المهلكات من قبائح السلوك.

ودل هذا الحديث أيضاً على أن خلق الكذب في حياة الإِنسان قابل للاكتساب، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإِرادة الجازمة، فقد جاء فيه: «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً» وتحرِّي ممارسة الكذب ظاهرة من ظواهر الإِرادة الجازمة.

وبتكرار ممارسة الكذب تكتسب العادة، ثم تتحول العادة إلى خلق راسخ، وعندئذ يكتب عند الله كذاباً، ومن غدا كذاباً هانت لديه معظم أعمال الفجور، فدفع به الكذب إلى النار.

٢ ـ وقال الله تعالى في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

وروى الإمام مالك في الموطأ، عن صفوان بن سليم، أنه قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلًا؟ قال: «نعم»، فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا».

فدلت الآية على حصر افتراء الكذب بالذين لا يؤمنون، أما الكذبات العارضات في حياة الإنسان، التي لا تكون افتراء مدَبَّراً مقصوداً، والتي لا تكون من خُلُقٍ أصيل ثابت، فربما تقع من المؤمن.

وكذلك دل الحديث على أن المؤمن لا يكون كَذَّاباً: أي: لا يصل إلى مستوى في تَحَرِّي الكَذِب يُدْمَغُ فِيه بأَنَّهُ كَذَّابٌ، خُلُقه الكذب، أما الكذبات العارِضات فليس في

الحديث ما يدل على أنها لا تكون من المؤمن، وذلك لأن «كَذَّاب» صيغة مبالغة تدل على تمكن خلق الكذب في نفسه.

فافتراء الكذب وافتعاله عن إصرار وتعمد إنما يفعله الكذَّابون الذين لا يؤمنون.

٣ ـ وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ قال:

«اضْمَنُوا لِي سِتّاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجنَّةَ: اصْدُقُوا إِذا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُم، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ».

فجعل الرسول ﷺ في هذا الحديث الصدق أحد عناصر ست من تحلى بها دخل الجنة، وفي هذا ترغيب عظيم بالتحلي بخلق الصدق.

٤ ـ وروى الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيلًا مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِه».

وقد دل هذا الحديث على أن رذيلة الكذب لها

رائحة منتنة يشمها الملك المرافق للإنسان، وهذا من خبايا الكون وأسراره، فالأعمال لها روائح، ولها وزن، ولها صور، ولها صفات كثيرة يُدْرِكُها مَنْ لديه أجهزة إدراكها، وما أوتينا من العلم ومن وسائله إلا قليلًا.

٥ ـ وقد يكون الكَذِبُ خيانةً كبيرة، وذلك حينما تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت به كاذب.

روى أبو داود عن سُفْيَانَ بْنِ أَسَدِ الحضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كَبُرَتْ خِيانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثاً هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ بِهِ كَاذِبٌ».

وقد جعله الرسول ﷺ من قبيل الخيانة، لأن سامعه استأمنه على فكره ومواطن المعرفة عنده، ليجعل فيها الصدق لا ليجعل فيها الكذب، فاستغل هو هذا الاستسلام والاستئمان، فأخبره بالأكاذيب زاعماً له أَنَّها صِدْق، فكان عمله هذا خيانة كبيرة.

٦ ـ ومن الكذب أن يحدث الإِنسان بكلِ ما يسمع من أحاديث وأخبار دون تحرير لها ولا تنقيح، لأنه بتهاونه وإهماله وعَدَمِ تحرِّيه الصادقَ من الأخبار يساهم

في نشر الأكاذيب وإشاعتها؛ روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال:

«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَن يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

الكذب على الله والرسول:

ومن أشنع صور الكذب الكذبُ عَلَىٰ الله، أو الكذب على الرسول، لأنه افتراء في الدين، وتلاعُبٌ بشرائع الله لعباده، وتجرُّؤ عظيم على النار.

ولذلك كان من صفات النبيِّ الْأَساسِيَّة صِفَةُ الصِّدْقِ في تَبْليغ ما أمره الله بتبليغه، ولما طالب الكافرون رسول الله بتغيير بعض ما أنزل عليه إلى ما يوافق أهواءهم، أنزل الله عليه قوله في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: لأَهْلَكْناه إهلاكاً سريعاً لو أَنَّه كذب علينا ولو في بعض الأقاويل، وذلك لخطورة أمر الكذب على الله من رسول مُؤَيَّدٍ من عند الله بالمعجزات.

ومنطق التأييد بالمعجزة يَقْضِي بعصمة الرسول عن الكذب فيما يُبَلِّغ عن ربه.

وافتراء الكذب على الله ولو من آحاد النَّاس هُوَ مِنْ أَظْلَمِ الظلم، قال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾.

وفي معرض إنكار تحريم ما لم يحرّمه الله قال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾.

وقال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩)﴾.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية.

ونظير الكذب على الله الكذب على الرسول، لأن أقوال الرسول حجّة في الدين، ومصدر من مصادر التشريع فيه، فالكذب عليه تلاعب في الدين وافتراءٌ على الله، ولذلك جاء في الحديث المتواتر أنّ الرسول ﷺ، قال:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

ومن يروي الأحاديث الموضوعة، وهو يَعْلَمُ أَنَّها مَوْضُوعَةٌ، ثم لا يُبَيِّن وضعها، ولا يذكر أنها مكذوبة على رسول الله ﷺ هو أحد الكاذبين، روى الإمام مسلم عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُو أَحَدُ الْكَاذِبَيْنِ».

وقد تفضل الله على هذه الأمة فقيض لها علماء مخلصين قاموا بأعمال علمية مضنية، حرّروا فيها ما نُسِبَ إلى رَسُول الله ﷺ من أحاديث، ومَيّزُوا ما هو صحيح النسبة إلى رسول الله، وما هو ضعيف النسبة، وما هو موضوع مكذوب عليه.

الكذب لإِضحاك الناس:

روى الإِمام أحمد والترمذي وأبو داود والدارمي، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَيْلٌ لِمَنْ يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِه الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ».

والحكمة من هذا المنع أنه يجرّ إلى وضع أكاذيب ملفقة على أشخاصٍ معينين، يؤذيهم الحديث عنهم، كما أنه يعطي ملكة التَّدَرُّبِ على اصطناع الكذب وإشاعته، فيختلط في المجتمع الحقُّ بالباطلِ والباطلُ بالحقِّ.

وحين تدعو الحاجة إلى وضع أمثلة متخيلة غير واقعة، للعظة أو للترويح عن النفس، أو وضع طرائف ونوادر فيها تسلية أو موعظة، فالذي يظهر لي أنّ الشرط في جوازها أن لا تتناول أشخاصاً معينين، وأن يذكر واضعها ما يشعر بأنها موضوعة مصنوعة، أو يكون مضمونها واضح الوضع والصناعة، كالقصص التي يضعها واضعوها على ألسنة الحيوانات، نظير ما صنع صاحب كتاب «كليلة ودمنة».

فهذا ونحوه لَا أَرَىٰ مانِعاً منه ما دام الغرضُ منه

غرضاً مباحاً، مأذوناً به في حكم الشريعة الإِسلامية، وهو مما لم يُقَابَلُ بالإِنكار من قبل جمهور علماء المسلمين، إذ هو يُحكى على سبيل الافتراض المتخيل، لا على سبيل أنه أمر واقع فعلًا.

ونستطيع أن نقيس عليه التمثيليات، والقصص المصنوعة، المبيّن فيها أنها قصص متخيّلة غير واقعة.

الحالات التي يجوز فيها الكذب:

الأصل في الكذب عدم الجواز، للأسباب التي تمّ بيانها فيما سبق، ولكن توجد حالات يجوز فيها الكذب، تحقيقاً لمصلحة هي أعظم ممّا في الكذب من مضَرَّة، أو دفعاً لضَررٍ هو أشد مما في الكذب من ضرر.

١ ـ فمن الحالات التي يجوز فيها الكذب، الكذب على العدو في حالة حربه للمسلمين، لتضليله، ولإِيقاعه في فخّ من فخاخ الخداع الحربي. ولكن لا يدخل في هذا جواز الكذب عليه بتأمينه أو معاهدته ثم الغدر به، فهذا غير جائز قطعاً، لأن التأمين أو المعاهدة كلٌّ منهما يُنْهي حالة الحرب القائمة، فيلقي كلٌّ من الفريقين حذره الحربي، ويستَسْلِم كلٌّ مِنْهما إلى صِدْق الكلمة، وعندئذٍ يرجع الكذب إلى أصل حُكْمِه، ويكون استخدامه في الكلام محرماً، ولو كان مع العدو.

فمن أمثلة الكذب الجائز على العدو، ما لو وقع مسلم في أسْره، فسأله عن مواقع المسلمين الحربية، أو عن عدد المسلمين، أو عن أسلحتهم وأعتدتهم، فمن واجب المسلم والحالة هذه أن لا يُعْطِيَ العدو فرصة معرفة ما يمكِّنه من النكاية بالمسلمين وكَيْدِهم، بل يكتم عنه الْحقيقة، ويعطيه أكاذيب تضلّله وتمكن المسلمين منه، والحرج من الكذب في مثل هذه المواقف سذاجة وغفلة وعدم فهم في الدين.

ولكن إن استطاع أن يتخلص من الموقف المحْرِج عن طريق التورية، والمواربة في القول، دون اللُّجوء إلى الكذب الصريح كان خيراً له، إلا أن تكون المصلحة الحربيَّة للمسلمين لا تتحقق إلا بالكذب الصريح فهو الذي ينبغي اللّجوء إليه، نظراً إلى المصلحة التي تترتب عليه، وعدم وجود وسيلة أخرى تقوم مقامه من الوسائل الّتي هي في الأصل مباحة.

ومعلوم أن الحرب خُدْعَة، وكما جاز القتال في الحرب ـ وهو في الأصل محرّم ـ لأن الضرورة دعت إليه جاز الكذب على العدو في حالة الحرب، وهو في أكثر أحواله أخفّ من القتال. ويؤكد هذه الحقيقة أن كلًّا من الفريقين المتحاربين يضع في حسابه عدم الثقة بأقوال

خَصْمِه، ويضع في حسابه أن عدوه لا يترك سبيلًا لمخادعته إلا سلكها، وسلاح الخداع بالأقوال أو بالأفعال أحد أسلحة الحرب الفتّاكة، يغْلَمُها الخبراء بفنون الحرب، ومن أقوال الرسول التي شاعت ضمن الأمثال السائرة قوله: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».

٢ ـ ومن الحالات التي يجوز فيها الكذب، أن يتوسط إنسان للإِصلاح بين فريقين متخاصمين، ثمّ لا يجد وسيلة للإِصلاح بينهما أَنْجَع من أن يركب مركب الكذب على مقدار الضرورة، أما إذا تسنّى له أَنْ يُوَرِّيَ بأقواله دون أن يكذب فهو خَيْرٌ له، وهو الأمر الذي يُحِبُّه الله ورسوله.

روى البخاري ومسلم عن أم كلثوم، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«لَيسَ الكَذّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خيْراً أَوْ يَقُولُ خَيْراً» أي: يُذِيعُ أقوالًا للإصلاح بين الناس، ولإِزالة ما بينهم من عداوات، وربما كانت هذه الأقوال غير صحيحة.

فهذه الحالة من الحالات التي رخص الإِسلام فيها بالكذب على مقدار الضرورة، ومهما أمكن الإِصلاح

بوسيلة غير وسيلة الكذب من الوسائل المباحة في الأصل فهي الوسيلة التي ينبغي اتّخاذُها.

٣ ـ ومن الحالات التي يجوز الكذب فيها حَدِيثُ الرجل لامرأته، وحديث المرأة لزوجها، في الأمور التي تشد أواصر الوفاق، والمودة بينهما، فهذه حالة يتسامح فيها بشيء من الكذب لتوثيق روابط الأسرة، ولإضفاء الأجواء الشاعرية على مجالس الأنس والسَّمَرِ والغَزَلِ بين الزوجين، ففي مثل هذه المجالس تَحْلُو المبالغات وإن كانت كاذبة، وتزداد معطيات المتعة والأنس والصفاء، وهذا ما يعمل الإسلام على تغذيته بين الزوجين.

روى مسلم وأحمد وأبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة قالت:

«لَمْ أَسْمَعِ النبيَّ ﷺ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِنَ الكَذِبِ ممَّا تَقُولُ النَّاسُ، إلاَّ فِي الْحَرْبِ، والإِصْلاَحِ بَيْنَ النَّاسِ، وحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا».

وروى الترمذي عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا يَحْمِلُكُمْ أَنْ تَتَابَعُوا عَلَىٰ الكَذِبِ كَتَتَابُعِ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ، الكَذِبُ كُلُّهُ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَرامٌ، إلاَّ فِي ثَلاَثِ خِصَالٍ: رَجُلٌ كَذَبَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا، ورَجُلٌ كَذَبَ فِي الحَرْبِ فَإِنَّ الحرْبَ خُدْعَةٌ، وَرَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا».

والكذبات الثلاثة التي كذبها إبراهيم عليه السلام هي من الكذب المباح اثنتان منهما في ذات الله، والثالثة فيها تورية للنجاة من جبّارٍ ظالم غاشم، أما الأولى فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وأما الثانية فقوله عن تكسير الأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وأما الثالثة فقوله للجبّار عن زوجته سارة: ﴿هي أختي﴾ وهو يعني أخته في الإِسلام، وليس في شيء من هذه الكذبات ما هو محرم.

ولا يدخل في الكذب المباح ما تكذب به المرأة على ضرتها، إذ تخبرها بأن زوجها اصطفاها بكذا، وأكرمها بكذا، وهو لم يفعل، بل هو كذب محرّم، روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرّة، فهل عَلَيَّ جُناح إنْ تشبّعتُ من زوجي غير الذي يعطيني[1]؟ فقال النبي ﷺ:

«الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

أي: كلابِسِ ثَوْبَيْ كذب، يكذب بهما على الناس، أحدهما فوق الآخر.

---

(١) أي: إن تظاهرت بأنه يعطيني أشياء وهو في واقع حاله لم يعطني إيّاها.

المقولة الخامسة

شهادة الزور

في حياة الناس نوع خطير من الكذب، شديد القبح، سيء الأثر، ألا وهو شهادة الزور.

إن الأصل في الشهادة أن تكون سنداً لجانب الحق، ومعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة الذين تنحرف بهم أهواؤهم وشهواتهم، فيظلمون أو يَبْغُون، أو يأكلون أموال الناس بالباطل، فإذا تحوَّلَتِ الشهادة عن وظيفتها، فكانت سنداً للباطل، ومضلّلة للقضاء، حتى يحكم بغير الحق، استناداً إلى ما تضمنته من إثبات، فإنها تَحْمِل حينئذٍ إثم جريمتين كُبْرَيَيْنِ في آن واحد.

الجريمة الأولى: عدم تأديتها وظيفتها الطبيعية الأولى.

الجريمة الثانية: قيامها بجريمة إيجابية، تُهْضَمُ فيها

الحقوق، ويظلم فيها البرآء، ويستعان بها على الإِثم والبغي والعدوان.

فهي في هذا كالقاضي الذي بيده سلطة القضاء ليحكم بالعدل، فيحكم بالجور والظلم والعدوان، اتِّبَاعاً للهوى، أو طمعاً بعرض من أعراض الحياة الدنيا.

وهي أيضاً كالمستأمن الذي يخون من استأمنه.

فالجريمة في كل ذلك بجريمتين، والظلم بظُلْمَيْن، ولكلٍّ من أصحاب هذه الجرائم كِفْلان من العقاب.

ولذلك قرن الله تبارك وتعالى التحذير من قول الزور بالتحذير من الشرك بالله، فقال تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف ١٠٣ نزول):

﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾.

- **الزور في اللغة**: الكذب والباطل، وأصل مادة الكلمة يدل على معنى الميل، والكذبُ والباطلُ مَيْلٌ عن الحق والصدق.

وقد وصف الله عباد الرحمن بأنهم لا يشهدون الزور، فقال تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»، قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» وكان متكئاً فجلس فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!

وروى أبو داود وابن ماجه، عن خُريم بن فاتك، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فَلمَّا انصرف ـ أي من صلاته ـ قام قائماً فقال:

«عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بالإِشْرَاكِ باللَّهِ» ثلاث مرات، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[1].

القذف بالباطل:

ومن أقبح الكذب اتهام البرآء بالفاحشة، وبما لم يرتكبوه من آثام، ففيه ظلم للناس، وعدوان على

(١) من الآيتين ٣٠ ـ ٣١ من سورة (الحج ٢٢).

أعراضهم، وإشاعة للفاحشة والإِثم، وتهوين لأمرهما، وتشجيع عليهما، وذلك لأن من في نفسه الرغبة بارتكاب الفاحشة والوقوع في الآثام، ولكن يحجُبُه ويكَفُّه خوف الفضيحة بين الناس، إذا سمع أقوال الناس بعضهم ببعض، واتهام بعضهم لبعض بمثل ذلك، هان عليه الأمر، وتجرأ على الإِثم، ورأى أنه هو والآخرون مِمَّنْ يحسُّنُ النَّاسُ الظن بهم سواء.

ولذلك وضع الإِسلام عقوبة القذف ثمانين جلدة لمن رمَىٰ المحصنات ثم لم يثبت أقواله بأربعة شهداء، قال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

واشتد القرآن عليهم باللَّعْن وتقرير العذاب العظيم، فقال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وأَلْـمَـحَ الْـقُـرآن إلَـىٰ أَنَّ مـن أغـراض اتِـهَّـام الـنَّـاس بالفاحشة الرغبة بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فقال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وأشد قبحاً من ذلك من يرمي غيره بما فعل هو من إثم وخطيئة، فهو ذو جريمة مزدوجة، إنه مرتكب الإثم ويريد أن يبرىء نفسه بإلقاء التهمة على غيره، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

البهتان: اتِّهام الرجل بما لم يفعل ومواجهته بذلك بطريقة يبهت فيها، محتاراً كيف يدفع الكذب الصُراح عن نفسه، إذ يأتيه الاتهام الزور بغتة، فيفاجأ به وهو منه بريء، فيبهت.

* * *

المقولة السادسة

الصدق في العهد
وفي الوعد والكذب فيهما

ويكون الصدق والكذب في الوعد والعهد، فمن الناس من يَعِدُون وهم يريدون أن يوفوا بما يَعِدُون به فهم صادقون في وعدهم، ومنهم من يعدون وهم لا يريدون أن يُوفوا بما يَعِدُون به فهم كاذبون في وَعْدِهِمْ. ومن الناس من يعاهدون وهم يريدون أن يُوفُوا بما يُعَاهِدُون عليه، فهم صادقون في عهودهم، ومنهم من يُعَاهِدُون وهم لا يُرِيُدون أن يوفوا بما يُعَاهِدُون عليه فهم في عهودهم كاذبون.

والصدق في الوعد وفي العهد من الفضائل الخلقية الَّتي يَتَحَلَّىٰ بها المؤمنون، والكذب في الوعد وفي العهد من الرذائل الخلقية التي يَجْتَنِبُها المؤمنون الصادقون الذين يعملون الصالحات.

ويشترك الوعد والعهد بأن كلًا منهما إخبار بأمرٍ جَزَم

المخبر بأن يفعله، ويفترقان بأن العهد يزيد على الوعد بالتوثيق الذي يقدمه صاحب العهد، من أيْمانٍ مؤكّدة.

والمواعدة مشاركة في الوعد بين فريقين، والمعاهدة مشاركة في العهد بين فريقين، فيعد كلٌّ من الفريقين المتواعدين صاحبه بما سيفعل، ويعاهد كلٌّ من الفريقين المتعاهدين صاحبه بما سيفعل.

قال أهل اللغة: والوعد غالباً يكون في الخير، فإذا كان الإِخبار في الشر فهو (الإِيعاد) وفعله (أوعد).

فمن وعد أو عاهد وكان ناوياً الوفاء بما وعد به أو عاهد عليه ثم لما جاء وقت الوفاء غير رأيه فلم يفِ، فإنه يسمى ناقضاً ناكثاً لوعده أو عهده مُخْلِفاً به، فإذا جاء وقت الوفاء فعجز عنه لسبب من الأسباب فهو معذور بإخلافه.

فليس كل مُخْلِفٍ كاذباً، وإنما المخلف الكاذب من كان عند وَعْدِه أو عهده غير عازمٍ على الوفاء، ونقضُ الْعَهْد وَنَقْضُ الْوَعْدِ رذيلة خلقية أساسها عدم تأدية الحق الذي يجب الالتزام به ما لم يكن عدم الوفاء خيراً منه، ففعل ما هو خير هو الأفضل في الإِسلام، وذلك لأن الإِسلام يحث دائماً على فعل ما هو خير؛ وقد جاء في

الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنّي واللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ فَأَرَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».

وبمثل ذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يفعلوا، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيُكَفِرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلْ».

أي: ولْيَفْعَل مَا هُو خَيْرٌ.

وبمثل ذلك أيضاً أمر الرسول ﷺ عبد الرحمن بن سُمْرَةَ فيما رواه البخاري ومسلم.

فالإِخلاف بالوعد أو بالعهد له أربع أحوال:

الحالة الأولى: التعبير العملي عند حلول أجل الوعد أو العهد عن الكذب في القول منذ إعطاء الوعد أو العهد، وهو في هذه يَحْمِلُ رَذِيلَة الإِخلاف المستند إلى رذيلة الكذب.

الحالة الثانية: النكث والنقض لما أَبْرَمَهُ والتزم به من

وعد أو عهد، وهذا يُعَبِّرُ عن ضَعْفِ الإِرادة وعدم الثبات، وعدم احترام شرف الكلمة وثِقَةِ الآخرين بها، وهذا الخُلقُ يُفْضِي بصاحبه إلى النبذ من ملاك جماعة الفضلاء الذِين يوثق بهم وبأقوالهم.

الحالة الثالثة: التحوُّلُ إلى ما هو أفضل وخير عند الله، والانتقال إلى ما هو أكثر طاعة لله، إلا أن هذه الحالة لا تكون في العهود العامة، التي تدخل فيها حقوق دولية، ولا في العهود التي ترتبط بها حقوق مادِّيَّةٌ للآخرين من الناس.

أمّا العهد مع الله في التزام أمرٍ من الأمور، فقد تجري المفاضلة بينه وبين غيره، لاختيار ما هو أقرب إلى طاعة الله وتحقيق مرضاته.

الحالة الرابعة: العجز عن الوفاء لسبب من الأسباب، ومن عجز عن الوفاء مع صدق رغبته به وحرصه عليه فهو معذور، لعدم استطاعته.

وأما حالة النسيان فهي من الأمور العامة التي تشمل كل واجب أو مستحب، وتنطبق عليها أحكام النسيان العامة.

وصادِقُ الْوَعْدِ والْعَهْدِ هو الذي يكون عازماً على

الوفاء منذ إعطائه الوعد أو العهد، ويظل حريصاً على ذلك ما لم يمنعه مانع من التنفيذ يُعْذَرُ به، أو كان ترك الوفاء استجابة لرغبة من كان الوعد أو العهد من أجله وابتغاء مرضاته أو مسرته.

* * *

المقولة السابعة

العدل

العدل هو أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وأحْكَامُ الْعَدْلِ وتطبيقاتُه إنما هي تنفيذ لما يقتضيه الحق.

ولدى التأمل الدقيق يتبين لنا أن معظم العلاقات المادية وغير المادية بين الناس لها من الحقِّ أصول ثابتة، وحين يتم التقيُّد بما في هذه الأصول من حق بالعمل أو القول أو الحكم أو وضع القوانين والنظم فذلك هو العدل، إذ بهذا يتساوى الحق والتطبيق العملي، أو يتساوى الحق والقول المبين له، أو يتساوى الحق والحكم المقرَّرُ له، أو يتساوى الحق والقانون أو النظام المحدَّدُ له.

تعريف العدل:

وعلى هذا نستطيع أن نعرف العدل: بأنه إعطاء كل ذي حق ما يعادل حقه ويساويه دون زيادة ولا نقصان.

ويمكن أن نعرفه: بأنه المساواة بين التصرف وبين ما يقتضيه الحق دون زيادة ولا نقصان.

ومن أجل ذلك كان الميزان رمزاً لِإقَامَةِ العدل.

وقد لا يقتصر الميزان ـ الذي هو رمز لإِقامة العدل ـ على كفتين متقابلتين لوزن الشيء الواحد، بل ربما يكون ميزاناً ذا كفتين أو أكثر من كل جهة من شطري الدائرة الأفقية، وكل كفة في جهة مقادير الحق تقابلها كفة في جهة التقويم بالعدل، ولا تستقيم إشارة العدل ما لم تعادل كل كفة شقيقتها المقابلة لها في الميزان.

ومن عجيب أمر ميزان العدل أن للحق فيه موجباً وسالباً، أما موجب الحق فهو ثقل يرجح الكفة التي يوضع فيها، ولا يتحقق العدل إلا بوضع ثقلٍ معادلٍ له في الكفة المقابلة لها. وأما سالب الحق فهو قوة تطيش بالكفة إلى جهة العلو جاذبةً لها، وبذلك تنخفض الكفة المقابلة لها، ولا يتحقق العدل في هذه الحالة إلا بوضع قوة في الكفة المقابلة من شأنها أن تجذبها إلى ارتفاع حتى تتعادل الكفتان، وتستقيم في الميزان إشارة العدل.

فهو ميزان يزن الموجب والسالب، أي: يزن الواجب والحرام، يزن ما هو حق ويزن ما ليس بحق، وتعمل فيه الحركتان الموجبة والسالبة.

ولما كان العدل مرتبطاً بالحق كان لا بد لنا من ملاحظة أن حقوقاً مُتَعدِّدَة الجهات قد تتوارد على شيء واحد، وأن لكل جهة منها مقداراً من الحق ذا نسبة خاصة من المجموع الكلي.

ونحاول ضرب مثل موضح للفكرة ومقرّب للحقيقة، بأن نقول:

إن المال الذي يكتسبه الفرد تتوارد عليه عدة حقوق.

الحق الأول: حق الشخص الذي اكتسبه.

الحق الثاني: حق أصحاب النفقة الواجبة فيه، كزوجة مكتسب المال، وأولاده الصغار، وأصوله وفروعه الفقراء.

الحق الثالث: حق الجماعة والمرافق العامة فيه.

الحق الرابع: حق الفقراء والمساكين ومن يلحق بهم.

وقد تم تحديد هذه الحقوق المختلفة من قبل صاحب الحق كُلِّهِ في كُلِّ شيء في الوجود، وهو الله تبارك وتعالى.

فإذا وضعنا ثقل كل حق من هذه الحقوق الأربعة في

كفة من كفات ميزان العدل، فسنجد أربع كفات قد رجحت، وكان رجحان كل كفة منها بمقدار ثقل الحق الذي وضع فيها، وهٰذه الكفات الأربع قد قابلها أربع كفات طائشات، إذ تتطلب كل واحدة منها عطاء في النظام معادلًا لمقدار ثقل الحق المقابل لها.

وإذْ قد وصلنا إلى هذه المرحلة فإن علينا أن ننظر في نظام الإِسلام المتعلق بهذا الموضوع.

وهنا يبدو لنا أن الإِسلام قد أعطى كاسب المال من الطرق المشروعة حق التملك، ولكنه تملك يُلزم معه بدفع سائر الحقوق المتعلقة بهذا المال، فيده عليه يدُ مستأمن ذي ولاية، فإذا خان الأمانة أخذت منه الحقوق بالقوة، من قبل ذي الولاية الأعلى، وكان عُرضة للعقاب.

وأعطى الإِسلام من تجب لهم النفقة حقهم من النفقة بالعدل، ووضع المادة التي تمنحهم هذا الحق في الكفة المقابلة لشقيقتها التي وضع فيها ثقل حقهم.

وأعطى الجماعة من المال حصة المرافق العامة، وذلك بالعدل الذي لا إجحاف فيه على حق كاسب المال.

وأعطى الفقراء والمساكين ومن يلحق بهم من المال حصتهم بالعدل أيضاً.

وهكذا بالتوزيع العادل تعادلت الكفات المتراجِحَات في طرفي الميزان، وبتعادلها جميعاً استقامت إشارة العدل العامة.

شبهة المساواة العامة في مفهوم العدل:

يمكر بعض الماكرين، ويتسرع بعض المنخدعين، فينادون بالمساواة العامة بين الناس جميعاً في كل أمور الحياة، وَيَرَوْنَ أن ذلك من العدل.

وهذا خطأ فادح، يؤدي إلى تحقيق أنواع وصور شنيعة من الظلم، تحت شعار العدل، وذلك لأن حقوق الناس في الأصل غير متساوية، فكيف تكون المساواة بينهم من العدل، مع تفاوتهم في الحقوق.

كيف يكون من العدل مساواة الناقص للكامل؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المحسن والمسيء؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المسلم والمجرم؟ كيف يكون من العدل التسوية بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

إن التسوية بين هذه الأمور المتفاوتة في أصلها

مجانبة للعدل، وظلم للحق لا ترتضيه العقول.

إن خديعة المساواة يلزم منها أن يعطي المدرس طلابه تقديراً متساوياً، مهما كان وضع كلٍّ منهم، وعندئذٍ ينال المقصر الكسول مثل الدرجة التي ينالها السابق المجد، وهذا ظلم لحق العلم، وظلم لحق السابق المجد.

ـــ إن ميزان العدل يزن قيم الأشياء وقيم الأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فمتىٰ تساوت كفتا الميزان استقامت إشارة العدل، والذي يريد أن يسوي بين الأمور رغم اختلاف قيمتها الذاتية، مثله كمثل من يسوي في القيمة بين الذهب والحجر، على أساس تكافئهما في الثقل المادي، فيضع ذهباً بإحدى كفتي الميزان، ويضع في الكفة الأخرى مثل ثقله حجراً عادياً.

ـــ إنَّ العدل عمل شديد الدقة، يحتاج إلى بصر نافذ، ومهارة فائقة، وخبرة بالأشياء والأعمال، ومعرفة بقيمها الذاتية، وإلا اختل ميزان العدل وجار، وجنح صاحبه إلى ظلم كبير شنيع.

وقد يكون من السَّهْلِ معرفة العدل بين خصمين، لأحدهما ديْن على الآخر، والمدين غير منكر، فيحكم

القاضي بالعدل حين يكلف المدين أن يؤدي ما عليه لدائنه، ومن السَّهْل أيضاً أن نعرف بوجه عام أن من العدل إعطاء كلٍّ ذي حق حقه أو ما يعادل حقه ويساويه، ولكن تَتَعقَّد المشكلة حين تعرض الحوادث والقضايا، وتخفى جوانب كثيرة منها، ويكون على القاضي فيها أن يحكم بالعدل.

وكثيراً ما يَصْعُب على واضعي الأنظمة والقوانين استبانة وجه العدل في الأمور التي يُرِيدُون أن يضعوا لها أنظمة وقوانين، وكم يضعون أحكاماً عامة ثم يلاحظون لدى التطبيق أنها أحكام جائرة ظالمة، وأن العدل يقضي بتعديلها.

ولا بد أن نلاحظ في هذه المقام، أن الشريعة الإِسلامية قد وضعت لنا في أحكامها المقاييس والصنجات، التي نقيس بها ونزن قيم الأشياء والأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فإذا قسنا أو وزنا بها وزناً صحيحاً عرفنا بتوفيق الله وتسديده وَجْهَ العدل، ومن أجل ذلك ذخرت الشريعة الإِسلامية بأحكام العدل التفصيلية حتى نحسن القياس والوزن.

ومن أجل ذلك أيضاً نبهت نصوص الشريعة الإِسلامية على ارتباط ميزان العدل بمقاييس الحق، فمنها

قول الله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

فمن هذا النص نلاحظ أن ميزان العدل مرتبط ارتباطاً أساسياً بمقاييس الحق وموازينه، وعلى مقاييس الحق وموازينه تتم عملية الوزن الصحيح الذي يظهر فيه وجه العدل.

ومثل الشريعة الإسلامية في هذا شرائع الله السابقة التي أنزلها عل رسله، قال الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فَرُسُلُ الله جميعاً جاؤوا بالبينات، وأنزل الله معهم الكتاب للهداية، وأنزل معهم ميزان العدل، ليقوم الناس بالقسط.

ولما كانت الهداية وإقامة العدل بحاجة إلى قوة مادية

تكبح عدوان أعدائهما ذكر الله الحديد، وأعطاه صفةَ أنه مُنَزَّلٌ من لدنه، لأن الحديد هو أداة القوة المادية وسلاحها المؤدب والمحارب، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

وامتن الله بأن في الحديد منافع أخرى للناس، إضافة إلى منافعه في إقامة العدل بين الناس، وفي الجهاد في سبيل الله لهداية الخلق إلى الحق.

وهكذا دَلَّنا هذا النص على أن الشرائع الربانية كلها قد جاء فيها التوجيه لاستخدام القوة المادية، لإقامة العدل، والجهاد في سبيل الله، بغية ردع الظالمين الآثمين المعتدين، الذين يظلمون الناس ويقاومون الحق، ويحمون أنفسهم بسلطان القوة المادية.

العدل من صفات محبي الحق ومن صفات المؤمنين:

ولما كان العدل أحد فروع خلق حب الحق وإيثاره، وأثراً تطبيقيّاً من آثاره، كان لا بد أن نجد الذين يحبون الحق ويؤثرونه قوماً مُتَّصِفين بخلق العدل، ولذلك نرى أهل الإيمان الصادقين أهل عدل، إذ جعلهم حبهم للحق يؤمنون به؛ فإيمانُهم به يدفعهم إلى إقامة العدل، والحكم

بالعدل، والشهادة بالعدل، ومعاملة الناس بالعدل، والقول بالعدل، والكتابة بالعدل، إلى غير ذلك مما يدخل فيه العدل والجور.

ولذلك لما أمر الله بالعدل وبالقسط خاطب بأمره الذين آمنوا، إشعاراً بأن العدل من لوازم الإِيمان، وبهذا نستطيع أن نفهم التشابك المنطقي بين حُبِّ الحق وإيثاره والإِيمان وظاهرة العدل.

وحينما يتحول العدل من كونه أثراً من آثار حُبِّ الحق، أو ثمرة من ثمرات الإِيمان، إلى كونه ظاهرة عملية متكررة في سلوك الفرد، كلما اقتضى الحق والإِيمان العمل بالعدل، فإنه يكون حينئذ خلقاً من أخلاقه المتمكنة فيه، وذلك بسبب تكرر التدرب العملي عليه، وعدم الاستجابة لنوازع النفس وشهواتها، وأهوائها، ونوازغ شياطين الإِنس والجن.

أمّا أمر الله الذين آمنوا بالعدل وبالقسط فنجده في نصوص قرآنية متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ

فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

شنآن قوم: بغض قوم. **القسط**: هو العدل.

ومن الملاحظ تنوع التعبير في هذين النصين، ففي آية النساء، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ وفي آية المائدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

وأرى أن السر في ذلك هو إرادة الدلالة على أن كلًّا من القوامة والشهادة يجب أن يكون بالعدل ويجب أن يكون لله، أي: مُبْتَغىً به وجه الله تعالى، فكانت الدلالة على ذلك عن طريق التنويع في التعبير على هذا الشكل من ألطف الدلالات وأعذبها بياناً.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أمرٌ للمؤمنين بأن يكون العدل خلقاً من

أخلاقهم، وذلك لأن صيغة (قوَّام) هي صيغة مبالغة لقائم، فإذا قلنا: فلانٌ قوَّام بالعدل، دل هذا القول على أن القيام بالعدل من الأخلاق المتمكنة فيه، فكلما اقتضاه الحق والواجب أن يعمل بالعدل فإنه يعمل بالعدل، فيكون القيام بالعدل من سجاياه، وحين نرى إنساناً يعمل بالعدل في كل الأحوال التي يستدعي الحق والواجب العمل فيها بالعدل فإننا نقول دون تردُّد: إن العدل خلقٌ من أخلاقه.

إذن فالله تبارك وتعالى يأمر الذين آمنوا بأن يكون العدل خلقاً ثابتاً من أخلاقهم.

العدل من الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية:

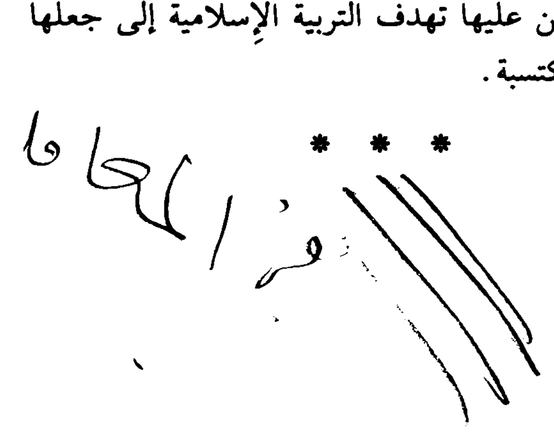
حين نبحث عن الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية يتبين لنا أن العدل أَحَدُ هذه الأسس، ولا سيما ما يتعلق من أحكام الشرائع بتنظيم علاقات الناس المادية والأدبية والسياسية، لضمان حقوقهم، ومصالحهم، فمستند هذه الأحكام مما تدعو إليه وتقتضيه مكارم الأخلاق.

وفي النص الكليّ الجامع يقول الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

ومن هذا يظهر لنا، أن الشريعة الإِسلامية حين قررت أحكامها ونظمها المنظمة لعلاقات الناس المادية والأدبية والسياسية؛ راعت فيها أن مكارم الأخلاق توجبها أو تحسنها، وتحرم أضدادها، أو تقبحها، فهي نظم بوصفها أحكاماً منظمة، وهي عند تطبيق الأفراد قد تكون أيضاً ظواهر سلوكية لأخلاق كريمة متمكنة في نفوسهم، وعند تدريب المؤمنين عليها تهدف التربية الإِسلامية إلى جعلها فيهم أخلاقاً مكتسبة.

* * *



المقولة الثامنة

الأمانة

تعريف بالأمانة:

الأمانة أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وهي ضد الخيانة.

والأمانة في جانبها النفسي خلق ثابت في النفس يعف به الإِنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له ظُروفُ العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإِدانة عند الناس، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أَنْ يَهْضِمَهُ دون أن يكُونَ عُرْضَةً للإِدانة عند الناس.

فمن تهيأ له أَنْ يَهْضِمَ دَيْناً عَلَيْه دون أن يكون لدى الدائن ما يثبت به حقَّه، فعفّ عن ذلك ولم يفعل وأدى ما عليه من حقٍّ كاملًا غير منقوص فهو أمين حقّاً.

ومن تهيأت له فرصَةُ اختلاس أموال غيره دون أن يشعر به أحد من الناس، ودون أن يكون عرضة لاكتشاف

لصوصيته، فعفَّ عن ذلك ولم يفعل، فإنما ذلك أثر من آثار الأمانة في نفسه.

ومن كان يؤدي الودائع التي عنده لأصْحَابِهِا، مع أن أصحابها لا يملكون وثائق بها عليه، فهو أيضاً إنما يفعل ذلك بدافع خلق الأمانة الّذي يتحلى به.

ولا تقتصر الأمانة على العفّةِ عن الأموال، بل العفَّة عن كل ما ليس للإِنسان به حقٌّ هي أيضاً داخلةٌ في حدود الأمانة، أو أثر من آثارها.

فالعفة عن العدوان على الأعراض من الأمانة، والعفة عن العدوان على الحقُوقِ العلمية من الأمانة، والعفة عن الغش وتطفيف الكيل والميزان من الأمانة، والعفَّة عن الغلول(١) من الأمانة، وتبليغ الرسائل الكتابية أو اللفظية إلى أصحابها من الأمانة، وتأدية حق النصيحة لكل مسلم من الأمانة، وتأدية حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمانة. وتأدية العبد حق ربه عليه من الأمانة، كالعبادات المفروضة والطاعة الواجبة، وكف العبد نفسه عما حرم الله عليه من الأمانة، لأن العبد المكلَّفَ مستأمن على ما وضع الله بين يديه وما وضع تحت سلطته من

---

(١) الغلول: هو العدوان على الأموال العامة للمسلمين.

أشياء، سواء أكانت داخلة في حدود ذاته أم خارجة عنها، فالحق في كل ذلك هو لله وقد استأمن الله عباده عليها، فأذن لهم بأشياء وحرم عليهم أشياء، فمن تجاوز حدود الإِذن الإِلهي فاعتَدَىٰ على ما ليس به حق فقد خان الأمانة، فالطاعة لله من الأمانة، والمعصية لله من الخيانة.

ومن الأمانة إعطاء كل ذي حق حقه، فالعدل من الأمانة، والجور والظلم من الخيانة. ومن الأمانة الاهتمام بأن يحفظ المستأمنون ما تحت أيديهم من حقوق لغيرهم، حتى يؤدوها إلى أصحابها وهي على حالتها حينما استؤمنوا عليها، ما لم يكن مرور الزمن يغير منها بصفة طبيعية معلومة.

وهكذا تتعدد مجالات خلق الأمانة وتتسع دوائرها.

ولمّا كانت الأمانة مرتبطة بمبدأ الحق كان من يحب الحق ويؤثره يجد نفسه مدفوعاً لأن يكون أميناً على حقوق الآخرين، وإن تحركت مطامِعُهُ أو شهواته للاستيلاء عليها.

والأمانة مصدر كالأمان، والأمان من الأمن وهو ضد الخوف، وحين تنعدم مسببات الخوف يحصل الأمان في

النفوس. ولمّا كان الأمين إنساناً مأمون الجانب لا يُخشى عدوانه على حقوق غيره كانت ساحته ساحة أمان، ليس فيها أي مثير للخوف على المال، أو على العرض، أو على الحياة، ولذلك سميت الخصلة التي يتحلى بها الأمين على حقوق الآخرين أمانة، ولمّا كانت هذه الخصلة داخلة في ميدان الأخلاق كانت إحدى الفروع الأخلاقية، ولمّا كان أساسها الحق كانت إحدى الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره.

وقد ظهر لنا من تعريف الأمانة أنها تشتمل على ثلاثة عناصر:

الأول: عفة الأمين عمّا ليس له به حق.

الثاني: تأدية الأمين ما يجب عليه من حقٍّ لغيره.

الثالث: اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق غيره، وعدم التفريط بها والتهاون بشأنها.

موقف الإِسلام من خلق الأمانة:

لقد فرض الإِسلام على المسلمين الأخذ بخلق الأمانة، وحرَّمَ عليهم أن يسلكوا مسلك الخيانة، فمن كان أميناً كان مطيعاً لربِّه في إسلامه، ومن كان خائناً كان عاصياً لربِّه في إسلامه، وربما وصل إلى حالة كان فيها مجروح الإِسلام والإِيمان.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«واللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه».

«بوائقه» أي: غوائِلَه وخياناته.

وروى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مِنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ دِمَائِهِمْ وأَمْوالِهِمْ».

وروى البيهقي في شعب الإِيمان بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قلّما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال:

«لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».

فربط رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الأمانة وكون الإِنسان مأمون الجانب بالإِيمان، وجعل عدم الأمانة مُؤَثِّرَةً فِي صحة الإِيمان.

وجعل الرسول صلوات الله عليه الخيانة من علامات النفاق فمن ذلك ما روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

وما روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَر».

فالأمانة من صفات المؤمنين، وهي من صفات محبي الحق.

الأمانة من أبرز أخلاق الرُّسُل:

من الملاحظ في أسس العقيدة أن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنها شرط أساسي لاصطفائهم بالرسالة، فلولا أن يكونوا أمناء لَمَا استأمنهم الله على رسالاته لخلقه.

ففي شأن هود عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

فعرض هود لقومه من صفاته أنه أمين، وهذه الصفة من صفاته لا بد أن تكون معروفة لديهم قبل أن يبعثه الله رسولًا، ومن شأن الأمين أن يكون موثوقاً به في نقل الأخبار وتبليغ الرسالات.

ويقص الله علينا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في سورة (الشعراء) ويخبرنا بأن كل رسولٍ من هؤلاء قد قال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

ورسولنا محمد ﷺ قد كان في قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنه الأمين، فكان خلق الأمانة من الأخلاق الظاهرة البارزة فيه صلوات الله عليه، حتى كان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر صلوات الله عليه وكَّلَ علي بن أبي طالب برد الودائع إلى أصحابها.

وجبريل عليه السلام أمين الوحي، وقد وصفه الله بذلك في قوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

ولولا صفة الأمانة فيه لما حصلت الثقة بما يبلغ عن الله من شرائع، ولما اصطفاه الله لحمل رسالاته إلى رُسُلِه من البشر.

وكذلك حال الرسل من البشر، لولا صفة الأمانة فيهم لما حصلت الثقة بما يبلغون عن رَبِّهِمْ، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس.

* * *

المقولة التاسعة

الخيانة

من خلال تصورنا للأمانة بأنواعها نستطيع أن نعرف الخيانة بأنواعها، وذلك لأنّ الخيانة هي ضدّ الأمانة.

أ ـ فإذا نظرنا إلى الأمانة الكبرى التي علّقها الله بالإنسان، وهي الأمانة على ما جعل تحت سلطة إرادته من قوى وطاقات، وطلب منه مراعاة حقوقها التي جعلها الله لها، استطعنا أن ندرك أنّ أيّ إخلال بحقوق ما استأمننا الله عليه هو خيانة، ولذلك نهى الله عن هذا النوع من الخيانة، كما نهى عن خيانة الأمانات كلها، وذلك في قوله تعالى في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد تضمنت هذه الآية النهي عن خيانة الله، وهي الإخلال بحقوق ما استأمننا عليه، وأعطيناه فيه عهد الأمانة منذ أعلّنا الإسلام والتزمنا به.

وتضمنت أيضاً النهي عن خيانة الرسول ﷺ، لأنّ حقوقه تابعة لحقوق الله، ومن حقوقه على المؤمنين برسالته اتِّباع شريعته، وعدم معصية ما أمر به أو نهى عنه.

وتضمنت أخيراً النهي عن خيانة الأمانات كلها، فتشمل ما يتعلق بحقوق كل ذي حق، نحن مستأمنون عليه، ولا بدّ أن نلاحظ أنّ خيانة حقوق خلق الله هي خيانة لهم، وخيانة لله تعالى أيضاً، وذلك لأن من حق الله علينا أن لا نخون أحداً من خلقه.

ثمّ إنّ حقوق الله على عباده ذات مراتب، فما كان منها في المرتبة الأولى التي يكفر الجاحد بها فإنّ خيانتها من أقبح أنواع الخيانات، أمّا الحقوق الأخرى التي تتضمن تكاليف عملية في فِعْلٍ أو تَرْكٍ، فهذه تتأرجح هي وخيانة حقوق الناس شدّة وضعفاً، وبعض كلٍّ منهما قد يكون أقبح من بعضٍ آخر. على أنّ حقوق الله الخالصة مشمولة بكرم الله وعفوه وغفرانه، أمّا حقوق الناس فمقرونة بشحهم وضيق نفوسهم، وعدل الله هو الذي يحميها، وبناء على ذلك يقول العلماء: حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق الناس مبنية على المشاحَّة، إلّا حق الإِيمان بالله فهو أعظم الحقوق كلها، ولذلك

أعلن الله من قواعد الجزاء التي يجازي بها عباده يوم الدين، أنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ب ـ ووصف الله اليهود إلّا قليلًا منهم بأنهم أهل خيانة، فقال تعالى لرسوله في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا . . . ﴿١٣﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن الخيانة من الصفات التي تبرز في اليهود بين حين وآخر، فالخيانة شأنهم وديدنهم، وطريقتهم في معاملة الناس.

فمن خياناتهم محاولتهم اغتيال الرسول وقد كان بينه وبينهم عهد أمان.

ومن خياناتهم تواطؤهم مع الأحزاب، وقد كان بينهم وبين الرسول عهد أمان.

ج ـ ولمّا كان أمر خيانة العهود والمواثيق أمراً خطيراً، أمر الله رسوله بأن يعلن للكافرين نبذ عهدهم، ويشعرهم بأن يستعدوا للمواجهة على صعيد سواء لا خيانة فيه ولا غَدْرَ، متى خاف الرسول من خيانتهم وغدرهم ومحاولتهم أن يأخذوا المسلمين على حين غرّة،

بينما هم في عهد أمان مشترك، فقال الله تعالى له في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول):

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾.

فالمسلمون يعلنون للكافرين إلغاء عهودهم وينبذونها إليهم متى رأوا أمارات الخيانة والغدر ظاهرة في تصرفاتهم، وذلك حتى لا يستغلّ عدوهم طيبتهم ووفاءهم فيأخذهم على حين غرّة. ولكن لا يجوز للمسلمين أن ينقضوا عهودهم دون سابق إعلام وإنذار، ثم عليهم بعد الإعلام أن يتركوا لعدوهم فرصة يتدبرون بها أمرهم، ويأخذون بها حذرهم واحتياطاتهم، هذا ما لم تكن البادرة من قبل عدوهم، فإن كانت بادرة النقض من قبل العدو فللمسلمين حينئذ أن يقابلوا النقض بالنقض دفاعاً عن أنفسهم.

د ـ ولكن ليس لنا إذا تخوّفنا من خيانة من دخل في الإسلام تعوّذاً من القتل أن نرفض إسلامه ولا نقبله منه، بل نقبل إسلامه، ونعامله معاملة المسلمين تماماً، ولكن لنا أن نضعه تحت المراقبة الخفية وربما كان هذا واجباً، يمكّن إهماله الأعداء من المكر وتدبير المكايد، فإن بدا

من تصرفاته ما يشعر بأنه يدبر خيانة عاقبناه على أساس أنه مسلم، وعلى قدر خيانته.

روى البخاري ومسلم عن المقداد بن عمرو، أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله ـ (وفي رواية): فلمّا أهويت لأقتله قال: لا إله إلّا الله ـ أأقتله بعد أن قالها؟ ـ قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ» فقال: يا رسول الله، إنه قطع إحدى يَدَيَّ، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ».

فقرّر الرسول في هذا أن من أسلم عصم دمه إلّا بحق الإِسلام، وأنه بإسلامه اكتسب كُلَّ حقوق المسلم، وأنّه ليس لمسلم أن يقاتله على اعتبار أنه كافر تظاهر بإعلان الإِسلام فِرَاراً من القتل، فمن قتله من المسلمين بعد أن سمع منه كلمة الشهادة فهو قاتل لمسلم، وهو يستحق النار بقتله ظلماً وعدواناً.

ويؤكد هذا ما رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى أناس من جهينة، فأتيتُ إلى رجل منهم فذهبت أطعنه، فقال: لا إلٰه

إلا الله، فطعَنْتُهُ فَقَتَلْتُهُ، فجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أَقَتَلْتَهُ وقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قلت: يا رسول الله إنما فعل ذلك تعوذاً (أي: لِيَحْمِيَ نفسه من القتل) قال: «فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ».

وفي رواية عند مسلم، أنّ رسول الله ﷺ قال: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيامَةِ؟» قاله مراراً.

ويُفْهم من هذا التأنيبُ الشديد.

* * *

المقولة العاشرة

بواعث جحود الحق والكفر به
مع ظهوره ووضوح أدلته

إذا لم يكن جحود الحق ناشئاً عن خطأ فكري صوَّر لدى الجاحد الحقَّ باطلًا والباطل حقاً، فإنّ جحود الحقّ عندئذٍ يرجع إلى انحراف خلقي في النفس.

وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على عدّة عناصر من عناصر الانحراف الخلقي، الدافعة إلى جحود الحقّ والكفر به مع ظهوره ووضوح أدلته.

فمنها ما يلي:

١ ـ الكبر والعجب بالنفس.

٢ ـ الرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها.

٣ ـ الحقد.

٤ ـ الحسد.

٥ ـ كراهية الداعي إلى الحق.

٦ ـ التقليد الأعمى والتعصب الذميم.

٧ ـ نوازغ نفسية أخرى كالغضب، والطمع، والخوف.

وسنعالج إن شاء الله فيما يلي شرح بعض هذه العوامل الدافعة إلى جحود الحق والكفر به.

١ ـ الكبر والعجب بالنَّفس:

الكبر والعجب بالنفس داء من أدواء النفس الخطيرة، التي تمثل انحرافاً خلقياً يجنح بالإِنسان عن سبيل الحق. والكبر والعجب بالنفس من أبرز وأخطر العوامل التي تدفع إلى الانحراف في المفاهيم الفكرية، وذلك لأنه متى نفخ الكبر والعجب بالنفس في أنف المستكبر المغرور، واستوليا على عقله وإرادته، ساقاه بعنفٍ شديدٍ وتمرد لئيم إلى غمط الحق وطمس معالمه، ثم إلى انتحال صور من الباطل يعمل على تزيينها وتحسينها بالأقوال المزخرفة، والحجج المزينة بالألوان والأصباغ، وهي في حقيقة حالها أشبه ما تكون بأخشاب المسارح ورسومها وستورها، مظاهر خادعة ولكن لا حقيقة لها.

* * *

تعريف الكبر:

يرجع الكبر في جذوره النفسية إلى الشعور المغرور بالاستعلاء الذاتي على الأقران والنظراء، وعلى المكانة التي يجد المستكبر نفسه فيها داخل مجتمعه، ويرجع إلى الرغبة بإشعار الآخرين بالامتياز عليهم، ولو لم يكن لهذا الامتياز وجود في الواقع فهو انتفاخ بغير حقّ، وتطاول بغير حقّ، وتعالٍ بغير حقّ، وتصغير للآخرين بغير حق، أو تصغير ما لَهُم بغير حق.

ويرجع أيضاً إلى الرغبة الجامحة في عدم الخضوع لأحد، ويقترن بهذه الرغبة الشعور الجاهل المغرور بالاستغناء الذاتي.

فله عدة أسباب نفسية تَنْبَعُ من منابع الأنانية المفرطة:

السبب الأول: الرغبة بعدم الخضوع لأحد، وتمتد هذه الرغبة في أقصى مداها إلى التمرد على طاعة الله الخالق الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وبيده الحياة والموت، والنفع والضر، وهو على كل شيء قدير. ومع هذه الرغبة الحمقاء يأتي الشعور النفسي الجاهل المغرور باستغناء المستكبر بذاته، ومتى عظم هذا الشعور واستولى على جوانب النفس تولد عنه في سلوك

المستكبر الطغيان ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ ولا ينمو هذا الشعور ويعظم إلاّ وفي العقل نقص، وفي الإِدراك قصور، وقد ينشأ ذلك عن حجب كثيفة من الرغبات النفسية الجامحة، تحجب البصيرة عن إدراك كثير من الحقائق التي تخالف هواها.

السبب الثاني: الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين، والرغبة المجنونة باحتلال المرتبة المتفوقة ولو بغير حقّ، ومع إرادة هذا العلوّ في الأرض ولو بغير حقّ يأتي الشعور الجاهل المغرور بالاستعلاء الذاتي. ومستكبر من هذا النوع يجد أنّ من حقه على المجتمع أن يمنحه هذا الامتياز والتفوق، وأن يعترف له به، وحين لا يعطيه المجتمع هذا الحقّ الذي رآه هو لنفسه يحقد عليه، ويبدو منه تصرفات عجيبة حمقاء تجاهه.

أو يأتي الشعور الجاهل المغرور بأنه يستطيع أن ينال ما يطمح إليه عن طريق الاستكبار.

إن مستكبراً من هذا النوع لا يريد أن يعرف أنّ طريق المجد صَعْبٌ، وأنه طريق صاعد لا يُرْتَقى إلّا بشق الأنفس، وبجهاد طويل، وكفاية فطرية.

إنّ مستكبراً من هذا النوع تُزَيِّنُ له نفسه أن يختصر

الطريق، فيستكبر انتفاخاً، بدل أن يكدح لنيل المجد بالتزوُّدِ بالصفات والخصائص الحقيقية، وبدل أن يرضى بنوع المجد ومقدار المجد الذي يمكن أن توصله إليه خصائصه الفطرية والكسبية.

إنّ مستكبراً من هذا النوع، لا يريد أن يعرف أنّ طلب الإِنسان لأمر ليس هو مؤهلًا له معاكسة لسنة الحياة، ولطبائع الأشياء، بل تُزَيِّنُ له نفسه أنّ الاستكبار من الطرق التي تمكنه من أن يعتلي مرتبة مجد ليس هو مؤهلًا لها في خصائصه الفطرية أو المكتسبة، فيكون مثله كمثل الهرّ الذي ينتفخ ليشعر خصمه بأنه أسد، أو كمثل الشاة التي تلبس جلد النمر، أو كمثل الزَّبَدِ الذي يربو على الماء ويتعالى مستكبراً منتفخاً، ثم يذهب جفاء مطروحاً لا قيمة له، ولا كيان له.

السبب الثالث: الرغبة في إخفاء ما يشعر به المستكبر من نقص في ذاته أو في مكتسباته النافعات، وهو حريص على أن يكون في أعين الناس كبيراً، وأن لا يكتشفوا نقصه.



المقولة الحادية عشرة

تحذير الإِسلام من الكبر والغرور بالنفس

تبيّن لنا أن الكبر من أقبح الانحرافات الخلقية وأَسْوَئِها، وأنه قد يدفع بصاحبه إلى جحود خالقه والاستكبار على طاعته، ولذلك شددّ الإِسلام في تحريمه والتحذير منه، وشدّد اللائمة على المستكبرين، وأوعدهم بالعقاب الشديد، كما رغب بالتواضع وحث عليه، ومجّد المتواضعين وأثنى عليهم، ووعدهم بالثواب الجزيل.

وفيما يلي طائفة من النصوص الإِسلامية في هذا المجال:

١ ـ روى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ والْمُتَفَيْهِقُونَ».

قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم، ويتصنعون القول تصنّعاً مع التعاظم به والتعالي على الناس، فيرجع إلى دافع الكبر.

ومن هذا الحديث نلاحظ أن أبغض المؤمنين إلى رسول الله وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة المتكبرون.

٢ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى:

«الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي والْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ».

فالعقوبة الأخروية المقررة لمن ينازع الله تبارك وتعالى في صفتيه الكبرياء والعظمة أَنْ يُقْذَفَ في النَّار.

٣ ـ وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال:

«وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

٤ ـ المتواضعون لله هينون لينون، وبذلك جاء وصف المؤمنين، روى الترمذي مرسلًا عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ، كَالْجَمَلِ الأَنُفِ، إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنْ أُنِيخَ عَلَىٰ صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ».

٥ ـ وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن رسول الله ﷺ قال:

«يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ أَمْثَالَ الذَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَىٰ سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّىٰ (بَوْلَسَ) تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ».

الأنيار: جمع النّار، ونار الأنيار: أي أشد لهب النار، وتصغير المتكبرين في عذاب يوم القيامة، وإذلالُهم من كل مكان، عقاب لهم من جنس عملهم.

٦ ـ وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّىٰ يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ».

أي: لا يزال يذهب بنفسه مستكبراً منتفخاً متعالياً على خلق الله، متعاظماً بنفسه، حتى يرى أنه فوق الناس في خصائصه الفكرية، أو في خصائصه الجسدية، أو في أعراقه وأمجاده، أو في أتباعه وأولاده، أو في أمواله

وأجناده، أو في مكانته في قومه، ويظلُّ يتعالى بنفسه حتى يطغى ويكون جبّاراً من الجبارين، وعندئذٍ يَقْصِمُهُ الله.

إن هذا الحديث يُصَوِّرُ حالة تدرج المستكبر في سلّم الاستكبار والانتفاخ، حتى يكون جباراً من الجبارين، وأنه في أول حاله قد لا يكون كذلك. وهذا ما يشاهد في بعض الناس حينما يملكون بعض القوى المادية، التي تمكنهم من بسط سلطانهم في الأرض، إنهم يبدؤون بداية صغرى، ثم يترقون في درجات الكبر درجة بعد درجة، حتى يبلغوا الدرجة القصوى، والسَّبَبُ في ذلك تزايد عامل الغرور بالنفس لديهم، حينما تُسَاعِدُهُمُ الظروف على التسلط، وينفخ في رؤوسهم المتملقون، والمنافقون، والمدَّاحُون.

٧ ـ وروى البخاري ومسلم عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وهب، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».

العتل: هو الجافي شديد الخصومة بالباطل.

الجوّاظ: الجموع المنوع، أو هو المختال المتكبر، أو هو الفاجر.

٨ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ».

عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ: أي: **فقير مستكبر**؛ وذلك لأن الفقير من شأنه أن يخفض الجناح، ولا يستكبر مع فقره إلاّ من ازداد لديه خلق الكبر زيادة جعلته منطمس البصيرة عن إدراك واقعه الذي يقتضي منه أن لا يكون مستكبراً.

٩ ـ وروى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَفْخر أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ».

١٠ ـ وأبان الله تبارك وتعالى أنه لا يؤمن بآيات الله عند تذكيره بها إلا الذين يخضعون لربهم ويسبحون بحمده وهم لا يستكبرون، فلا يمنعهم كبر في صدورهم عن الخضوع لله والتسبيح بحمده، قال الله تعالى في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فدلَّ بهذا على أن عامل الكبر أخطر العوامل الصارفة عن الإِيمان بالله وبآياته.

١١ ـ وأثنى الله على الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

١٢ ـ وروى مسلم عن سلمة بن عمرو بن الأكوع: أن رجلًا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قال: لا أستطيع. قال: «لَا اسْتَطَعْتَ» ما منعه إلّا الكبر، فما رفعها إلىٰ فيه.

فهذا الرجل الذي أمره الرسول ﷺ بأن يأكل بيده اليمنى فلم يفعل، واعتذر بأنه لا يستطيع، إنَّما منعه الكبر أن يطيع الرسول ﷺ فيما أمره به، لذلك قال له الرسول ﷺ: «لا استطعت» فكان جزاء كبره وكذبه بأنه صار عاجزاً فعلًا عن أن يرفع يده إلى فيه بعد ذلك.

ففي الحديث أمران:

الأول: استنكار الكبر الذي يمنع صاحبه من الطاعة، واستقباحه وتوجيه الذّم والعقوبة لصاحبه.

ومعلوم أن الْكِبْرَ من أقبح الأخلاق التي يقاومها الإِسلام، وينهى المسلمين عنها، وهو أخبث عنصر يقذف بصاحبه إلى درك الكفر والجحود والعصيان.

الثاني: استنكار الكذب واستقباحه، وقد دفع الرجل إلى الكذب إرادته تغطية كبره.

١٣ ـ وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ».

فدلّت هذه الأقوال النبوية على أن المستكبرين أبْعَدُ

النَّاس عن الجنة، وأن الكبر والكفر قرينان، إذ لا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر.

ولكن ليس المراد من الكبر ما يشمل رغبة الإِنسان بأن يكون مظهره أنيقاً ولباسه حسناً، بل المراد منه كما فسره الرسول ﷺ بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاس.

والكبر الذي يحرم المستكبر من دخول الجنة، هو الكبر عن الإِيمان بالله وبما جاء من عنده وبكل ما أمر بالإِيمان به، والكبر عن طاعة الله وكل من أمر الله بطاعته. أما كبر الناس على الناس دون أن يؤثر ذلك على قضيتي الإِيمان والطاعة لله فهو من المعاصي الكبرى، ومن الكبائر، إلا أنه لا يخرج من دائرة الإِيمان والإِسلام إلى دائرة الكفر والحرمان من دخول الجنة.

١٤ ـ وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:

«احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ والنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُون والْمُتَكَبِّرُونَ، وقالت الجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، فَقَضَىٰ اللَّهُ بَيْنَهُما: إنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا».

١٥ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُو يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

يَتَجَلْجَلُ: يَغُوصُ وينزل.

فدلت النصوص على أن الكبر داء يجر إلى أوخم العواقب.

* * *

فضل التواضع ابتغاء مرضاة الله:

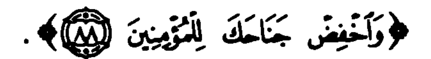
وإذْ حرَّمَتِ النصوص الإسلامية الاستكبار بغير حق، وأبانت أن الكبر من قبائح أخلاق الإنسان، حثّت على التواضع ابتغاء مرضاة الله ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع لله كافأه الله على تواضعه بالرفعة: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله». وهذا من سنن الله في عباده، كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذلّه الله.

ومن الملاحظ أن الناس يحبون المتواضع ويألفونه، ويكرهون المستكبر ويأنفون عنه ولا يألفونه، والسر في ذلك أن المتواضع ينزل نفسه إلى مستوى جلسائه فيعيش

معهم بوداعة وانطلاق، ويعيشون معه بمثل ذلك، فيتم بينه وبينهم الإِلف والوئام، وذلك يولد المحبّة، بخلاف المستكبر، فإنه يرفع نفسه فوق مستوى جلسائه، فيعيش وحده في جوّه النفسي المتعاظم، ويحيط نفسه بسياج شائك، لا وداعة فيه ولا انطلاق، وحين يرى جلساؤه ومعاشروه ذلك منه يبتعدون عنه بنفوسهم فلا يألفونه، ويرونه يضع نفسه فوقهم فيكرهونه، فكلتا الثمرتين من النتائج الطبيعية لكلا العملين.

يضاف إلى ذلك أن المتواضع لا يثير في الناس دافع المنافسة فيكون مألوفاً محبوباً، بخلاف المستكبر فهو يثير في الآخرين دافع المنافسة بقوة، فيكون مكروهاً غير مألوف للنفوس، ولا سيما إذا كان هو في نظرهم دون المكانة التي يرفع نفسه إليها.

ولما كان التواضع من الأخلاق التي تملك القلوب بالمحبة، أمر الله رسوله بأن يخفض جناحه للمؤمنين، مع أنه ﷺ رفيع المكانة في نفسه، عظيم المنزلة عند الله، فقال الله تعالى له في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):


﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾.

فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعاظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل عليه وهو في أصحابه من لا يعرفه فيقول: أيُّكم محمد؟

وربما كانت توقفه الأَمَة وتأخذ بيده ليقضي حاجة لها؛ روى البخاري عن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وكان من تواضعه تحبُّبه إلى الصغار بالسلام عليهم والمسح على رؤوسهم ووجوهم، روى البخاري ومسلم عن أنس، أنه مرّ على صبيانٍ فسلّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله.

وروى مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى (أي صلاة الظهر) ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خَدَّيْ أحدهم واحداً واحداً. قال: وأَمّا أَنا فمسح خدّي. قال: فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار.

من جؤنة عطار: أي من السَّلَّةِ التي يضع فيها متاعه وعطره.

ولما للتواضع من أثر اجتماعي كبير أوحى الله إلى رسوله بأن يأمر المسلمين بأن يتواضعوا. روى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ».

ومن تواضع الرسول وسماحة نفسه صلوات الله عليه، أنه كان يشارك أهله في البيت مهنتهنّ وأعمالهن، روى البخاري عن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

في مَهْنَةِ أهله: تعني في خدمة أهله.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه قطع خطبته مرة لتعليم جاهل غريب، وأقبل عليه، حتى إذا انتهى منه عاد إلى ما كان فيه، روى مسلم عن تميم بن أُسيد قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني ممّا علَّمَهُ الله، ثم أتى خطبته فأَتَمَّ آخرها.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه ما كان يستكبر عن طعام يُدْعَىٰ إليه مهما قلّت قيمته، تألفاً لقلوب المؤمنين، وتكريماً لهم، وتربية لهم على فضيلة التواضع، وتعظيماً لنعمة الله، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ».

* * *

المقولة الثانية عشر

الحسد

وقد يكون جُحودُ الحقّ ورفض اتّباعه والعمل به ناشئاً عن الحسد.

والحسد من الرذائل الخلقية ذات النتائج النفسية والاجتماعية السيئة جدّاً على الأفراد وعلى الجماعات، وهو داءٌ دوي إذا أصاب النفس الإِنسانية أضناها وأشقاها، وجعلها مصدر أذىً للآخرين الذين امتحنهم الله بفضائل من نعمه ومزيد من عطائه.

والحسد من شَرّ معاصي القلوب، ومعاصي القلوب أشدُّ إثماً من كثير من معاصي الجوارح، نظراً إلى آثارها الخطيرة في السلوك.

وعلة داء الحسَدِ تَرجِع إلى إفراط في الأنانية وحبِّ الذات، مع ضعف في الإِيمان بكمال حكمة الله تعالى، الأمر الذي يُفْضِي إلى الاعتراض على الله في حِكْمَتِه التي وزَّع على مقتضاها عطاءه بين خلقه ليبلوهم فيما

آتاهم، فضَرَرُهُ من هذه الناحية يمس جانب الإِيمان ويؤثر عليه.

وداء الحسد داءٌ قديم في الناس، وروى الإِمام أحمد والترمذي عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ:

«دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ والْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ».

والحسد منازل ودركات بعضها أَحَطُّ من بعض وأشد:

أ ـ وأهون الحسد الحسدُ المأذون به شرعاً، وهو حسد الغبطة، ومنزلة حسد الغبطة أن يرى الإِنسان ما وهب الله غيره من نعمة حقيقية فيتمنى لنفسه من فضل الله مثلها، دون أن يريد في قلبه زوال النعمة عن صاحبها.

وهذه المنزلة لا يَكَادُ يَسْلَمُ منها أحد، إذ هي من الدوافع الفطرية الطبيعية التي لا يملك الإِنسان دفْعَها، والتي تعتبر من الحوافز التي تدفع الإِنسان إلى طلب الكمال الذي يمكن الوصول إليه، لذلك كان الحرج مرفوعاً عنها، فلا يؤاخذ الإِنسان على ما يكون منه في مستواها.

ولكن للحسد المأذون به في حدود هذه المنزلة ضابطان يصونان عن الانحراف إلى ما لا خير فيه، وعن الانسياق وراء التمنيات الشاغلة للفكر، والقاتلة للعمر، من غير فائدة ترجى، ولا منفعة يمكن الوصول إليها:

الضابط الأول: ألا تكون النعمة من الخصائص التي اصطفى الله بها بعض خلقه بالتكوين الفطري، أو بالمنح الخاصة التي لا تأتي عن طريق السعي والكسب الإِنساني.

وذلك لأن شغل الفكر والنفس بتمنيات من هذا القبيل مضيعة للوقت، ومقتلة للعمر، ومجلبة للحسرات، ومزلقة من المزالق التي تهوي بالنفوس والقلوب إلى دركات الحسد الضارّ الذميم. وهذه التمنيات الضائعات تفسد على الإِنسان حياته، إذ يعيش مع نفسه فيما يسمى بأحلام اليقظة، فيتحول من إنسان كادح عامل صاحِبِ جِدٍّ، إلى إنسان ساهم حالم خامل كسول، يرضى من حياته بأن يكون في أحلامه وأوهامه على صهوات النجوم، بينما هو في واقع حاله في الأوحال وتَحْتَ الرجوم. وبعض الناس يتجه إلى طريق التعويض، وقد يكون التعويض بارتكاب كبائر شنيعة.

فمن الناس من يتمنى مثلًا أن يصطفيه الله بالنبوة،

وهذا لا يأتي عن طريق الاكتساب، إذ هو من الخصائص التي يختص الله بها بعض عباده، وحين يشتد التمني ويملأ ساحة الفكر والنفس لدَيْهِ، وهو لا يملك تحقيق ما تمنى، يركب مركب الكذب، فيدعي النبوة، أو يدعي الولاية والكرامات، وربما بَالغَ في هذا حتى زعم للناس أن الولاية التي وصل إليها هي أعلى من مرتبة النبوة.

ومن الناس من يتمنى لنفسه كمالًا من الكمالات الفطرية التي لا يملك الإِنسان اكتسابها، كالجمال، والقوة، والذكاء، وفصاحة اللسان، ونحو هذه الكمالات الفطرية. وحين يشتد هذا التمني لديه، ويملأ ساحة فكره ونفسه، يتجه إلى طريق التعويض؛ فقد يحاول أن يبرز ذاته بالاستكبار، أو بالافتخار على الناس بالمال والجاه، أو بالحسب والنسب، أو بالخزعبلات الغيبية، كالسحر والكهانة وما أشبههما.

وما أكثر حيل التعويض في الناس، إنها حَيَلٌ تشمل مجالات الحياة كلها. ويهون الأمر بل قد يحسن إذا كان التعويض في طريق لا شَرَّ فيه ولا ضُرَّ، أما القباحة والشناعة والانحطاط الخلقي، فإنها تكون مرافقة للتعويض بسلوك مسالك الكذب والإفساد والشر والضر والأذى ومعصية الله جل وعلا.

الضابط الثاني: أن تكون النعمة التي يستطاع كسبها بالسعي الإِنساني من النعم التي تنفع الإِنسان في آخرته، أما مظاهر النعمة التي هي من زينة الحياة الدنيا، فهي في نظر الشرع ونظر العقلاء مجالات لامتحان إرادة الإِنسان في هذه الحياة، هل يشكُر أم يكفر، فإذا لم تُسْتَخْدَمْ في طاعة الله بل استخدمت في معصيته كانت نقمة لا نعمة، وعندئذ لا يحسد عليها صاحبها مطلقاً، مهما كان شأنها عظيماً في الدنيا وهل يحسد أصحاب البلايا على بلاياهم وأصحاب المصائب على مصائبهم؟؟!!.

وأمثلة ظواهر النعم التي لا يُحسد عليها أصحابها كثيرة مالئة حياة الناس، فذو مال كثير يستخدم ماله في شَرّ نفسه وضرّها، وفي إيذاء الناس والإِضرار بهم، لا يحسد على ماله المقترن بحالته هذه، لقد كان الفقر له مع الاستقامة خيراً له وأسْعَدَ. وذات جمال بارع، غدت لكل فاسق وطامع، حتى صارت مُمَتَهَنَةً حقيرة، وبؤرة للأوجَاعِ والأمراض المؤلمة الخطيرة، لا تحسد على جمالها المقترن بحالتها هذه، ولقد كان الْقُبْحُ لها مع صيانتها وسلامتها خيراً لها وأسعد. وذو ذكاء عظيم وعِلْمٍ كثير يستخدمه في الشرّ والأذى والإِضرار بنفسه وبالناس، لا يحسد على ذكائه وعِلْمِهِ المقترنين بحالته هذه، ولقد

كان الجهل وضعف الذكاء مع الاستقامة والسلامة خيراً له وأحمد. وذُو سُلْطَان يظْلِمُ في سُلْطَانِهِ وَلَا يَعْدِل، ويهلك الحرث والنسل وهو لا يعقل، لا يحسد على سلطانه المقترن بحالته هذه، ولقد كان الذُّلُّ والضعف مع السلامة من الظلم والطغيان خيراً له وأرشد، وقد تجب مجاهدته لإزالة سلطانه منعاً لأذاه، ودفعاً لشرّه وضُرِّه ـ لا حسداً ـ وكذلك نظراؤه.



الفصل الثاني

خلق الرحمة وبعض فروعها وظواهرها السلوكية وأضدادها

وفيه سبع مقولات:

المقولة الأولى: الشرح التحليليُّ لخلق الرحمة.

المقولة الثانية: التوجيهاتُ الإسلامية لخلق الرحمة والحضّ على مظاهره وآثاره في السلوك.

المقولة الثالثة: الرحمة من صفات الله جل جلاله.

المقولة الرابعة: من صفات أصحاب الرسول ﷺ أنهم رحماء بينهم.

المقولة الخامسة: إكرام اليتيم بدافعِ خلُق الرحمة.

المقولة السادسة: قَسْوَةُ القلب.

المقولة السابعة: الظلم ومجالاته.

المقولة الأولى

الشرح التحليلي لخُلق الرحمة

من الأُصُولِ الخلُقِيَّةِ وكلّيّاتها العامة خلق الرحمة، ولهذا الأصل فروع أخلاقية متعدّدة، منها بِرُّ الوالدين، ومنها صلة الرحم، ومنها إكرام اليتيم، ومنها العطف على الفقراء والمساكين والمرضى والخدم وذوي الحاجات والضعفاء والعجزة وذوي المصائب، ومنها التعاطف بين الإِخوان والأصحاب والجيران وبين المسلمين بوجه عام، ومنها الشفاعة الحسنة، ومنها لين الجانب للناس، ومنها العفو والصفح عن المسيء، ومنها مشاورة رئيس الجماعة وقائدهم وولي أمرهم لأهل المشورة منهم رحمة بقلوبهم ونفوسهم التي يؤلمها الإِهمال والاستبداد، إلى غير ذلك.

تعريف الرحمة:

قد يكون من العسير التوصّل إلى تعريف دقيق للرحمة، لأنّ شأن الرحمة كشأن معظم العواطف

والانفعالات، إنما تدرك وتعرف بظواهرها، لا بحقيقة تكوينها.

ولكن باستطاعتنا أن نقرّب للتصّور فهم حقيقة الرحمة، وذلك بأن نقول: **الرحمةُ**، رِقَّةٌ في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواسّ أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر؛ أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرّة عند شخص آخر.

فهي مشاركة الكائن الحيّ لغيره في مثل آلامه ومسرّاته، والشعور بمثل مشاعره، ولا يشترط في المماثَلَةِ التَّسَاوِي في المقدار، وإنما يكفي فيها المشاركة العامة في الألم أو المسرّة.

الرحمة منبعٌ كريم يفيض بالعطاء، وهو إذا لم يَفِضْ بالعطاء لمستحقي الرحمة بسبب من الأسباب، احتقن فآلم صاحبه.

إنّ الرحيم يؤلمه جدّاً أن يشهد آلام مستحق الرحمة، ثم لا يفيض له بعطاء يدفع عنه آلامه، أو يخفّف له منها، وهذا هو خلق المؤمنين الذين ربّاهم الإِسلام عليه.

ألسنا نشاهد الأمّ الرؤوم حينما يثيرها بكاء طفلها

الرضيع، الذي يؤلمه الجوع، كيف يمتلىء ثديها لبناً، ويدفعه حنانها على طفلها للتدفق، فإذا لم ترضعه احتقن اللّبن في ثديها فآلمها وأوجعها احتقانه؟

كذلك الرحمة في كلّ ما تندفع إليه.

للرحمة مستويات:

والرحمة ذات مراتب ودرجات، ولها مستويات متفاوتات، قد يصل بعضها إلى أن يشعر الراحم بمثل مشاعر من يرحمه تماماً، في النوع والمقدار، وقد يعمل التصوّر على أن تكون فعلًا أكثر من مشاعر من يرحمه. وتتنازل هذه المراتب والمستويات حتى تكون شفقة عابرة، أو رقّة آنية لا تقوى على تحريض صاحبها تحريضاً مؤثراً في بذل معونة، أو تقديم مَؤُونَة، أو مساعدة في خدمة، أو مشاركة في دمعة، أو تضحية بأيّ شيء قد ينفع مستحق الرحمة.

وتختلف دوائر الرحمة اتساعاً وضيقاً، فبعض الناس تتدق في قلبه مشاعر الرحمة نحو الذين يحبهم من ولد، أو أب، أو أم، أو زوج، أو أخ، أو صديق، أو قريب أو نحو ذلك، فإذا شاهد آلام الآخرين الذين لا صلة له بهم لم يشعر نحوهم بأية مشاركة لهم في آلامهم، بل قد

يقابلها ببرود في مشاعره، أو قسوة في قلبه. بينما نجد من الناس رحماء تجاه كلّ من يستحقّ الرحمة من قريب أو غيره. وبين الدائرة الضيقة والدائرة الواسعة دوائر متعددة، يتسع بعضها للعشيرة ويتسع بعضها للقبيلة، ويتسع بعضها للقوم، ثم تأتي الدائرة الكبرى التي تتسع لكل كائن حيّ له إحساس بالألم واللّذة.

قابلية خلق الرحمة لأنواع التربية:

والرحمة كمال في التكوين الفطري، إلّا أنه كشأن كلّ الكمالات الفطرية القابلة للتهذيب والتقويم والتنمية والترقية، والقابلة للتشويه والإِفساد والتدني والضمور.

فمن تهذيبها وتقويمها حسنُ توجيهها للمواطن التي تَسْتَحِقُّ الرحمة، وفق المفاهيم الإِسلامية الحكيمة، وصرفها عن المواطن التي لا تستحق الرحمة.

فحينما يقرّر الإِسلام ضَرُورةَ إيقاع العقوبة الصارمة بصاحب جناية كبيرة، فإنّ رقة قلب المؤمن لا تتأثر بمشهد العقوبة أو بتنفيذها، ولوكان مستحقّ العقوبة قريباً، أو صاحباً، أو حبيباً، وهذا ما أدّب الله المسلمين عليه بقوله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم

بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

ومن تشويه فطرة الرحمة وإفسادها توجيهها لمن لا يستحقها، كالرحمة التي تستدعي كفّ العقاب عن الظالمين، الذي يجعلُهُمْ الْعَفْوُ عَنْهُمْ يتمادون في طغيانهم وظلمهم، وكرحمة الأمّ الرعناء التي تهمل تأديب ولدها مهما أساء، حتى تفسده وتجعل منه إنساناً مجرماً.

ولذلك كان للرَّحْمَةِ جوانب خير وجوانب شرّ، أمّا الله تبارك وتعالى فلا يرحم إلّا في الخير، قال عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

وتكون تنمية الرحمة وترقيتها بتدريب النفس على الشعور بمشاعر الرحمة مرّة بعد مرّة، وذلك بممارسة الأعمال التي تدفع إليها الرحمة عادة، وإيقاظ كوامن الرحمة في النفس بذلك، وتركها تتلذّذ بمشاعر العطف، فالتلَذذ بالمشاعر كفيل بتغذية دوافعها وبتنميتها، مهما كانت أصولها ضعيفة في أعماق النفس. وهذا علاج قد أرشد إليه الرسول صلوات الله عليه، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له:

«امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ، وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ».

وفي رواية عند الطبراني، أنّ رجلًا جاء إلى النبيّ ﷺ يشكو قسوة قلبه، فقال له:

«أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ ارْحَمْ الْيَتِيمَ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، يَلِنْ قَلْبُكَ وَتُدْرِكْ حَاجَتَكَ».

أمّا ضمور الرحمة وتدنّيها في القلوب فمن أسبابه استغراق النفوس في التَّرَفِ، والملذات، والمتع الجسدية، وتنافس المترفين في التفاخر بما يملكون من مظاهر الحياة الدنيا.

وتكَادُ تموتُ الرحمة في قلوب البطرين المستكبرين؛ الذين يطول عليهم الأمد في بحبوحة الترف والنعمة، وهذا ما يجعل قلوبهم قاسية لا تشعر بآلام الآخرين، ويشير إلى هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

* * *

المقولة الثانية

التوجيهات الإِسلامية لخلق الرحمة والحضّ على مظاهره وآثاره في السلوك

إن الإِسلام دين الرحمة العامة الحكيمة العاقلة التي تضع الأشياء في مواضعها، ولذلك نلاحظ في النصوص الإِسلامية توجيهات ملحّة للتحلي بخلق الرحمة، وحثاً على مظاهرها العملية وآثارها في السلوك، فمن ذلك ما يلي:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ».

٢ ـ وروى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ».

٣ ـ وروى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ يقول:

«لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ».

٤ ـ وروى أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمْرو قال: قال رسول الله ﷺ:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ».

ولذلك كان الإِصلاح بين الإِخوة بدافع خلق الرحمة بهم جالباً لرحمة الله، قال الله تعالى في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٥ ـ ومن روائع التوجيه الإِسلامي للأخذ بفضيلة خلق الرحمة، توسيع الإِسلام دائرة الرحمة حتى شملت العالمين، وكلّ ذي حياة ممّا خلق الله في هذا الكون الفسيح.

ولهذا أرشد الله رسوله إلى مهمة رسالته، وهي أن يكون رحمة للعالمين، فقال له في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

وثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال:

«إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهداة»[1].

وكون رسول الله ﷺ رحمة للعالمين نفحة قدسية من نفحات رحمة الله الواسعة، ولذلك يقدّم الملائكة ثناءهم على الله بأنه وسع كلّ شيءٍ رحمة وعلماً، قبل أن يسألوه المغفرة للّذين تابوا واتبعوا سبيله، قال الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾.

ومن رحمة الرسول بأُمّتِه جَعَلَ نفسه مثل الوالد لولده، فَعَن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّما أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ».

---

(١) رواه الدرامي، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر مشكاة المصابيح الحديث (٥٨٠٠) والتعليق للألباني.

رواه ابن ماجه والدرامي وأبو داود والنسائي بإسناد حسن.

٦ ـ ومن حث الإسلام على معاملة الحيوان غير الناطق بالرفق والرحمة، والنهي عن تعذيبه؛ ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال:

«عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ فَدَخَلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خُشَاشِ الْأَرْضِ».

خشاش الأرض: هوامّها وحشراتها.

وما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً أنه مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلّ خاطئة من نبلهم، فلّما رأَوْا ابن عمر تفرّقوا، فقال ابن عمر:

«مَنْ فَعَلَ هذَا؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذا. إنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً».

وما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْراً فَنَزَلَ فِيها فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ

مِنَ الْعَطَشِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثمّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رِقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فغَفَرَ لَهُ».

قالوا: يا رسول الله، إنَّ لَنَا فِي الْبَهائِمِ أَجْراً؟ فقال: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

وفي رواية للبخاري ومسلم:

«بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّة (بئر) قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِه».

موقها: الموق الخف.

فما أروع هذا الشمول الذي تتمتع به التعاليم الإسلامية! امرأة تعذّب بسبب قسوة قلبها تجاه هرّة، ورجل وامرأة يغفر لهما بسبب رحمتهما بكلب، فالرحمة الإيمانية تمدّ ظلالها وراء حدود الإنسان، فتشمل كل ذي كبد رطبة، والله يثيب على كل رحمة ولو كانت بحيوان محتقر غير ذي شأن.

إنّ الذين توصلوا حديثاً إلى إعلان مبدأ الرفق بالحيوان، وأصبحوا يفخرون بهذا الرقي الإنساني، إذا

تعلقت مصالحهم السياسية أو الاقتصادية بإهلاك أمم وشعوب من البشر لم يتورّعوا عن ذلك، ولم تخفق في قلوبهم خافقة رحمة، إنّ دوائر الرحمة لديهم محدودة في حدود أشخاصهم أو أهليهم ومن يحبون، أو أقوامهم.

أمّا التعاليم الإسلامية فإنها تجعل دائرة الرحمة دائرةً واسعة تنتظم الوجود كلّه، وتجعل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد، وتجعل المؤمنين مسؤولين عن الرحمة بكلّ ذي كبد رطبة.

وهكذا عَمِلَ الإِسلام على غَرْسِ خُلُقِ الرحمة في قلوب المسلمين، وتغذيته، وتنميته، وتوسيع دائرة شموله، حتى يكونوا في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَىٰ له سائر الجسد بالحمَّىٰ والسَّهَر.

ونستطيع أن نثبت بكلمة جامعة أنّ الإِسلام قد وجّه المسلمين أن يرحموا كلّ مستحقٍّ للرحمة، وأكّد بشكل خاصّ ومُلِحّ على رحمة الضعفاء، ويدخل في عموم الضعفاء الصغار ولا سيما اليتامى، والنساء والأرامل ومن لا معيل لهنّ، والمرضى، والعجزة، وكبار السنّ الهرمون، وأبناء السبيل المنقطعون الذين لا سند لهم ولا ناصر، والعبيد والخدم والأجراء، وهكذا إلى سائر الضعفاء.

وحين ذكر القرآن بعض وجوه البرّ عدّد أموراً فذكر منها:

الأول: الرحمة، ومن آثارها في السلوك إيتاء المال على حبّه ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب. فجعل الرحمة بالضعفاء من أوّل عناصر البرّ بشرط الإيمان.

الثاني: الصدق، والمحافظة على شرف الكلمة وأداء حقها، ومن آثار ذلك في السلوك الوفاء بالعهد.

الثالث: الصبر، في البأساء (أي: في الجوع) وفي الضرّاء (أي: في المصائب) وحين البأس (أي: في القتال).

قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الرحمة بالضعفاء: الأرملة والمسكين والبنات:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«السَّاعِي عَلَىٰ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

قال الراوي: وأحسبه قال:

«وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُر، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِر».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ الْمِسْكِينُ الّذِي تَردُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، ولَا اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ، إِنّما الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ».

وفي رواية في الصحيحين أيضاً:

«لَيْسَ الْمِسْكِينُ الّذِي يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرتَانِ، ولَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيه، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فيُتصدّق عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ».

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتْها بين ابنتيها ولم

تأكل منها، ثمّ قامَتْ فَخَرَجَتْ، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال:

«مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْراً مِنَ النَّارِ».

أيْ: كُنّ له حجاباً يحجُبُه من عذاب النار.

٤ ـ وروى مسلم عن عائشة قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطتْ كلّ واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشَقَّتِ التمْرَةَ التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنُها، فَذَكَرْتُ الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال:

«إِنَ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ».

٥ ـ وروى مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ عَال جَارِيَتَيْنِ حَتَّىٰ تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ.

ففي هذه الأحاديث النبوية حثّ على كفالة الضعفاء ورعايتهم والرحمة بهم، فهي من الواجبات الاجتماعية

الإِسلامية، وتنبع من منابع خلق الرحمة، وخلق حب العطاء.

وقد أبان الرسول ﷺ أنّ السعي على الأرملة والمسكين من الأعمال الحسنة والفضائل العظيمة عند الله، وأنه كالجهاد في سبيل الله، وأن له مثل أجر قائم الليل الذي لا يفتُر عن العبادة، ومثل أجر المواظب على الصوم الذي لا يُفطر.

وأبان الرسول ﷺ أن القيام بتربية البنات وخدمتهن والإِحسان إليهنّ يدخل الجنة ويحمي من عذاب النار.

وهذا عناية عظيمة من الإِسلام بالضعفاء، ضماناً لحاجاتهم وربطاً لهم بالمجتمع ربطاً تامّاً، إذ جعل المجتمع المسلم مسؤولًا عنهم، كالأسرة الواحدة.

والأرملة إنسانة كسيرة القلب بفقد زوجها المعيل لها والساعي عليها، وهي إنسانة حزينة ضعيفة، فمن رحمها وسعى في حاجاتها كان سعيه سلوةً لها وضماداً لجراحها وجبراً لكسرها.

والمسكين إنسان مَهِيضُ الجناح، ضعيف الحال، مُثَقَلٌ بالأحمال، فمن ساعده وسعى عليه وقدّم له ولأسرته حاجاتهم ومعايشهم، جبر كسره، ومسح عنه حزنه، ورفعه من مقام الذلّة والمهانة والضعف.

ووصف الرسول ﷺ المسكين حقيقةً بسبب فقره بوصفين:

الأول: أَنَّه ذُو حاجَةٍ لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيه.

الثاني: أنّه متعفّف يكتم حاجته وفقره، فلا يسأل الناس، فلا يفطن الناس إلى واقع حاله حتى يتصدّقوا عليه.

والبنات الصغار ضعيفات، وقد يزهد أهلُهنّ بهنّ، تأثراً بالمفاهيم الجاهلية من كراهية أن يولد لهم الإِناث، فمن عالهنّ وأحسن إليهنّ وأكرمهن وأدّبهن كنّ له ستراً من النار.

الرحمة بالصغار والضعفاء:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قبّل النبي ﷺ الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال:

«مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قدم ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقال: «نعم»، قالوا: لكنّا والله ما نقبّل؛ فقال رسول الله ﷺ:

«أَوَ أَمْلكُ أَنْ كَانَ اللَّهَ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ؟!».

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ».

* باستطاعتنا أن نستخلص من هذه الأحاديث فكرتين رئيسيتين:

الأولى: عناية الإِسلام بالصغار، والتوجيه لإِعطائهم ما يحتاجون إليه في فطرتهم من عطف وحنان، والخلقُ الذي يدفع إلى إعطائهم ذلك هو خلُق الرحمة.

فتقبيل الصغار وضمّهم والحنو عليهم يُغذيهم نفسياً بما يحتاجون إليه من حنان وعطف، وذلك أن الطفل كما يحتاج إلى غذاءٍ مادي عن طريق الطعام والشراب، يحتاج إلى غذاءٍ نفسي عن طريق العطف والحنان، والطفل الذي يأخذ وجباته الضرورية من غذائه النفسي يكون أكثر نموّاً من الطفل الذي يحرم من ذلك، مهما أعطي وجبات كافيات من الغذاء الجسدي، ولذلك علمنا الرسول ﷺ بتوجيهاته القولية والعملية ما ينبغي لنا أن نمنحه أطفالنا من عطف وحنان وقبلات، وما ينبغي أن نشعر به نحوهم من رحمة.

الثانية: بيان سنّة من السنن الرّبانية الثابتة، وهذه السنة قد كشف عنها قول الرسول ﷺ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ» وقوله: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ لاَ يَرْحَمُهُ اللهُ».

وهذه السنة هي جزئية من جزئيات قاعدة «الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ».

فمن جفت الرحمة في قلبه، فصار يعامل الناس بالقسوة، عامله الله تعالى بمثل عمله، وجازاه بمثل صنيعه.

أمّا من يعامل الناس بالرحمة والإِحسان، والعطف والحنان، فإن الله الرحيم الرحمن يكافئه بالرحمة والإِحسان، ويضاعف له المثوبة ويزيده من فضله.

* * *

المقولة الثالثة

الرحمة من صفات الله

لقد وسع ربّنا كل شيء رحمة وعلماً، فبرحمته يهدي عباده إلى سبيل سعادتهم، وبرحمته، ينزل عليهم الشريعة الكفيلة بتحقيق الخير والسعادة لهم في دنياهم وأخراهم، وبرحمته يدخل المؤمنين في جنته، وبرحمته يغفر للمسيئين، وبرحمته يستجيب للمضطرين، وبرحمته يرسل لهم الرسول الذي هو رحمة للعالمين، ولقد كتب الله على نفسه الرحمة ووصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، وبأنه خير الراحمين، ومن أسمائه الحسنى سبحانه الرحمن الرحيم، فمن النصوص الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾.

موئلًا: أي منجىً يلْجؤون إليه ويرجعون إليه.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

٥ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٦ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٧ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ والْبَهَائِم والْهَوَامّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَراحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

٨ ـ وفي رواية:

«جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

٩ ـ وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب، قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها تسعى، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته

فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ:

«أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟».

قلنا: لا وهي تقدر أن لا تطرحه.

فقال: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هٰذِهِ بِوَلَدِهَا».

فرحمة الله وسعت كل شيء، ولكن رحمته تعالى مقرونة بحكمته.

وأسباب الرحمة في جميع الخلائق مَدَدٌ من فيض رحمة الله.

١٠ ـ ومن عظيم رحمته تعالى أنه جعل أدنى ثواب الحسنة عشر أمثالها، وأعلى جزاء السيئة مثلها، وأن من تقرب إلى الله مقداراً تقرب الله إليه أضعافه.

روى مسلم عن أبي ذر الغفاري قال: قال النبي ﷺ:

«يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ: مَنْ جَاءَ بَالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها وَأَزِيدُ، وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُها؛ أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

والمراد تقرب العبد لربه بالطاعة والحب، وتقرب الله لعبده بالرحمة والفضل والمحبة.

١١ ـ ومن عظيم رحمته تعالى أن رحمته سبقت وغلبت غضبه، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَمّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْش: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».

وفي رواية: «غَلَبَتْ غَضَبِي».

وفي رواية: «سَبَقَتْ غَضَبِي».

١٢ ـ ومن عظيم رحمة الله تعالى أنه يغفر الذنوب لمن تاب واستغفر من عباده، معترفاً بذنبه، راجياً عفو ربه.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربِّهِ تعالى قال:

«أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً فَقَالَ: اللَّهُمَ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَال اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ

فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاء».

أي مهما أذنب ثُمَّ استغفر صادقاً معترفاً بذنبه راجياً عفو ربه فإن الله يغفر له.

* * *

المقولة الرابعة

من صفات أصحاب الرسول أنهم رحماء بينهم

وصف الله أصحاب محمد في التوراة بأنهم رحماء بينهم، وقص ذلك علينا في القرآن، فقال تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم، فالإيمان بالله وباليوم الآخر متى تغلغل في القلب حقاً غرس فيه من الرحمة بمقدار قوته وتغلغله، ولكن جعل لها طريقاً لا تتعداه، وغرس فيه من

الشدة أيضاً بمقدار قوته، وتغلغله، ولكن جعل لها أيضاً طريقاً لا تتعداه.

ولا تتعارض الرحمة في قلوب المؤمنين مع مظاهر الشدة على الكفار، لأن الغاية من هذه الشدة تحقيق أهداف الرحمة الحقيقية العامة، فالشدة على أهل الشر تمنع شرورهم، ومنع الشرور هو من الأمور العظيمة التي تستدعيها الرحمة.

ومن أمثلة الشدة بدافع الرحمة شدة المربِّي كلما دعت الضرورة التربوية إلى ذلك، وشدة الطبيب الناصح على المريض بالجراحة المؤلمة كلما دعت الضرورة العلاجية إلى ذلك. وكذلك المؤمنون في شدتهم على أهل الشر والظلم والبغي والفساد في الأرض، إنها شدة تدفع إليها أهداف الرحمة العاقلة.

أما الرحمة الحمقاء فقد تفضي إلى عكس ما توجبه الرحمة؛ إنها قد تسبب للمريض الهلاك، وتسبب للناشىء الفساد، وتسبب للمجتمع القلق واضطراب والانهيار والفساد العام.

* * *

المقولة الخامسة

إكرام اليتيم بدافع خلق الرحمة

ومن ظواهر خلق الرحمة إكرام اليتيم، بل هنا تظهر الرحمة في أعطف وأحنى وأكرم مظاهرها.

إنّ اليتامى صنف من الضعفاء بين الناس، والضعفاء أحوج الناس إلى الرحمة، وإلى مظاهرها وما تدفع إليه.

اليتامى ضعفاء فقدوا ظهيرهم ونصيرهم من أعطف الناس وأحناهم عليهم، وفقدوا راعيهم المزوّد فطرياً بالحنان والعطف عليهم، مع حبّ غير مشوب غالباً بأخلاط الأنانية والمصلحة الخاصة، ومع رغبة بالتضحية والعطاء والفداء، ومع حرص شديد على إبلاغهم مبلغ الرشد والكمال، والنضج والقوة، والدرجات العاليات في كلّ أمر نافع، وفي كلّ عمل رافع، وفي كلّ ارتقاءٍ مجيد.

وإذْ يفقد اليتامى راعيهم الحاني فطريّاً عليهم يكونون

عرضة للإِهمال من جهة، ومطمعاً للبغاة من جهة أخرى.

وبين فكّي الإِهمال والطمع يقع اليتامى فريسة ضعيفة تَسْتَدِرُّ رحمة الرحماء، وتستجلب حنان ذوي الشفقة والرأفة، فهم في وضعهم الذي هم فيه بؤساء، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

من أجل كل ذلك بادرهم الإِسلام بالرعاية الجماعية من قبل المجتمع الإِسلامي المحيط بهم، تعويضاً لهم عما فقدوه؛ فأوصى الإِسلام المسلمين برعاية اليتامى، وبذل الحنان والعطف لهم، والمبالغة في إكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وأمر بكفالتهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة، ورعاية حازمة بصيرة، وحذّر من استغلال موقف الضعف الذي هم فيه تحذيراً شديداً، وتهدّد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بالوعيد الشديد، وبالنار التي تكوي ما في البطون.

وحين نستعرض النصوص الإِسلامية التي تعرضت لأحوال اليتامى نلاحظ أنّها توصي بإعطاء اليتيم وإطعامه، والإِحسان إليه وإكرامه، وكفالته والرأفة به، ومؤاخاته عند مخالطته، والقسم له من الفيء والغنائم، وتنهى عن دعّه وطرده، وتحذّر من مغبّة ظلمه في نفسه أو ماله، وهكذا تهتم بشأن اليتيم اهتماماً بالغاً.

فلنواكب في مسيرة البحث قافلة النصوص الإِسلامية في اليتامى، لنستجلي موقف الإِسلام وطريقه في شأن هذا الصنف الضعيف من الناس:

١ ـ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

في هذا النص أعظم مواساة ربّانية للأيتام، فالله يعلن فيه أنّ اليتم بفقد الأبوين قد اختاره الله لأصفى أصفيائه من خلقه، محمد بن عبد الله، فحسب اليتامى مواساة وفخراً أن يكون سيّد المرسلين قد وُلد يتيم الأب، ثم نشأ يتيم الأبوين، ويخاطبه الله بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾؟﴾ أي: فآواك، إذ يسّر لك بدل والديك من يكفلُك ويؤويك ويحنو عليك.

وإذ ذاق الرسول طعم اليتم، وعرف في نشأته مشاعره، وعرف ما يقهر اليتيم وما يواسيه، وعرف ما يفرحه ويسره ويجبر كسره ويكون له تعويضاً عمّا فقد من أبويه، قال الله له: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾.

إنّ مشاعر اليتيم ربّما تبلغ من الإِفراط في الحساسية أن تقهره الكلمة العابرة التي لا تثير انتباه أي إنسان آخر، ولا تحرّك فيه شيئاً، لذلك كان على كافل اليتيم أن يكون دقيق الملاحظة جدّاً لما يهزّ مشاعر الأيتام بالألم، فلا يأتي منها شيئاً، ويوصي أسرته بمثل ذلك، فليس من السهل قهر اليتيم ولو بكلمة عابرة.

إنّ مراقبة الأيتام ودراسة مشاعرهم تنبىء عن أمور مهمّة جدّاً من هذا القبيل، ومن الجدير بمتتبعي الدراسات النفسية بالسبر والملاحظة، أن يخصّصوا فصلًا في دراساتهم لدراسة أحوال الأيتام النفسية، وما يسرهم ويواسيهم، وما يؤلمهم ويقهرهم، حتى تكون هذه الدراسات الواقعية هادياً لكل من يتولّى كفالة الأيتام، والإِشراف على تربيتهم وتأديبهم وتنشئتهم، وحتى لا يكونوا في المستقبل جانحين، أو معقدين بالحقد والكراهية، والسخط على كلّ شيء من حولهم.

إن اليتيم قد يَقْهَرُهُ مَنْظَرُ عطف الأب أو الأم على ولدهما داخل الأسرة التي يعيش في كفالتها، ويؤلمه جدّاً تفضيل غيره عليه ولو بأقلّ الأشياء، ويتيقظ فيه الشعور بأنه لو لم يكن يتيماً للقي من العطف والإِكرام والتفضيل مثل الذي يلْقَاهُ الآخرون، ولكنّه محروم من ذلك بسبب يُتْمِه.

وقد يكون من الخير إقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام، مزودة بأفضل وأحدث وسائل الحضانة والرعاية والكفالة الجماعية، يشرف عليها مربّون ومربّيات، يتمتعون بالمؤهلات التربوية العالية النظرية والعملية، وبذلك يتهيأ للأيتام وسط اجتماعي بعيد نوعاً ما عن مشاعر الحرمان والتفاضل التي يشعر بها الأيتام داخل الأسر.

ومثل هذا المشروع من الواجبات الاجتماعية التي ترضي الله وتلائم أساليب العصر الحضارية.

٢ ـ ويمتنّ الله على الإنسان فيقول في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ
أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ
﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ
ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات حديث عن الإنسان ومسؤوليته في

هذه الحياة. يعرّف الله الإِنسان بموقعه تحت سلطان قدرة الله ومراقبته، ثم يمتن عليه ببعض ما وهبه، ويضعه موضع الامتحان على مفترق طريقين، آتاه الله العلم بهما وبنتائجهما، بما أودع فيه من استعداد لإدراك ذلك، وهما طريقا الخير والشر، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

ثم يبين الله للإنسان أنّ طريق النجاة والفلاح منهما هو طريق الميمنة، إلّا أن هذا الطريق من دونه عقبة قائمة داخل نفس الإِنسان، وهذه العقبة في النفس لا بدّ من اقتحامها لتحقيق النجاة والفلاح ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

ولكنْ ما هي هذه العقبة في النفس؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾؟﴾ ويأتي الجواب: أنها عقبة قسوة القلب، التي ينشأ عنها البخل، والشحّ، وجحود الحقّ، وعقبة انعدام الصبر.

فكيف يكون اقتحام العقبة هذه؟

إنه يكون بتنمية خلقي الرحمة والصبر، مع الإِيمان الصحيح وذلك يجعل الإِنسان قادراً على اقتحام عقبة نفسه، فيجود في مواطن المرحمة، ويثبت في مواطن الصبر. فيعتق الرقاب جوداً وإحساناً ورحمة بالضعفاء، ويطعم الطعام في أيّام المجاعة، إذ الحاجة إليه حينئذٍ

ملحّة، فيقدّمه إلى الضعفاء من ذي الحاجة، وفي
مقدمتهم يتيم ذو قرابة، أو مسكين فقير ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ
﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى
يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا
مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

* * *

المقولة السّادسة

قسوة القلب

الخلق المناقض لخلق الرحمة يتمثّل بقسوة القلب حينما يراد من قسوة القلب نُضُوبُ عاطفة الرحمة، وهو خلق ذميم قبيح ذو نتائج خطيرة على الفرد والمجتمع الإِنساني والحياة كُلّها.

إذا وضعنا للرَّحمة سلّماً ذا درجات، ولاحظنا فيه أنّ نِسْبَةَ الرحمة تتفاوت ارْتِقاءً وهُبُوطاً، وجدنا أنّ الدرجة الدنيا من درجات الرحمة إذا انعدمت تمّ بانعدامها بلوغ أقصى دركات قسوة القلب، إذن فبمقدار انخفاض نسبة درجة الرحمة يكون ارتفاع نسبة درجة قسوة القلب، والعكس صحيح.

قسوة القلب مرض من الأمراض الخلُقِيّةِ، يجفّف في داخل النفس الإِنسانية عاطفةَ الإِحْسَاس بآلام الآخرين وحاجاتهم، ويشتدّ هذا المرض ويشتد مَعَهُ الجفاف النفسي، حتى ينعدم الشعور بالواجب الفطريّ نحو الخالق

المنعم، الذي متى شَاء سلَبَ النّعم كلّها، ومنها نعمة الحياة. وفي هذه الحالة من حالات الجفاف النفسي تمسي القلوب مثْلَ الحجارة التي لا تَرْشَح بأيّ عطاء، أو أشدّ قسوةً من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما تتشقق قسوته الظاهِرَة فيندفِعُ العطاء من باطنه الرخو ماءً عذباً نقيّاً، ولكن بعض الذين قست قلوبهم يجفّ من أغوارها كلّ أثر للفيض والعطاء.

حين تُشبَّه القلوب بالحجارة، ويستعمل للدلالة على فقدان عاطفة الرحمة منها عبارة القسوة وما يُشْبِهُها من العبارات المأخوذة من الماديّات المدركة بالحواسّ الظاهرة، فذلك لأنّ كثيراً من المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية غير خاضعة لمقاييس ظاهرة، حتى يستطاع الرجوع إليها، وتمييزها بعبارات يمكن فهمها بسهولة عند التّخاطُب، ولو وضعت لها عبارات كلاميّة خاصة فإنه تظلّ دلالاتها غامضة عند معظم الناس، ومن أَجْلِ ذلك كان الأَوْلَى في الدّلالة عليها استخدام عبارات معروفة الدِّلالة في المجال الحسّي، والاستفادة من تشبيه المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية بالمدركات الحسيّة الظاهرة، لتقريب الحقيقة إلى الفهم.

على أنّ كثيراً من المشاعر النفسية والمدركات

الوجدانية قد وضع لها تعبيرات خاصة بها، نظراً إلى أنّ الإِحساس بها عند معظم الناس إحساسٌ واضح في مشاعرهم، ويمكن قياسه من ظواهره ولو بشكل تقريبي، كالحبّ، والبغض، والإِرادة، والخوف، والطمع، والفهم، والذكاء، والشجاعة، ونحو ذلك.

قسوة القلب في الدلالات القرآنية:

لقد ذمّ القرآن الذين قَسَتْ قلوبُهُم من أهل الكتاب، وحذّر المؤمنين بالإِسلام من أن يطول عليهم الأمد في المعاصي والغفلَةِ عن ذكر الله فتقسو قلوبهم، وأنذر القاسية قلوبهم وخوّفهم من أن يحلّ بهم العذاب والهلاك. ويراد من قسوة القلب نُضُوبُ عاطفة الرحمة فيها، وتحجُّرها عن قبول دعوة الحقّ، فعلى المعنى الأول تكون قسوة القلب مناقضة لخلق الرحمة، وعلى المعنى الثاني تكون قسوة القلب مناقضة لخلق حب الحقّ.

١ ـ خاطب الله بني إسرائيل، وحدّثهم بما وصلوا إليه في أجيالهم اللاحقة من قسوة شديدة في قلوبهم، جعَلَتْهُم لا يرشحون بعطاء نابع من خلق الرحمة، ولا يَخرّون ساجدين من خشية الله، فقال الله تعالى خطاباً لهم في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

لقد بلغت قسوة قلبهم مبلغاً جعلها لا تتفجَّر من مؤثرات داخلية فتفيض بعطاء، ولا تتشقق من مؤثرات خارجية تستثير فيها الرحمة فترشح بعطاء، ولا تنصدع لمؤثرات الخشية من الله فتخضع لله وتذلّ، فهي أشدّ قسوة من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما يتفجر فتخرج منه الأنهار، وما يشَّقَّق فيخرج منه الماء ولو بنسب قليلة، وما يهبط من خشية الله.

إنها حالات ثلاثٌ مفقودة في المخاطبين، صوَّرَتْها حالات ثلاث للصخور القاسيات:

أ ـ فمن الحجارة القاسية ما يتَعرَّض إلى اندفاع داخليّ فيفجر قسوتها، ويخرج منها العطاء الثرَّ أنهاراً.

ب ـ ومن الحجارة القاسية ما يتشقّق تشققاً دون التفجر، بمؤثرات من الخارج، وربما من الداخل، فيخرج منه العطاء غير الثرّ.

ج ـ ومن الحجارة القاسية المستكبرة في المرتفعات

ما تأتيه هزات وعوارض فيهبط إلى مواطن التواضع من خشية الله.

أمّا قلُوبُ هؤلاء فلا تتدفّق لأيّ مؤثر يستثير الرحمة، ولا ترشح ولو رشحاً قليلًا، وتظلّ في قَسْوَتِها واستكبارها فلا تَذِلُّ ولا تخضع من خشية الله.

وفي الصورة أيضاً إلماحٌ لأصحاب القلُوبِ القاسية المستكبرة، بأن من لم يتفجر قلبه من الرحمة، ولم يخضع من خشية الله، فسيكون عرضة لتشقيقه بعنف المصائب لاستخراج ما في باطنه من خير، إذا كان فيه خير، وسيكون عرضة لتصديعه وهو في مواطن استكباره لإِذلاله وإهانته، لعلّه يخضع من خشية العزيز القهّار، ويرى أنّ خضوعه لربّه أولى له من الاستكبار.

* * *

المقولة السابعة

الظلم ومجالاته

(١)

مقدمة

لقسوة القلب المناقضة لخلق الرحمة ظواهر في السلوك أبرزها ظُلْمُ الآخرين في حقوقهم، فمن فقد الرَّحمة فَقَسا قلبه ظَلَم غيره، ولم يكترث لِآلام من ظلمه.

والإِنسان الرحيم قلّما يكون ظالماً، ولَئِنْ كان للظلم عوامل نفسيَّة مختلفة فإن تنفيذه لا يكون إلّا حينما يكون القلْبُ قاسياً وتكون الرحمة فيه ناضبة أو غارقة في سُبَاتٍ عميق.

والظلم بمعناه العام قد يكون من ظواهر قسوة القلب بفقدان الرحمة، وقد يكون من ظواهر الانحراف عَنِ الحَقِّ، وفقدان خُلق حبّ الحق، أو تناقصه، ومن قسوة القلب عن قبول دعوة الحق.

(٢)

تعريف الظلم

يعرّف اللغويون الظلم بأنه: وضع الشيء في غير موضعه.

وجاء في أمثال العرب قولهم: «من أشبه أباه فما ظلم» قال الأصمعي: أي فما وضع الشبه في غير موضعه.

وجاء في أمثال العرب قولهم: «وَمَنِ اسْتَرْعَىٰ الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ» وهذا ظاهر في وضع الشيء في غير موضعه، إذ موضع الذئب الطرد عن قطعان الغنم، لا جَعْلُه راعياً عليها حتى يفتك فيها كما تهوى غريزته.

ويقال لغةً: لزم سالك الطريق طريقه فلم يظلمه، أي: لم يَعْدِلْ عنه ولم يتجاوز حدوده اليمنى واليسرى.

وإنما كان الشرك بالله ظلماً لأنَّ خصائص الإلَـهيّة كلَّها من حقّ الله وحده، فمن أسند ما هو لله وحده إلى غيره فقد وضع الأمر في غير موضعه، وجعل لله شريكاً في صفاته التي لا يشاركه فيها أحد في الواقع، ولمّا كان الأمرُ يتعلّق بحق الله خالق كل شيءٍ كان الظلم فيه أشدّ أنواع الظلم.

(٣)

المجالات التي يدخل فيها الظلم

إنّ المجالات التي قد يَدْخُلُ الظلم فيها كثيرة وواسعة:

أ ـ فقد يكون الظلم في مجال حق الله على عباده، من عقيدة أو عبادة، أو طاعة في أمر أو نهي.

ب ـ وقد يكون الظلم في مجال حقوق العباد، بتجاوزها أو هضمها.

ج ـ وقد يكون الظلم للحقائق الفكريّة والعلميَّة، بتجاوز حدودها، أو بإنكارها وجحودها.

د ـ وقد يكون الظلم لأيّ كائن ذي حياة، وظلم ذي الحياة الذي يستحق الرحمة ويشعر بالألم إنما يفعله ذوو القلوب القاسية، الذين نَضَبَتِ الرحمة من قلوبهم، أو تخدّرت باللّذات الأنانيّة والشهوات الماديّة، أو غرقت في سُبَاتٍ عميق إذْ أبطرتهم النعمة.

هـ ـ وقد يظلم الإنسان نَفْسَه، فيُغَامر في فعل ما يشتهي، ويعرّض نفسه لعذاب أليمٍ من وراء ذلك.

وكُلُّ ظلم يُعَاقَبُ عليه الظالم يكون من قَبِيلِ ظُلْمِ الإنسان لنفسه، بالإضافة إلى كونه ظلماً لغيره.

وظلم الإِنسان لنفسه ظلم مصحوب بجهالة بالغة، إنْ لَمْ يَكُنْ مع الجهالة حماقَةٌ ورُعُونة.

وباتساع وتعدّد مجالات الظلم نلاحظ أن منه الكفر بالله والشرك به ومعصيته وتجاوز حدوده، ويدخل في ذلك كَتْم شَهادَةِ الحقّ، ومَنْعُ مساجد الله أن يذكر فيها اسْمُه، وأَكْلُ أموال الناس بالباطل، والعُدْوانُ على أيِّ حق من حقوق الناس، والإِعراضُ عن آيات الله بعد التذكير بها، والقتلُ، والسَّرقةُ، والغش، والقذف، والغيبة، والإِفساد بين الناس، إلى غير ذلك من آثام ومعاصي.

(٤)

الظلم في المفاهيم الإِسلامية

لقد تحدّث القرآن عن الظلم والظالمين والعقوبات التي أعدّها الله لهم في آيات كثيرة جدّاً، وأَوْلَى هذه الظاهرة السلوكية التي ترافق في معظم أحوالها قسوة القلب وجفاف خلق الرحمة منه اهتماماً شديداً، بغية التحذير منها، واتّخاذ الوسائل لمعالجتها، ومن أقبح أنواع الظلم الكفرُ باللّه، ومنه الشّرْكُ به، وإنْ كان الشرك بإلَهيَّةِ اللَّهِ أخَفَّ أنواع الكفر به.

إن الشرك بالله لظلم عظيم، ولذلك كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، لا تُشرِكْ بالله، إنّ الشرك لظلم عظيم، هذا ما قصه الله علينا مشيداً بوصايا لقمان لِابنه في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

حقّاً إن الشرك بالله لظلم عظيم، وذلك لأنّ حق الله على عباده أن يؤمنوا به، وأن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادته أحداً، وأنْ يُطِيعوه بالتزام ما يَأْمُرهم به، واجتناب ما يَنْهاهُمْ عنه. فمَنْ عبد غير الله مثل عبادته لله فقد وضَعَ عبادته في غَيْرِ محلّها، ورفَعَ خلْقاً من خلق الله فجعله مساوياً لله، ولَوْ في أمْرٍ من الأُمور، أو صفةٍ من الصِّفاتِ، وكلُّ ذلك ظلْمٌ عظيم، لأنّه يتعلّقُ بحق الله الخالق الرازق المنْعِم المتفضّل المحيي المميت، في كبْرى حقوقه على عباده.

(٥)

أبواب من الظلم بأكل أموال الناس بالباطل

أ ـ مقدمة عامّة:

لـمّا كان أكل أموال الناس بالبَاطل من فروع ظلم

الناس للناس، فقد جعله الله من كبائر المحرَّمات، وشدّد الرسول ﷺ فيه تشديداً عظيماً.

قال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

فقد رتّب الله على أكل أموال الناس بالباطل وعلى قتل الأنفس أنه من يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف يصليه الله ناراً.

وخطب الرسول ﷺ خطبته المشهورة في حجّة الوداع فقال فيها:

«إِنَّ دِماءَكَمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[1].

وثبت في الصحيح أنّ الرسول ﷺ قال:

«كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».

وروى البخاري ومسلم عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنْ الْأَرْضِ ظُلْماً، فَإِنَّهُ يُطَوَّقُه يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِين».

وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةَ امْرِىءٍ بِغَيْرِ إِذْنِه، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُؤْتَى مَشْرَبَتَهُ فَتُكْسَرَ خِزَانَتُهُ فَيُنْتَقَلَ طَعَامُهُ؟ وَإِنَّما يَخْزُنُ لَهُمْ ضُرُوعُ مَواشِيهِمْ أَطْعِمَاتِهِمُ».

مَشْرَبَتُه: غرفته التي يَخزِنُ فيها الطَّعَامَ وغيره. فشبّه الرسول ﷺ ضُرُوعَ مواشي الناس بمخازن أطعمتهم التي يَحرمُ أخذُ شَيْءٍ مِنها إلاّ بإذن أصحابها، واعتبر ذلك من نوع السَّرِقة.

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن جابر بن عبد الله وفيه قصة حجة الوداع.

وروى البخاري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئاً بغَيْرِ حَقِّهِ، خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ».

ولعل هذا يفسر معنى يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين، الواردة في الحديث السابق.

ب ـ الربا:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم الذي يتواضع الناس على الاعتراف به واتخاذ صيغ قانونية له، على خلاف شريعة الله ـ أَكْلُ الأموال عن طريق الرِّبا المحرم في دين الله.

وقد سماه الله ظلماً، فقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

وكان هذا النص آخِرَ نصٍّ نزل في تحريم الربا كُلِّه قلَّ أَمْ كَثُر، وأبان الله فيه أنه ظلم، فقال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ

فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾.

وروى مسلم عن جابر قال: لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَقَال: «هُمْ سَواءٌ».

ج ـ الغشّ:

ومِنْ أكلِ أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ أكَلُ المال عن طريق الغش.

وللغش أنواع كثيرة وصور شتى، ترجع معظمها إلى المخادعة بإظهار شيء وإخفاء خلافه في باطنه، ومن ذلك الكَذِبُ في التعريف بالشيء فيعرف الرديء بأنه جيّد، وذو السعر الرخيص بأنه من الصنف ذي السعر الغالي.

ومن الغشّ دسُّ الرديء في ثنايا الجيد، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد، دون بيان الواقع والحقيقة.

ومن الغشّ أن يقولَ البائع: اشتريته بكذا، ليخدع المشتري فيرضى بأن يربح عليه مقداراً من المال، مع أن البائع كان قد اشتراه بأقلّ ممّا ذكر.

فكم يخلط التجار السَّمْنَ الرديء بالسمن الجيد ويبيعون الجميع على أساس أنه من السّمن الجيّد، ويخلطون الزيت الرديء بالزيت الجيد ويبيعون الجميع بقيمة الزيت الجيد.

ونظير ذلك يفعلون في سائر الأطعمة، وفي الأقمشة، وفي الأثاث، وغير ذلك.

وعند البنائين والمهندسين ألوان من الغش، وعند الأطباء والصيادلة ألوان من الغش، وعند المعلمين ألوان من الغش، وعند الصناع ألوان من الغش، وعند العمال ألوان من الغش.

وكلّ أنواع الغش لابتزاز الأموال ترجع إلى أنها صورة ماكرة من اللصوصية، مقنعة بأقنعة تعامل في عقود مشروعة بحسب ظاهرها، ولكن كلّ مال يكتسبه الإِنسان عن طريق الغش هو مال حرام، وهو سحت، وظلم، وهو من أكل أموال الناس بالباطل.

وقد أبان الرسول ﷺ أنّ من غشّ المسلمين فليس منهم.

روى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ حملَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

وروى مسلم عن أبي هريرة أيضاً، أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا، فقال:

«مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟».

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟! مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

صبرة طعام: كَوْمٌ من طعامٍ بُرٍّ أو شعير أو نحو ذلك.

د ـ الاحتكار:

ومِنْ أَكْلِ أموالِ الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ إِغْلَاءُ الأَسْعَارِ عن طريق الاحتكار، لابتزاز أموال الناس بافتعال قلة العرض مع وجود كثرة الطلب.

إنّ التجارة في الأصل نِظَامٌ شَرعَه الإسلام وأَذِنَ به لتسهيل مصالح الناس، والرِّبْحُ الَّذِي يأخُذُهُ التاجر إِنَّما هُوَ تَعْوِيضٌ لِخَدَمَاتِه التي يقوم بها في تسهيل مصالح ذَوِي الحَاجَاتِ، بتسخير ماله، وبتسخير قدراته الفكرية والجسدية.

فإذا احتكر التَّاجِرُ مَا لَدَيْه مِنْ سِلَعٍ، أو احتكر مجموعةٌ من التجار ما لديهم من السلع، بأي لون من ألوان الاحتكار الخاص أو العام، فقد خالفوا أصل هذا النظام، والغاية منه، وألجؤوا أصحاب الحاجات إلى

قبول أخذ السلع المحتكرة بأكثر من أثمانها الحقيقية.

إن المال الذي يُؤْخَذُ زِيادَةً على الرِّبح المقبول عرفاً والذي يحصل بسبب الاحتكار مالٌ يؤخذ بالباطل، إذْ هو ليس مقابل خدمات تجارية صحيحة، ولم يؤخذ بالرضا الحقيقي من قبل المشترين، وإنما ألجئوا إلجاءً لدفع القيم الزائدة لضروراتهم وحاجاتهم؛ وقد استغل المحتكرون ظرفاً ملائماً للاستغلال، أو سلطة من السلطات حَصَرَتْ تَوْرِيدَ البضاعة في أيديهم، ولم يأتِ ارتفاع السعر أمراً طبيعيّاً دون عَمَلٍ مفتعل دبّره المحتكرون بمكر شيطاني.

وقد تتسع دوائر الاحتكار حتى تكون دولية كبرى تديرها مؤسسات عالمية لها فروع وأجراء وعملاء في معظم دول العالم.

فالمحتكرون من التجار يخونون العمل الذي أطلقت أيديهم فيه، ويخونون أماناتهم، ويخلّون بالغاية من نظام التجارة، فما يأكلونه من مالٍ بسبب الاحتكار إنما يأكلونه بالباطل.

وليس للمحتكرين أن يقولوا: إنّما هي تجاراتنا، ونحن فيها أحرار نصنع ما نشاء، وليس لأحد أن يجبرنا أن نَبِيعَ ما نملك من سلع، وذلك أنّ الله الذي منحهم

حق الربح العادل في التجارة مقابل جهدهم، هو الذي حرّم عليهم الاحتكار وهو الذي حرم عليهم أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل.

وقد أبان الرسول ﷺ أن المحتكر خاطىء، أي مذنب عاصٍ، وأنه ملعون، وأنذر محتكري الطعام بالجذام والإفلاس، وأبان بأنّ المحتكر يبرأ من الله ويبرأ الله منه.

روى مسلم عن معمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنِ احْتَكَرَ فَهُو خاطِىء» أي: عاصٍ.

وروى ابن ماجه والدارميّ عن عمر بن الخطاب، أنّ النبي ﷺ قال:

«الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ، والْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ».

وروى ابن ماجه والبيهقي في (شعب الإيمان) عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنِ احْتَكَرَ عَلَىٰ الْمُسْلِمينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلَاسِ».

وروى رزين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنِ احْتَكَرَ طَعَاماً أَرْبَعِينَ يَوْماً يُرِيدُ بِه الغَلَاءَ فَقَد بَرِىءَ مِنَ اللَّهِ وَبرِىءَ اللَّهُ مِنْه».

وروى البيهقي في (شعب الإِيمان) عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بِئْسَ الْعَبْدُ الْمُحْتَكِرُ، إِنْ أَرْخَصَ اللَّهَ الأسْعَارَ حَزِنَ، وَإِنْ أغْلَاهَا فَرِحَ».

هـ ـ الميسر:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ أكل أموال الناس عن طريق الميسر، وهو القمار بكل أنواعه وأشكاله وصوره.

وقد وصف الله الميسر بأن رجس من عمل الشيطان، فقال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

إنّ المال الذي يؤكل عن طريق القمار هو من الظلم والبغي على حقوق الآخرين، ولو كان بتراضي المتقامرين، لأنهما لا يتقامران إلاّ وعلى فكر كلٍّ واحد منهما غشاوة شيطانية تصوّر له أنه سيكون هو الرابح، ولو علم أنه سيخسر لا محالة فإنه لا يقامر، فهو طامع مطموس

البصيرة، مدفوع بالأمل الكاذب، والله تعالى لا يسمح للمؤمن أن يكون فريسة أوهامه ومطامعه، حتى يندفع إلى خسارة يكون بها نادماً على ما بدأ من عمل، ومعلوم تماماً أن أحد المتقامرين لا بدّ أن يكون خاسراً لا محالة.

والمال الذي يؤكل بالقمار ليس تعويضاً عن جهد يبذل لصالح دافع المال، وليس بدلًا عن شيء ذي قيمة يدفعه آخذ المال وليس منحة يمنحها باذل المال بحريّة تامة، وإنما هي حيل شيطانية تلبس ثوب عمل قائم على التراضي بين المتقامرين، ليسلب كل منهما مال صاحبه مستخدماً ما لديه من حيلة ودهاء ومهارة في الحركة.

والسلب القائم على المقامرة يشبه من يتقاتلان ظلماً وعُدواناً، على أن الغالب منهما هو الذي يسلب حياة الآخر، ثم ماله وأرضه وكلّ ما هو له.

يضاف إلى ذلك ما في القِمَار من رِجْسٍ آخر يتمثل بالعداوة والبغضاء اللذين يورثهما، ويتمثل بأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ثم ما يورثه من إتلاف للجملة العصبية، وما يرافقه من منكرات أخرى.

و ـ السرقة:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ أكل أموال الناس عن طريق السرقة.

وحماية لأموال الناس من أيدي اللصوص، قرّر الإسلام أنّ من ثبتت عليه السرقة دون شبهة، وكان من أهل التكليف، وكان ما سرقه يساوي رُبْعَ دينار فأكثر، وعند أبي حنيفة يساوي عشرة دراهم فأكثر، يعاقب بقطع يده، وهذا حدّ شرعي فرضه الله على الحكم الإسلامي، والمجتمع المسلم.

قال الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يده».

أي يسرق البيضة أولًا فيعتاد حتى يسرق ما قيمته ربع دينار فأكثر فتقطع يده إذا انكشف أمره، ورفع إلى حكم الإسلام.

أو كان القطع بأقلِّ مقدار يساوي بيضة الدجاجة، ثم

حدّد الرسول ﷺ النصاب الذي تقطع فيه اليد برُبْعِ دينار.

روى البخاري ومسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال:

«لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا بِرُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً».

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قَطَعَ النبيُّ ﷺ يَدَ سَارِقٍ في مِجَنٍّ ثَمَنُه ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ.

المِجَنّ: الترس.

وبتطبيق حدّ الإِسلام في القطع تحفظ الأموال والأرواح، ويستتب الأمن، وحين تركت بلادٌ كثيرة من بلاد المسلمين هذا الحدّ الشرعي انتشرت فيها جرائم السرقة والقتل بنسبة واسعة جدّاً، من أجل الحصول على الثراء غير المشروع.

وتبعت هذه البلاد النظم الوضعية المستوردة من أوروبا، فانتقلت إليها أوبئة الجرائم الموجودة في بلاد غير المسلمين، وضعفت بترك حدود الإِسلام شروط الأمن، فكثرت الجرائم، وفسد حال المجتمع، وكانت البلاد في عافية من معظم هذا الفساد الذي انتشر، لو أنّها حافظت على تطبيق أحكام الشريعة الإِسلامية، التي تردع الناس متى نفذت في عدد قليل من المجرمين، والتجربة الواقعية في بعض بلاد المسلمين أثبتت ذلك.

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ متى رفع إليه أمر السارق أمر بقطع يده، وقال:

«لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

ثبت هذا في الصحيح، كما جاء في حديث المرأة المخزومية التي سرقت، وأراد بعض المسلمين أن يشفعوا لها عند رسول الله ﷺ، فدفعوا لذلك أسامة بن زيد.

وروى النسائي عن عائشة قالت: أتي رسول الله ﷺ بسارقٍ فقطعه، فقالوا: ما كنّا نُراك تبلغ به هذا، فقال:

«لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ لَقَطَعْتُهَا».

ز ـ الغلول:

ومِنْ أكل أموال الناس بالباطل، وهو حرام وظلم، أن يأخذ الولاة والموظفون من الأموال العامة بغير حق، فمن فعل ذلك فقد غلّ، قال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

وروى الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا، أَوْ لَيْسَ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِماً، أَوْ لَيْسَ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئاً سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ».

وروى الترمذي عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلمّا سرت أرسل في أثري فَرُدِدْتُ، فقال:

«أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصِيبَنَّ شَيْئاً بِغَيْرِ إِذْنِي فَإِنَّهُ غُلُولٌ ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لِهَذَا دَعَوْتُكَ، فامْضِ لِعَمَلِكَ».

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الْغُلُولَ فعظّمَهُ وعظّم أمره، ثم قال:

«لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِه بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً قَدْ بَلَّغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِه فَرَسٌ لَها حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي؟ فأقول: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً قَدْ بَلَّغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ،

فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً قَدْ بَلَّغْتُكَ».

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن بريدة عن النبي ﷺ قال:

«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَىٰ عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقاً فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ».

وروى مسلم وأبو داود واللفظ له عن عديّ بن عَميرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يَا أَيُّها النَّاسُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ لَنَا عَلَىٰ عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِنْهَ مِخْيَطاً فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غَالٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

فقام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، اقبل عنّي عملك. قال: «وما ذاك؟» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَأْتِ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ، وَمَا نُهِيَ عَنْهَ انْتَهَىٰ».

ح ـ الرشوة:

ومن الغلول الرشوة، بل هي أقبح، لأنها تفسد ضمير ذي السلطان، وتجعله يهضم الحقوق الخاصة والعامة من أجل مصلحة الراشي.

وأقبح الرشوة ما يأخذه القضاة، فبها يعين القاضي الظالم على ظلمه، ويعطيه حقَّ غيره بسلطة القضاء، وبها قَد يُبرِّىء القاضي الجانِيَ والمجرم.

وبالرّشوة يَفسُد جهاز الدولة كلُّه، ويغدو ألعوبة بأيدي المجرمين وأصَحابِ الأهواء والظالمين الذين لهم أموالٌ يبذُلُونَها رِشْوةً لمن بأيديهم السلطان أو شيء منه.

ولذلك لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي، والرائش الذي يمشي بينهما.

روى أبو داود وابن ماجه والترمذي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عَمْرو قال: لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ.

ورواه الترمذي عن أبي هريرة أيضاً.

وروى أحمد والبيهقي في (شعب الإِيمان) عن ثوبان، قال: لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرّاشِيَ وَالْمُرتَشِيَ وَالرَّائِشَ.

يعني بالرائش الوسيط الذي يمشي بينهما.

وحين يفسد جهاز الحكم ولا يستطيع صاحب الحقّ أَنْ يَصِل إلى حقه إلا برشوة يبذلها لذي السلطان فماذا يفعل؟

الظاهر في مثل هذه الحالة التي لا يجد صاحب الحق معها وسيلة أخرى يصل فيها إلى حقه، فإنّ بذله للرشوة لِيَصِلَ إلى حقِّهِ، دون أن يهضم حقّ أحد لا يجعله مشمولًا باللّعن الذي ورد في الحديث والله أعلم. وهي ظلامة يدفعها لإنقاذ حقه من يد ظالم.

ولكنّ الأمة التي تصل إلى مثل هذه الحالة أُمَّةٌ محكوم عليها بالنتائج الوخيمة، وبالهلاك المحقَّقِ.

روى الإِمام أحمد بسنده أنْ النبي ﷺ استعمل رجلًا من الأزد يقال له: ابن اللُّتْبِيَّةِ عَلَىٰ الصدقة، فَجَاءَ فَقَال: هَـذَا لَكُـمْ، وهَـذَا أُهْـدِيَ لِـي،فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال:

«مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ عَلَىٰ عَمَلٍ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي!! أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي أَحَدُكُمْ مِنْها بِشَيْءٍ إلّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، إنْ كَانَ بَعِيراً لَهُ رُغَاءُ، أَو بَقَرَةً لَها خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ».

ثم رفع يَدَيْهِ حتى رأينا عُفْرَتَي إِبطيهِ، ثم قال: «اللَّهُمْ هَلْ بَلَّغْتُ»؟.

أَوْ شاةً تَيعَرُ: أي: تَصِيح، يقال لغة: يَعَرَتِ الشاةُ تيْعَرِ، إذا صاحت. اليُعَارُ: صوت الغنم او المعزَىٰ.

ط ـ الغصب والنهب وغير ذلك:

ومن أكل أموال الناس بالباطل وهو حرام وظلم أنواع أخرى من أخذ أموال الناس بدون حقّ مشروع، كالغصب، والنهب والسلب بالقوة، واستيلاء الحكام على أموال الرعيّة ظلماً وعدواناً بسلطان القوة، أو بالقرارات والقوانين الظالمة الآثمة المنافية لمقتضيات الحق والعدل.

ومن أكل أموال الناس بالباطل الْغَبْنُ الفاحش في البيع والشراء، لأنّ فيه استغلالاً لغفلة الإِنسان عن القيمة الحقيقية للسِّلْعَة، وتغريراً له حتى يدفع ثمناً باهظاً في سلعة لا تُساوي هذا الثمن، وليس في عُرْفِ الناس أن يتغابنوا في حدود هذا الفرق الكبير.

* * *

الفصل الثالث

خلق الصبر وبعض فروعه وظواهره السلوكيّة وأضدادها

وفيه أربع مقولات:

المقولة الأولى: الشرح التحليلي للصبر ومجالاته وفضله.

المقولة الثانية: الصبر عند المصائب وكلّ ما يجلُب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

المقولة الثالثة: الحِلْمُ من فروع خلُق الصَّبْر.

المقولة الرابعة: الرفق من فروع خُلُقِ الصَّبْر.

المقولة الأولى

الشرح التحليليّ للصبر ومجالاته وفضله

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة؛ خلُق الصبر.

ويأتي في مقابل هذا الأساس خلقُ عدم الصبر، وإليه ترجع مجموعة من النقائص الخلقية في السلوك الإِنساني، مثل سرعة التضجر وعدم التحمُّل، والعجلة الرّعناء في الأمور، وسرعة الغضب، وعدم الأناة، وأشباه ذلك.

تعريف الصبر:

الصبر قُوة خلقية من قوى الإِرادة، تمكّن الإِنسان من ضبط نفسه لتحمّل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع، والسأم والملل، والعجلة والرعونة، والغضب والطيش، والخوف والطمع، والأهواء والشهوات والغرائز.

وبالصبر يتمكن الإِنسان بطمأنينة وثبات أن يضع

الأشياء في مواضعها، ويتصرّف في الأمور بعقل واتِّزان، وينفذ ما يريد من تصرّف في الزمن المناسب، وبالطريقة المناسبة الحكيمة، وعلى الوجه المناسب الحكيم، بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرّع والعجلة، فيضع الإِنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، فيخطىء في تحديد الزمان، ويسيء في طريقة التنفيذ وفي وجهه، وربما يكون صاحب حقٍّ أو يريد الخير، فيغدو جانياً أو مفسداً، ولو أنه اعتصم بالصبر لسَلِمَ من كلّ ذلك.

مجالات الصبر:

للصبر مجالات كثيرة في حياة الإِنسان، منها المجالات التالية:

أ ـ فمن الصَّبْر ضبط النفس عن الضجر والجزع عند حلول المصائب ومسّ المكاره.

ب ـ ومن الصّبر ضبط النفس عن السأم والملل، لدى القيام بأعمال تتطلّب الدأب والمثابرة خلال مدّة مناسبة، قد يراها المستعجل مدّة طويلة.

ج ـ ومن الصّبر ضبط النفس عن العجلة والرعونة، لدى تحقيق مَطْلَب من المطالب المادّية أو المعنوية.

والإِنسان بطبعه عجول، يصعب عليه انتظار تحقيق الأمور في أوقاتها، ويريد استعجال الأشياء قبل أوانها، وفي الكلام السائر: صاحب الحاجة أرعن لا يروم إلّا قضاءها.

د ـ ومن الصَّبر ضبط النفس عن الغضب والطيش، لدىٰ مثيرات عوامل الغضب في النفس، ومحرِّضَات الإِرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتّزان في القول أو في العمل.

هـ ـ ومن الصّبر ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس؛ حتى لا يَجْبُن الإِنسان في المواضع التي تحسن فيها الشجاعة وتكون خيراً، ويقبح فيها الجبن ويكون شراً.

و ـ ومن الصّبر ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها، حتى لا يندفع الإِنسان وراء الطمع في أمرٍ يقبح الطمع فيه.

ز ـ ومن الصَّبْر ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها، كُلَّما كان هذا الاندفاع أمراً لا خير فيه.

ح ـ ومن الصَّبْر ضبطُ النفس لتحمّل المتاعب

والمشقات والآلامِ الجسدية والنفسية، كلّما كان في هذا التحمّل خيرٌ عاجلٌ أو آجل.

فضل الصبر:

وفضل الصبر آتٍ من أنّه تعبيرٌ عن قوة الإِرادة، وعن كمال العقل، والبُعْدِ عَن الطيش والرُّعُونة، وتعبيرٌ عن الحكمة في معالجة مشكلات الحياة.

يضاف إلى ذلك أنه في مستواه الرفيع ثمرة من ثمرات الفهم عن الله، وتدبّر حكمته العظيمة في تصريف الأمور، وامتحان عباده في هذه الحياة، وثمرة من ثمرات الرضى عن الله فيما تجري به مقاديره، ولذلك كان الصبر ضياء، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي مالك الحارث الأشعري إذ قال: «والصبر ضياء»[1].

ويضاف إلى ذلك أيضاً أنّه السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من إصلاح خَصْمِه أو الظفر به، وأنّه أعظم

---

(١) ونص الحديث بكامله: «الطهور شطر الإِيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كلّ الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها».

خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا، ولذلك قال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

* * *

المقولة الثانية

الصبر عند المصائب وكلّ مايجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار

لقد أرشد الإِسلام إلى التحلّي بفضيلة خُلُق الصَّبْر عند المصائب، وعند كلّ ما يجلُب الآلام ويورِث المتاعب والأكدار.

ووجّه الإِسلام المؤمنين إلى الرضى بقضاء الله وقدره، في كلّ ما ينجزُه القضاء والقدر من أمره، وأبان للمؤمنين أنّ حكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا قد تقضي بأن يكون الابتلاء بالمكاره والمؤلمات، وأنّ ما يأتي به القضاء والقدر ممّا لا كسب للإِنسان فيه ولا مسؤولية عليه به هو خير في حقيقة أمره، وإن كان ظاهره مكروهاً وموجعاً، وإن كان في عرف الناس مصيبة من المصائب. وأبان للمؤمنين أنه ما يصيبهم من حسنة فمن فضل الله وواسع رحمته وجوده، وما يُصيبهم من سئة فبسبب من أنفسهم.

ووعد الإِسلام الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له، وابتغاء مرضاته.

وفيما يلي شرح لطائفة من النصوص الإِسلامية في ذلك:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ المصائب المؤلمة، في الأنفس، أو في الأجسام، أو في الأموال، أو في الثمرات، قد تكون نوعاً من الإمتحان في ظروف الحياة الدنيا، لقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ والابتلاء هو الامتحان.

وقد أرشد هذا النصّ إلى التحلّي بفضيلة الصبر في مجال الإِصابة بالمصائب المختلفة، والتي منها مصائب الخوف، ومصائب الجوع، ومصائب النقص من الأموال، ومصائب النقص من الأنفس، ومصائب النقص من الثمرات.

وأبان النصّ أنّ من آداب الصابرين على المصائب التي تأتيهم من عند الله لابتلائهم، وامتحان إيمانهم، واختبار تسليمهم ورضاهم بما يجري به قضاء الله وقدره، أن يقولوا: إنّا لله وإنا إليه راجعون، معلنين بهذا أنّ كل شيءٍ هو مملوكٌ لله، وأنه إلى الله يرجع.

واشتمل النصّ على البشارة من الله للصابرين، إذ يقول تبارك وتعالى فيه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ وهذه البشارة قد جاءت بأمرين محبوبين عظيمين:

الأمر الأول: أنّ عليهم صلوات من ربّهم.

الأمر الثاني: أنّ عليهم من ربّهم رحمة.

وقد استحقوا البشارة بهذا الجزاء الكريم لأنهم هم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون في الطريق القويم.

إنّهم لما صبروا ابتغاء مرضاة الله استحقّوا أنواعاً من رحمة الله وغفرانه، ومن أجل ذلك كان عليهم صلوات من ربّهم، ولمّا أعلنوا رضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به مقاديره، بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، استحقوا نوعاً آخر خاصّاً من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقات التي استحقوها بالصبر.

ومن هذا ندرك: أن رحمة الله أنواع كثيرة، وقد أشارت الآية إلى هذه الأنواع بعطف الرحمة على الصلوات من الله، مع أنّ الصلوات من الله هي أيضاً رحماتٌ منه.

٢ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ففي قول الله تعالى في وصفْ المخبتين: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ إشادةٌ بفضيلة خلُق الصبْر على المصائب، وقد قُرنت هذه الفضيلة بفضيلة وجل القلوب عند ذكر الله، وفضيلة إقامة الصّلاة، وفضيلة الإِنفاق في سبيل الله.

فالمخبتون في الاصطلاح الشرعي هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرون على ما أصابهم، والمقيمو الصلاة، والمنفقون مما رزقهم الله ابتغاء مرضاته.

وأصل الخَبْتِ في اللّغة العربية: الأرض المنخفضة

المطمئنّة، والمخبتُ لربّه هو المتواضع الخاشع المطمئنّ.
وكأنّ هذه المعاني التي وردت في وصف المخبتين مأخوذة من الإِخبات المادّي، وهو اللجوء إلى الأرض المنخفضة المطمئنّة، على سبيل التواضع والسكينة، ثمّ حمل لفظ الإِخبات معنى التواضع والخشوع والطمأنينة، أو تكون هذه المعاني من لوازم المعنى اللّغوي لهذه اللفظة، فمن كان مخبتاً لربّه، أي: متواضعاً خاشعاً مطمئناً، كان في صفاته أنه إذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا ابتلاه الله بمصيبة صبَرَ على ما ابتلاه به، ومن كان مخبتاً لربّه كان لا بدّ أن يكون مقيماً للصلاة المفروضة مؤدّياً للزكاة، قائماً بحقّ الله عليه.

المصائب مكفّرات للذنوب:

حين يعلم المؤمن أن الله يمتحِنُه بالمصائب ليختبر مقدار صبره ورضاه عن ربّه، وليكتب له الأجر العظيم عنده، فإنه يجد نفسه مدفوعاً لتحمّل المصائب بصبر ورضىً عن الله.

وحين يعلم أنّ الله يثيبه فيكفّر عنه من ذنوبه وخطاياه بالمصائب التي يصيبه بها، فإنه يزداد اندفاعه لتحمّل المصائب بصبر ورضىً عن الله.

وقد أبان الرسول صلوات الله عليه ما للمصائب وإن صغُرت من أثرٍ عظيم في تكفير الذنوب والخطايا، فمن ذلك ما جاء في الأحاديث التالية:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، ولَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذىً وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

النَّصَب: التعب. **الوصَبُ**: المرض.

٢ ـ وروى البخاري ومسلم، عن ابن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك[١] فقلت: يا رسول الله، إنّك توعك وعكاً شديداً، قال:

«أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُمْ» قلت: ذلك أنّ لك أجرين؟ قال:

«أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذىً، شَوْكَةً فَمَا فَوْقَها إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُه كَمَا تَحُطّ الشَّجَرَةُ وَرَقَها».

---

(١) الوعك: مغث الحمّى، وقيل الحمى.

٣ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْه».

٤ ـ وروى الترمذي بإسناد حسن عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِه، حَتَّىٰ يُوَافَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَىٰ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ».

٥ ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللَّهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

فقانون الصبر على المصائب والآلام الَّتِي تَنْزِلُ بالمسلم يرجع إلى عنصرين:

الأول: تكفير الخطايا والسيئات، وهذا من تعجيل العقوبة على الذنوب.

الثاني: منح الأَجْرِ عليها، وهَذا مِنْ فَضْلِ الله وَرَحْمَتِه بِعِبادِهِ المؤمنين.

ومن البديع أن التربية على الصبر والرضى عن الله في المصائب والآلام؛ قد جاءت بأسلوب بَيَانِ أَجْرِ المسلم على ما يَنْزِلُ به من مصيبة وما يَمَسُّهُ من ألم.

النهي عن تمني الموت تخلصاً من المصائب:

وحين يعلم المؤمن أنّ صبره على المصائب والآلام مكفّر لسيئاته، ورافع لدرجاته، ويسجِّل له مع كلِّ شعور بألم أجرٌ عند الله تعالى، يناله ثواباً عظيماً وكرامة عنده في دار الجزاء، يرى أنه في خير عظيم وفضل جسيم من الله تعالى، ويرَى أنّ تمنِّيه الموتَ تخلصاً من المصائب هروبٌ من الحياة، وفرار من مسؤولية الابتلاء، وخروج من سُوقِ تجارة رابحة أضعافاً مضاعفة، لذلك فهو لا يتمنّى الموت ليتخلّص من مصائبه وآلامه، ويُلاحِظُ المؤمِنُ أنَّ طُولَ أَجَلِه فُرْصَةٌ له ليزيد من حسناته إن كان من المحسنين، وليَتوُبَ ويُصْلِحَ مِنْ حَالِهِ إنْ كَانَ من المسيئين، لكلّ ذلك نهى الرسول ﷺ الذين آمنوا عَنْ تمنّي الْمَوْتِ.

روى البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا يَتمنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِناً فلعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ».

يَسْتَعْتِبُ: أي يرجع عن الإساءة ويطلب الرضى بالتوبة والندم والاستغفار والعمل الصالح.

أي فهو أحد رجلين:

إمّا أن يكون محسناً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يزداد إحساناً وأعمالًا صالحة.

وإمّا أن يكون مسيئاً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يتوب ويستغفر ويعْمَلَ صالحاً، ويكفّر عن سيئاته.

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

«لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤمِنَ عُمْرُهُ إِلّا خَيْراً».

فأبان الرسول ﷺ أن المؤمن لا يزيدُه طولُ عُمْرِه إلّا خَيْراً، وأنّ عليه أن يواجه مسؤوليّاته في الحياة بُقوّة إرادةٍ وصدقِ عزيمة، وصبرٍ وصُمودٍ وكدحٍ ومجاهدة، ليغتنم من حياته ما يستطيع اغتنامه لآخرته.

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي».

وهذا الحديث يدلّ على أنّ الأفضل للمؤمن أن لا يتدخل في طلب الموت من ربّه مطلقاً، وأن يترك أمر الأجل لمقادير الله في خلقه، ولحكمته في عباده.

ولذلك لم يدعُ خبّاب بن الأرتّ على نَفْسِه بالْمَوْتِ، مع أنّه وَصَلَ إلى حالة رأى فيها أنّ الموت أحبُّ لَهُ مِنَ الحياة.

روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خبَّابِ بن الأرَتّ رضي الله عنه نعوده، وقد اكتوى سبع كيّات، فقال: «إنّ أصحابنا الذين سلَفوا مَضَوْا ولم تنقصهم الدنيا، وَإِنّا أَصَبْنَا مَا لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعاً إلاّ التّرابَ. ثم قال: ولولا أنّ النبي ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ».

وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلاّ التراب: أيّ: أَصَبْنَا مِنَ المال ما لا نجد له موضعاً نَضَعُهُ فيه، إلاّ أَنْ نَبْنِيَ بِه ونَعْمُرَ بُيُوتاً وَبَسَاتِينَ.

وقد حدّث خبّاب نفسه بالموت ولم يطْلُبْهُ، مخافة أن تنقص الدنيا والأموال التي زادت عنده عن منزلته عن أصحابه الذين سَبَقُوا إلى ربّهم، قبل أن تفتح الدنيا على المسلمين.

* * *

المقولة الثالثة

الحلم، من فروع خلق الصبر

ومن فروع خلق الصبر الْحِلْمُ، إذ الحلْم هو الأناة والتثبت في الأمر، وما يلزم عن ذلك من ضبط للنفس عن الغضب، كظم للغيظ، وعفوٍ عن السيئة.

والحليم هو ذو الأناة الذي لا يستفزّه الغضب إذا واجه ما يُغْضِبُه، ولا يتسرع بالعقوبة، بل يضبط نفسه، ويتريث، وبعد الأناة يتصرف على وفق مقتضيات الحكمة، وكلّ ذلك لا يكون إلّا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، وهو وجه من وجوه الصبر.

ولمّا كان الحلْمُ أَحَد فروع الصبر جاء في أسماء الله الحسنى اسْمُ الله (الحليم) وقد ذكر العلماء أن معناه الصَّبُور الذي لا يستخفه سبحانه عصيان العصاة ولا يستفزّه الغضب عليهم، ولكنّه جعل لكلّ شيء مقداراً فهو مُنْتَهٍ إليه. وذكروا أيضاً أن معناه الذي لا يعجل بالانتقام من عباده المجرمين، ليفسح لهم مجالات التوبة والندم،

وليقيم الحجة عليهم بأنّهم لم يُصلحوا قلوبهم وأعمالهم بعد الحلم الطويل بهم. وهذه المعاني لا تخرج عن معاني الصبر، وفي وصف الله تعالى بأنه حليم قال عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

الصفات الخلقية المضادة لصفة الحلم:

أمّا الصفات الخلقية المضادة لصفة الحلم فأمرها ظاهر من تعريف خلق الحلم. وهي:

١ ـ العجلة الرعناء في تصريف الأمور، وفي القيام بالأعمال، وفي الحكم على الأشياء، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والسرعة في العقاب دون إمهال تقتضيه الحكمة التربوية.

٢ ـ الطيش كلّما ثارت في النفس ثائرة، وكلّما تحرّك في النفس دافع من الدوافع لتحقيق مطلب من المطالب.

٣ ـ سرعة الغضب حينما يصطدم الإِنسان بما يثير غضبه أو يخالف هواه.

وليس من الحلم التباطؤ والكسل، والتواني والإِهمال، وتبلّد الطبع عند مثيرات الغضب، ونحو

ذلك، بل هذه أمور مضادة أيضاً لخلق الحلم.

إنْ الحلم فضيلة تقع بين رذيلتين متباعدتين، في طرفين متقابلين، فمن وراء يمين الحلم يأتي التباطؤ والكسل، والتواني والإِهمال، وتبلّد الطبع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك. ومن وراء يسار الحلم يأتي التسرّع في الأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والاستجابة السريعة لمثيرات الغضب، ونحو ذلك.

ولما كان الحلم هو الفضيلة الخلقية التي تأتي بالخير، وتدلّ على سلامة المزاج واعتداله، وعدم جنوحه ذات اليمين أو ذات الشمال، كان ما يتجاوزه يميناً أو شمالًا منافياً له، ونقصاناً خلقيّاً لا يأتي بالخير المطلوب، بل قد يأتي بالشرّ والضرّ أو الأذى.

فالذي جعل الحلم فضيلة خلقية هو اعتداله، ومسايرته لمقتضى العقل السليم، والآثار النافعة المفيدة الخيّرة التي تترتّب عليه.

وباستطاعتنا أن نصوّر الحلم بأنّه فضيلة خلقية نافعة، تقع في قمة عالية دُونَها مُنْحَدَرات. فهو أناة حكيمة بين التسرّع والإِهمال أو التواني، وضبطٌ للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانةٌ بين الطيش وجمود الإِحساس، وهكذا.

وللحلم دائرة ذات حدود فما خرج عنها إلى غيرها أضرّ وأفسد، وخرج من دائرة الفضيلة.

وما قد يسمّى حلماً إذا أدّى إلى ما لا تحمدُ عقباه فهو ليس بحلم، وهو حينئذٍ ليس فضيلة خلقية، وتسميته حلماً خطأ في التقدير، بل هو في حقيقته تباطؤٌ أو إهمالٌ لا حلم.

* * *

المقولة الرابعة

الرفق، من فروع خلق الصبر

وقد يكون من فروع خلق الصبر الرفق، لأن الرفق في الأمور، والرفق في معاملة الناس، لا يكون إلا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل حُبِّ العُنْفِ والقسوة، وهذا وجه من وجوه الصبر.

وقد يشارك خُلُقُ الرَّحمْةِ خُلُقَ الصبر في ظاهرة الرفق، فمن يشعر نحو غيره بشعور الرحمة يكون في معاملته رفيقاً لا عنيفاً، إذْ يدفعه إلى الرفق به رحمته به.

وقد ينفرد كلٌّ من خلُقِ الرَّحمة وخُلُق الصبر في ظاهرة الرفق، وكثير من ظواهر السلوك الخلقي قد ترجع إلى أكثر من أساس من الأسس الأخلاقية العامة، فتكون إحداها ظاهرة لها مجتمعة أو منفردة.

والرفق هو ظاهرة خلقية يضادها العنف، فهو من ظواهر خلق الصبر، أو من ظواهر خلق الرحمة، أو من ظواهرهما معاً.

وقد أوصى الإِسلام بالرفق وحث عليه، واعتبر المحروم منه محروماً من خير كثير، وذلك لأن الرفق في الأمور من شأنه أن يُصْلِح ويعطي أفضل النتائج وأجود الثمرات، بخلاف العنف فمن شأنه أن يفسد ويعطي نتائج سيئة. إن العنف في معالجة الآلة يكسرها، وفي مقارعة الخطوب يحطم الطاقات ويدمر القوى، ويحرم من الظفر بالنتائج المطلوبة. أما الرفق بالأحياء فهو رحمة توجبها الفضيلة الإِنسانية، وتدعو إليها المشاركة الوجدانية الكريمة. فإذا كانت الأحياء من ذوات الإِرادة المدركة فإن الرفق بها من شأنه أن يصلح نفوسها ويؤثر فيها أثراً حسناً، ويستعطفها إلى المطلوب منها أفضل استعطاف، ومن شأنه أن يُلَيِّن عريكتها وإن كانت صلبة جافة قاسية، بخلاف معاملتها بالعنف، فإنه يولد لديها صلابة التحدي والعناد، وعدم الاستجابة للمطلوب منها، وإن كان حقّاً وخيراً، وإن كانت لينة العريكة في فطرتها.

والعنف في معاملة الناس يورث العداوات والأحقاد ورغبات الانتقام، متى سنحت الفرصة لتنفيذه.

أما الرفق في معاملة الناس، فهو يؤلف قلوبهم، ويمتلك موداتهم، ويطوعهم، ولا سيما رفق الراعي برعيته في إدارة شؤونهم، وتسيير أمورهم، وفرض الطاعة عليهم.

ومن أجل ذلك أمر الرسول ﷺ بالرفق، وحذر من العنف، وخص الرعاة بتوجيه خاص، فحذرهم من العنف برعاياهم ومن التشديد عليهم.

أحاديث نبوية في الرفق:

١ ـ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ رَفِيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ سِوَاهُ».

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

٢ ـ وروى مسلم عن عائشة أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال لها:

«عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

٣ ـ وروى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي؛ أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

أي: يحرم خير العمل الذي استخدم فيه العنف،

وانعدم فيه الرفق، وذلك لأن أسلوب العنف أُسْلُوبٌ لا يأتي بخير.

٤ ـ وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا:

«اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فاشْقُقْ عَلَيْهِ، ومَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ».

وتشديد الرسول ﷺ في هذا يدل على أن حاجة الرعاة إلى الرفق أعظم من حاجة غيرهم إليه، فهو عنصر من عناصر القيادة الناجحة، التي يُرْتَقب لها الاستمرار والقبض على أزمة قلوب الأفراد.

وليس المراد من الرفق اللين في المواقف التي تتطلب الشدة، ولكنه حسن السياسة بوجه عام، ما لم تدع الضرورة إلى شيء من العنف والشدة.

٥ ـ وروى الترمذي بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يُحَرَّمُ عَلَىٰ النَّارِ أَوْ بِمَنْ تُحَرَّمُ عَلَيْهِ النَّار؟ تُحَرَّمُ عَلَىٰ كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ».

٦ ـ وروى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّروا، وبَشِّرُوا وَلَا تُنفِّرُوا».

ومعلوم أن التَّيْسِيرَ مِنَ الرفق بالناس.

٧ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: بال أعرابيٌّ في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ:

«دَعُوهُ، وأَرِيقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».

سَجْلًا أو ذنوباً: أي دلواً مملوءةً ماءً.

فدلت هذه النصوص على أن الرفق في الأمور والرفق بالناس واللّين والتيسير من جواهِرِ عُقُودِ الأخلاق الإِسلامية، وأنها من صفات الكمال، وأن الله تعالى من صفاته أنه رفيق، وأنه يحب من عباده الرفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه، ويعدهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيءٍ آخر.

ويفهم من النصوص أن العنف شين خلقي، وأنه ظاهرة قبيحة، وأن الله لا يحبه من عباده، فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، أي حسَّنة وجمله، ولا ينزع من شيء إلا شانه، أي قبَّحه.

أما قول الرسول ﷺ «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»: فهو على سبيل المبالغة، أو أن بعض أحوال

العنف تحرم الإِنسان من الخير كله، كأن يدفع العنف صاحبه إلى التمرد على الله والكفر به، وعندئذٍ يحرم حتماً من الخير كله، لأن الخير حقّاً هو خير الآخرة، ومن حرم خير الآخرة فقد حرم الخير كله، أو أن العنف في أي أمر من الأمور يفضي إلى الحرمان من الخير كله في ذلك الأمر، لأن العنف يفسده، ومتى فسد الأمر لم ينتج خيراً، ولعل هذا الأخير هو المراد والله أعلم.

وأبان الرسول ﷺ أن القريب الهين السهل يحرَّم على النار، والسبب في ذلك أنه لين لدعوة الإيمان، رفيق القلب رفيق النفس رفيق السلوك، سهل الانقياد إلى الخير، ليِّنٌ لا يتشدد في تعامله مع الناس، ولا يقسو عليهم، ليس في خلقه وعورة بل هو سَهْلٌ، فالله يكافئه على كل ذلك بالرفق، فيعفو عنه ويصفح ويجازيه من جنس عمله الجزَاءَ الأَوْفَىٰ.

رفق الدعاة والمعلّمين:

وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن بخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة.

أما العنف فمن شأنه التنفير من الداعي الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والتنفير من المعلم. إن من توجه له الدعوة إلى الخير، أو يراد تعليمه، متى وجد العنف والشدة انكمشت عاطفته فانغلق قلبه، ومتى انغلق قلبه انغلق فكره، وعندئذ يصير كصخرة صماء، ترجع ولا تمتص، أو كلوحة من ماء تلين للكاتب ولكن لا تحفظ ما يكتب عليها، أو كمرآة تحكي الصورة ما دام الأصل قائماً، فإذا سار الأصل سارت الصورة معه ولم تحتفظ المرآة بها.

بخلاف الداعي أو المعلم الرفيق الحليم ذي الأناة، فإنه يملك القلوب بالمحبة، وعندئذٍ تتفتح له القلوب التي أحبته، ومتى انفتحت إليه الأفكار، وتأثرت به وتفاعلت معه، آتت دعوته وأعماله ثمراتها طيبة يانعة.

رفق الولاة والحكام وأضداد ذلك:

ومن الواجب على الولاة والحكام أن يرفقوا بالرعية، ولا يشقوا عليهم، فالرفق بهم حكمة رفيعة في السياسة، والعنف يورث الكراهية والتذمر والضجر والخروج عن الطاعة، وفساد أمر الجماعة.

لذلك دعا الرسول ﷺ فقال:

«اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِم فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِه».

ودعاء الرسول هذا مستجاب، وهو تأكيد لسنة الله في عباده القاضية بأن الجزاء من جنس العمل.

وروى البخاري ومسلم عن عائذ بن عمرو، أنه دخل على عبيد الله بن زياد، فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ»

الرِّعَاء: جمع مفرده «الراعي».

الْحُطَمَةُ: الراعي العسُوفُ العنيف ،الذي يسُوق قطيعَه بعنف حتّى يتزاحم فيحطم بعضه بعضاً.

* * *

المقولة الخامسة

الأناة في الأعمال، من فُروعِ خلق الصبر

الأناة: هي التصرّف الحكيم بين العجلة والتباطؤ، ولا تكون الأناة في الأعمال ـ مع ملاحظة أنّ الإِنسان بفطرته عجول ـ إلاّ بخلق الصبر.

فالأناةُ مظهر من مظاهر خُلُق الصبر، وهو من سِمَات أصحاب العقل والرزانة، بخلاف العجلة فهي من سِمَات أصحاب الرُّعُونَةِ والطيش، وهي تدلّ على أن صاحبها لا يملك الإِرادة القوية القادرة على ضبط نفسه تجاه انفعالاتها العجولة، وبخلاف التباطؤ والتواني، فهما من سمات أصحاب الكسل والتهاون في الأمور، ويدلّان على أن صاحبهما لا يملك الإرادة القوية القادرة على دفع همته للقيام بالأعمال التي تحقق له ما يرجو، أو ليس لديه همة عالية تنشد الكمال، فهو يرضى بالدنيّات، إيثاراً للراحة، وكسلًا عن القيام بالواجب.

إن أناة الإِنسان تسمح له بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه لكثير من الخطأ والإخفاق، وتعرضه للتعثر والارتباك، ثم تعرّضه للتخلّف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه. وبخلاف التباطؤ فهو أيضاً يعرّضه للتخلف والحرمان من تحقق النتائج التي يرجوها.

فالأناة هي المواءمة في مقدار السرعة بين حركة العمل وما يتطلبه الأمر المقصود بالعمل منها، فما يتطلب من الأمور عملًا سريعاً فالحكمة فيه السرعة إذن، وهي لا تخرج عن الأناة، فالقضية نسبية، وما يتطلب من الأمور عملًا بطيئاً فالحكمة فيه البطء إذن، وهو لا يخرج عن الأناة، لأن القضية نسبية، وما من مقدار من السرعة قل أو كثر إلا وفوقه أسرع منه وتحته أبطأ منه، ولكلّ أمر يراد تحقيقه مقدار ما من السرعة من العمل خاضع لسنن الله في كونه، إذ جعل الله لكل شيء قدراً. فَلِتَكَوُّنِ الْجَنِينِ سُرْعَةٌ محدَّدة، ولاستنبات الزروع والثمار سُرْعاتٌ تلائم كل صنف منها، ولإِنضاج الْعِظَامِ مقدار من الزمن يختلف عن إنضاج اللَّحْمِ أو الخضراوات، وهكذا إلى سائر الأمور في الكون. فمن نقص من الزمن المطلوب

فهو عجول خائب ومن زاد على الزمن المطلوب فهو متباطىء خائب ومن وافق الزمن المطلوب وفق سنن الله في كونه فهو الحكيم العاقل ذو البَصَرِ والأناة.

فليس للأناة مقادير زمنية ثابتة، ولكنها تختلف باختلاف حاجة الأشياء إلى مقدار السرعة الزمنية، فهي إذن المواءمة بين مقدار السرعة في الحركة وبين الحاجة الحقيقية التي تستدعيها النتائج المطلوبة. إن الجريح المشرف على خطر الموت قد يتطلّب إسعافه مقداراً كبيراً من السرعة، فالتخفيف منها توانٍ وتباطؤ، والزيادة عليها ربما يكون تعجّلًا مفسداً مُسِيئاً.

وليس من الأناة ولا الرزانة في شيء أن يفكر الإِنسان طويلًا ليعرف أفضل وجه يتفادى فيه خطر صخرة هاوية في اتجاهه من الجبل، والحال أن بينها وبينه مقدار زمن يسير جدّاً، إن العقل والحكمة والرزانة في مثل هذه الحال تكون بسرعة تفادي الخطر دون طيش ولا اضطراب، وهذا من أناة النفس وحكمتها، وإن ظهر في العمل سرعة فائقة، إلا أن هذه السرعة هي الحركة الواجبة للغاية المطلوبة.

لقد ظهر لدينا أن الأشياء مرهونة بأوقاتها، والعجلَةُ فيها مع معرفة أوقاتها المطلوبة خلق مذموم يدل على

ضعف خلق الصبر، والتباطؤ فيها خلق مذموم يدل على ضعف الهمة والإخلاد إلى الراحة، والأناة هي السلوك المطوب، وهي ليست تعجُّلًا ومسابقة لأوقات الأشياء، ولا تباطؤاً وكسلًا.

كلٌّ من العجلة والتباطؤ يضيعان على أصحابهما الجهد، والزمن، وما بذلوه من رؤوس أموال مادية، والأناة هي الكفيلة بتحقيق المطلوب، وتفادي الخسارة، ضمن سنن الله ومقاديره.

التوجيهات الإِسلامية:

والإِسلام يذم الاستعجال وينهى عنه، ويذم التباطؤ وينهي عنه، ويمدح الأناة ويأمر بها، وقد عمل على تدريب المسلمين على الأناة، وعلى التريث الحكيم في القيام بالأعمال وفي تصريف الأمور، إنه يطلب من القاضي أن يتأنى ويفكر طويلًا قبل أن يصدر حكمه، ويطلب من السلطان أن يتدبر الأمور قبل تصريفها.

ويأمُر الرسول صلوات الله عليه بالأناة والتؤدة والسكينة لدى القيام إلى الصلاة، وهكذا.

ومن توجيه الإِسلام إلى الأناة جعله الطلاق على ثلاث مراحل.

وفيما يلي مجموعة من النصوص الإسلامية:

١ ـ نهى الله تبارك وتعالى رسوله محمداً صلوات الله عليه عن أن يعجل بتلاوة القرآن الذي يوحى إليه قبل أن يقضى إليه وحيه، فقال له في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

وقال له في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَقُومُوا حَتَّى تَرَوْنِي قَدْ خَرَجْتُ».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا».

السعي: هو المشي بسرعة، وهو فوق المشي ودون الرَّمَل.

٣ ـ وروى مسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأشجِ عبد القيس:

«إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ».

٤ ـ وروى الترمذي عن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيّ، أن النبي ﷺ قال:

«الْأَنَاةُ مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ».

* * *


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الرابع

خلُق حب العطاء وبعض فروعه وظواهِره السلوكيّة وأضدادها

وفيه ثلاث مقولات:

المقولة الأولى: الشرح التحليلي لخلق حبّ العطاء ومجالاته.

المقولة الثانية: الإيثار وبواعثه.

المقولة الثالثة: الوصيّة بعطاء.



المقولة الأولى

الشرح التحليلي لخلق حب العطاء ومجالاته

(١)

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والظواهر والمفردات الخلقية المحمودة، خلق حب العطاء. ولهذا الخلق آثار اجتماعية كريمة عظيمة، وهو عنصر من عناصر علو الفطرة وسمو الطبع، وارتقاء الإِنسانية، ورجاحة العقل.

ويأتي في مقابل هذا الأساس ضيق النفس، وشعورها بالأنانية المفرطة، التي ينجم عنها البخل، والشح، وكراهية العطاء، والرغبة بالاستئثار بكل شيء، والرغبة بالتسلط على كل شيء، وقبضُ النفس واليد عن البذل والإِنفاق على الغير، من مال، أو جاه، أو علم، أو غير ذلك. ولهذا الخلق المقابل آثار اجتماعية سيئة جدّاً، وهو عنصر من عناصر هبوط الفطرة،

ودناءه الطبع، ونقص الإِنسانية، والحرمان من رجاحه العقل.

* * *

العطاء الأسمى من صفات الله:

إن أعظم درجات العطاء الذي لا حدود له، والذي لا يكون ابتغاء عوض هو من صفات الخالق جل وعلا. ولذلك جاء في أسماء الله الحسنى: الوهاب، والرزاق، والكريم.

وعطاء الله سبحانه وتعالى فيض لا ينقطع ولا ينتهي، وهو في كل الأحوال مرتبط بعلمه وحكمته، فهو يعطي خلقه وفق مشيئته التي تقتضيها حكمته، دون أن يكون له غاية من عطائه سبحانه أي عوض يرجوه من خلقه، وأما عبادة عباده له فهي لخيرهم وسعادتهم، ولترقية أرواحهم وتزكية نفوسهم.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يمدّ بعطائه في الدنيا أهل طاعته، وأهل معصيته، حتى الكافرين به والجاحدين له.

قال الله تعالى في سورة (الإِسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

فهذا النص يفسر الظاهرة المشهودة في دنيا الناس، فيبين أن الله تبارك وتعالى يُمِدُّ عباده بالعطاء غير المحظور، أي: الذي لا تستطيع مَنْعَهُ قُوَّةٌ غير قوة الله. فهو يُمدّ أهل الدنيا الذين يريدون العاجلة، ولكن ما لهم في الآخرة من نصيب، بل لهم فيها العذاب جَزَاءَ كُفْرِهم وعصيانهم. ويُمِدُّ بعطائه طلاب الآخرة، ويدخر لهم العطاء الآجِلَ الأعظم إلى يوم القيامة، فيمنحهم بذلك عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، فضلًا منه وكرماً.

أما عطاء الدنيا فمشمول بقانون الابتلاء، الذي يخضع له المؤمنون والكافرون على سواء.

وأما عطاء الآخرة فهو عطاء الفضل العظيم، الذي يحرم من يحرم منه ضمن قانون الجزاء، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

غير مجذوذ: أي غير مقطوع، والْجَذُّ في اللغة القطع.

وقد زاد الله في فضله وإكرامه، فسمى هذا العطاء أجراً، مع أنه في الحقيقة والواقع من محض فضله وجوده، فقال الله تعالى في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

غير ممنون: أي غير مقطوع.

ونظيره قوله تعالى في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

وتتساءل النفوس: لماذا لا يبسط الله الرزق لعباده في الدنيا ويوسع عَطاءَهُ بل هو يُنَوِّع لهم الأحوال فيبسط ويقدر؟

والجواب: أن حكمه الامتحان في ظروف هذه الحياة

الدنيا تقتضي ذلك، إذْ يمتحن الإِنسان بالبسط والتوسعة، ويمتحن بالقبض والتضييق، وليس التضييق على بعض الناس أو في بعض الأحوال بخلًا ولا إمساكاً، وإنما هو مشمول بحكمة من حكم الله العظمى، إذ كيف يتم امتحان بعض الناس في المجالات التي يطلب فيها الشكر بالبذل والعطاء، ويطلب فيها تزكية النفس من داء البخل والشح؟ وكَيْفَ يَتِمُّ امْتِحَانُ بعضهم في المجالات التي يُطْلَبُ فيها الصبر والرضى عن الله والقناعَةُ والتسليم لله في مقاديره، وتتزكية النفس من داء الحسد؟ ولو بسط الله الرزق لجميع عباده لتعطل الامتحان بالشطر الثاني.

ومن الحكم التي يشتمل عليها التنويع بين البسط والتضييق، لفت نظر الإِنسان إلى أن الله هو الخالق الرزاق، فإذا أمسك رزقه لم يجد الإِنسان غير الله يرزقه، فيتعظ بذلك العقلاء، فيؤمنون بالله، ويطلبون أرزاقهم منه، قال الله تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴿٢١﴾﴾.

وأشار الله إلى أن له حكماً جليلة في كل من بسطه الرزق لعباده وتضييقه، فقال تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

واستغل الخبثاء من يهود هذه الظاهرة المشمولة بالحكمة الربانية، فاتهموا الله سبحانه وتعالى بالْبُخْلِ، ليُبَرِّرُوا لأنفسهم أقصى درجات الشح، فقالوا: يد الله مغلولة. قال الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ ﴿٦٤﴾﴾.

فإنفاقه تعالى يكون بحسب مشيئته، ومشيئته تعالى مشمولة بحكمته.

ومن حكمة الله في عدم بسطه الرزق لعباده في ظروف هذه الحياة الدنيا، ألا يكون بسط الرزق لهم سبباً في بَغْيِهِمْ، وقد لفت القرآن النظر إلى هذه الحكمة، فقال الله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

على أن ظروف هذه الحياة الدنيا ـ دار الابتلاء ـ لا

تستحق أن يوسِّع الله فيها على المؤمنين به في الرزق، لأنه تعالى قد ادَّخر لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في نعيم مقيم خالد، سيأتي لا محالة في دار الجزاء، ولولا الخوف على المؤمنين من أن يفتتنوا وينضموا إلى صفوف الكافرين، لخص الله الكافرين ـ في ظروف هذه الحياة ـ بالرزق الواسع الكثير، ولجعل رزق المؤمنين فيها بقدر، ولكن هذا يفتن المؤمنين، فكيون الناس عندئذ أمة واحدة في الكفر، نظراً إلى حالة الضعف البشري في الناس.

قال الله تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾.

معارج: مصاعد يرتقون عليها.

زخرفاً: الزخرف الذهب الذي يزيَّن به.

لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي إلاَّ مَتَاعُ الحياة الدنيا.

ومن حكمة الله فيما يقضيه من تفاوت بين الناس في الرزق، أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً سخرياً، وهو ما يبينه الله في هذا النص بقول: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

(٢)

المجالات التي يشملها مفهوم العطاء

وتتنوع المجالات التي يشملها العطاء:

١ ـ فمنها العطاء من المال من كل ما يَمْتَلِكُ الإِنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكل مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، أو يؤوى إليه، وكل آلة أو سبب أو وسيلة ينتفع بها، وكل ما يتداوى به أو يقي ضُرّاً أو يدفع بأساً، إلى غير ذلك من أشياء يصعب إحصاؤها..

وفي هذا المجال معطاؤون، وفيه بخلاء وشحيحون.

٢ ـ ومنها العطاء من العلم والمعرفة. وفي هذا المجال مَنْ يُحِبُّونَ العطاء، وفيه بخلاء مُمْسِكُونَ ضنينون.

والمعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علماً ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضناً ورغبة بالاستئثار.

وبعض البخلاء بعطاء العلم إذا بذلوا منه شيئاً فإنما يبذلون منه بقدر، كأنهم يخشون النفاد مع أن المعارف والعلوم تَرْبُو بالعطاء فهي تزيد ولا تنقص؛ إلا أن دافع البخل في نفوسهم يجعلهم يضنون حتى في الأمور التي تزيد ولا تنقص، فسوابق أوهام نفوسهم التي سَيْطَرَ عَلَيْها أن العطاء ينقص من الأشياء التي يمتلكونها، هي التي جعلت نفوسهم تَكِزُّ عن عطاء العلم وتبخل به، دون أن تنير أجْوَاءَ نُفُوسِهِمُ المظلمة بصيرةٌ وَاعِيَةٌ، أو تخفف من غلواء أنانيتهم الضيقة أَخْلَاقٌ كريمة فاضلة.

ولما كان رسول الله صلوات الله عليه كامل الخلق، ومن كمال خلقه أنه جواد بعطاء ما يختصه الله به من معارف غيبية لم يأمره بكتمها، وصفه الله بخلق الجود في هذا المجال، فقال تعالى في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) متحدثاً عن القرآن وعن جبريل ثم عن الرسول ﷺ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ

﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

ففي وصف الله لرسوله بأنه ليس بِضَنِينٍ على الغيب - أي: ليس بشحيح ولا بخيل بعطاء المعارف والعلوم الغيبية التي يصطفيه الله بها - إثبات لصفة جوده صلوات الله عليه بعطاء العلم الذي يملك معرفته، ويسمح له ببذله.

٣ - ومنها عطاء النصيحة، فالإنسان الجواد الكريم النفس لا يبخل على أخيه الإنسان بأيِّ نصيحة تنفعه في دينه أو دنياه، بل يعطيه نصحه الذي ينفعه مبتغياً به وجه الله تعالى.

وقد ارتقى مفهوم النصيحة عند الرسول ﷺ حتى كان مساوياً للدين كله، ولذلك عرّف الرسول ﷺ الدين بأنه النصيحة، فقال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

ولذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أول الأركان الأساسية، التي تقوم عليها حِمَايَةُ المجتمع المسلم من الانحراف، وظاهر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة، وهو عطاء فيه تضحية، إذ قد يعرّض صاحبه لما يَكْرَهُ من قبل الناس.

٤ ـ ومنها العطاء من النفس، فالجواد يعطي من جاهه، ويعطي من عطفه وحنانه، ويعطي من حلو كلامه وابتسامته وطلاقة وجهه، ويعطي من وقته وراحته، ويعطي من سمعه وإصغائه، ويعطي من حُبِّه ورحمته، ويعطي من دُعَائِه وشفاعته.. وهكذا إلى سائر صور العطاء من النفس.

والبخيلُ يَبْخَلُ بأيِّ شَيْءٍ من ذلك.

٥ ـ ومنها العطاء من طاقات الجسَدِ وقُوَاه، فالجواد يعطي من معونته، ويعطي من خدماته، ويعطي من جهده، فيعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يحمل له عليها، ويُمِيطُ الأَذَىٰ عن طريق الناس وعن المرافق العامة، ويأخذ بيد العاجز حتى يجتاز به إلى مكان سلامته، ويمشي في مصالح الناس، ويتعب في مساعدتهم، ويسهر من أجل معونتهم، ومن أجل خدمتهم، وهكذا إلى سائر صور العطاء من الجسد.

والبخيل يبخل بأي شيء من ذلك.

٦ ـ ويرتقي العطاء حتى يصل إلى مستوى التضحية بالحياة كُلِّها: فالمجاهد المقاتل في سبيل الله يجود بحياته لإِعلاء كلمة الله ونُصْرَةِ دينه، ابتغاء مرضاة ربه. والذي

يؤثر أخاه بِشَرْبَةِ الماء، وهو على وشك الهلاك، لينقذ أخاه من الموت، يُضَحِّي ويَجُودُ بحياته من أَجْلِ غيره.

وهكذا تتنوع مجالات العطاء من المال، ومن العلم، ومن النصيحة، ومن النفس، ومن طاقات الجسد وقواه، ومن الروح والحياة.

* * *

المقولة الثانية

الإِيثار وبواعثه

الإِيثار مرتبة راقية جدّاً من مراتب خلق حب العطاء، إذ هو تقديم الإِنسان أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة إليه.

ولا شك أن من الصعب جدّاً أن يتجرد الإِنسان عن نفسه كل هذا التجرد، فيؤثر أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة شديدة إليه.

ومع ذلك فإننا نجد ظاهرة الإِيثار بنسبة جيدة عند الأمهات نحو أولادهن، إذ يؤثرنهم على أنفسهن في كثير مما يحتجن إليه في حياتهن، وقد نجدها عند الآباء نحو أولادهم، ونجدها عند المحبين والعشاق، ولا سيما في أحوال تأجج نار الحب والعشق، وتوهج لهيب الشوق، إذ يؤثر العاشق من يحب على نفسه بكثير مما يحب.

لكن كل هذه الصور من الإِيثار صُوَر ضيقة الدوائر، محدودة المواقع: أُمٌ تؤثر ولدها على نفسها، فإذا عاملت الآخرين عاملتهم بأنانية مفرطة. أَبٌ قد يؤثر ولده على

نفسه، فإذا عامل الآخرين عاملهم بأنانية مفرطة. عَاشِقٌ قد يؤثر من يُحِبُّ على نفسه، فإذا عامل الآخرين عاملهم بأنانية مفرطة.

أما الإِيثار المثالي، الذي لا ينحصر في دوائر ضيقة، ولا تدفع إليه عاطفة ثائرة، فهو الإِيثار الذي نجده عند المؤمنين الصادقين، الذين يعاملون الله تعالى، ويبتغون رضوانه، ويرجون الأجر عنده. فهؤلاء هم الذين تتسع دائرة الإِيثار عندهم، فحيثما وجدوا مرضاة الله في إيثار غيرهم على أنفسهم، توقد في قلوبهم الإِيمان، فآثروا على أنفسهم ابتغاء مرضاة الرحمن، ولو كان بهم خصاصة (أي: ضرورة أو حاجة) وقَدَّموا مصالح أنفسهم الدنيويَّة ضحايا وقرابين لتذبح على مذبح ابتغاء الخير والفضيلة، جوداً بها، وعطاءً غير محدود، وقد يبلغ بهم جود الإِيثار أن يقدِّموا أرواحهم وحياتهم ضحايا، فداءً لغيرهم، ولكن ابتغاء مرضاة الله.

بواعث الإِيثار:

أما الإِيثار الأدنى ذو الدوائر الضيقة، الذي يكون عند الأمهات والآباء والعشاق، فالباعث إليه أمر فطريٌّ في النفوس ينتج عنه حب شديد عارم، والحب من أقوى البواعث الذاتية الدافعة إلى التضحية بالنفس وكل ما

يتصل بها من مصالح وحاجات، من أجل سلامة المحبوب أو تحقيق رضاه، أو جلب السعادة أو المسَرَّة له.

إن الحب محرك ذاتي قوي وفعال، وهو في النفس مولد حراري لأية قوة أو مادة يلامسها داخل الأنفس، ومع ارتفاع درجة حرارة الأنفس بمس الحب ينسى الإِنسان ذاته، ويصبح أداة توجهها قيادة الحب، كما يوجه قائد السفينة سفينته بحركات يَسِيرة سَهْلة من مركز قيادته، وبهذا نفسر كيف يكون إيثار العشاق من يحبون بما يحبون، ما دام الحب هو الموجه في مركز قيادة أنفسهم.

أما الإِيثار المثالي الأسمى، الذي يكون عند الطراز الراقي من المؤمنين الصادقين، فهو ليس إيثاراً انفعاليّاً عاطفيّاً مجرداً، ولكنه إيثار يعتمد على محاكمة منطقيَّة سليمة، ويعتمد على عاطفة إيمانية عاقلة، وكذلك تكون أعمال المؤمنين بالله، الذين يحرصون على ابتغاء مرضاته.

ولمّا كانت مرضاة الله تعالى لا تنحصر في وجه من وجوه البر، أو في فرد معين من الأفراد؛ فإن تضحيات هؤلاء ومظاهر إيثارهم لا تنحصر كذلك، بل هي تساير اتجاه مرضاة الله.

والمحاكمة المنطقية لديهم قائمة على أن كل ما

يعملونه ابتغاء مرضاة الله مأجورون عليه عنده أضعافاً مضاعفة، في دار هي أعظم من هذه الدار، وحياة هي أجلّ وأكمل من هذه الحياة، فإيثارهم وتضحياتهم من قبيل التجارة الرابحة قطعاً، وقائمة أيضاً على ملاحظة أن كل عمل فيه تحقيق لمرضاة الله هو العمل الأفضل والأنفع والأصلح في الحياة.

والعاطفة الإِيمانية العاقلة لديهم قائمة على حب الله ورسوله، وحب ما يرضي الله ورسوله.

لذلك كان إيثار هذا الطراز الراقي من المؤمنين هو أرقى أنواع الإِيثار وأفضل صوره.

أمثلة من الإِيثار الأسمى:

١ ـ سجل الله للأنصار فضيلة إيثارهم إخوانهم المهاجرين، بكثير مما لهم به ضرورة أو حاجة، وفي ثنائه عليهم تحريض على الاقتداء بهم، فقال تعالى في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ففي هذا النص يُبَيِّن اللَّهُ تعالى فضل المهاجرين وفضل الأنصار، أما المهاجرون فقد ضحوا بأموالهم ومساكنهم وخرجوا مهاجرين من مكة، يبتغون فضلًا من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله. وأما الأنصار فقد استقبلوهم بالإِكرام، وآثروهم على أنفسهم بكثير من محابهم، حتى كان منهم من آثر أخاه من المهاجرين على نفسه، مع أن به خصاصة لما آثر به.

وقد بلغ من إيثارهم أن يكون للأنصاري زوجتان أو أكثر، فيقول لأخيه من المهاجرين: اختر ما تشاء منهن، حتى أطلقها من أجلك لتتزوجها إذا انقضت عدتها.

وفي غزوة بني النضير، لم يجد الأنصار في أنفسهم غضاضة أن يوزع الرسول ﷺ فيئها على فقراء المهاجرين، عفة منهم وإيثاراً، وشعوراً منهم بحق المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، فأصابهم الفقر بسبب الهجرة.

٢ ـ ومن لطائف قصص الإِيثار، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مَجْهُودٌ (أي: فقير جائع) فأرسل ﷺ إلى

بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلّهنّ مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.

فقال النبي ﷺ: «مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟».

فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلَىٰ رَحْلِه، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. وفي رواية، قال لامرأته: هَلْ عِنْدَكِ شيء؟

قالت: لا، إلا قوت صبياني.

قال: فَعَلِّلِيهِمْ بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوِّمِيهِمْ، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين[1]، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال:

«لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ».

ففي هذا الحديث قصة لطيفة من قصص إيثار الأنصار، وفيه بيان ما كان عليه الرسول ﷺ من إيثار لِشَظَفِ العيش، ولو شاء أن يكون ذا سعة لكان.

---

(١) طاويين: أي من غير عشاء.

٣ ـ وروى البخاري عن سهل بن سعدٍ، أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فقالت: نسجتها بِيَدَيَّ لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ مُحْتَاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره.

فقال فلان: اكْسُنِيَها مَا أَحْسَنَهَا!.

فقال: «نعم» فجلس النبي ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، ثم رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أَرْسَل بها إليه.

فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ مُحْتَاجاً إليها، ثم سألته، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا.

فقال: إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي.

قال سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

٤ ـ هذه التربية الإِسلامية هي التي جعلت أبا بكر رضي الله عنه يقدم كل ماله في موسم من مواسم البذل والعطاء، إذ دعا الرسول ﷺ فيه إلى البذل في سبيل الله. ولمّا سأله الرسول ﷺ: مَاذَا تَرَكْتَ لِعِيَالِكَ؟ قال: تركت لهم الله ورسوله.

وهي التي جعلت عمر بن الخطاب يقدم نصف ماله في سبيل الله، وهي التي جعلت عثمان بن عفان يجهز جيش العسرة.

وهي التي علَّمت الأشعريين أن يشتركوا فيما عندهم من طعام إذا قلَّ طعام عيالهم.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهَمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيةِ، فَهُمْ منِّي وَأَنَا مِنْهُمْ».

فللّه درُّ الأَشْعريّينَ، ما أحسن تعاونهم وتشاركهم وإيثارهم!.

* * *

المقولة الثالثة

الوصية بعطاء

من الناس من تغلب عليهم طَبيعةُ البُخْل طَوالَ حَيَاتِهِم، حتى إذا يئسوا من الحياة وأقعدهم المرض الْمُنْذِرُ بالموت، أخذوا يَتَبرَّعُونَ بِمَقَادِيرَ مِنْ أَمْوالِهِمْ، لِعِلْمِهِمْ بأَنَّها صَائِرةٌ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَيَكُونُ بَذْلُهُمْ إِمَّا عَلَىٰ سَبِيلِ الْوَصِيّة، وإما على سبيل العطاء المنجز.

وهذا تدارك حسن، رغّب به الإِسلام، وحث عليه، إلا أن الأحسن منه والأفضل عند الله، أن يتصدق المسلم وهو صحيح الجسم واسع الأَمَلِ بالحياة، تراوده مخاوف الفقر، وتطمع نَفْسُه بالثراء الواسع. أما بَذْلُ المال عند اليأس من الحياة، فهو بَذْلٌ من مالٍ سيخرج من ملكه حتماً، ويدخل في ملك غيره، والعطاء عن طريق الوصية صَدَقَةٌ تَصَدَقَّ الله بها على عباده، فأعطاهم حق التصرُّفِ بحدود ثلث أموالهم فقط، ليكتب ذلك في صحائف أعمالهم، ولولا هذا العطاء الإِلهي لكان تصرف الإِنسان

المضاف إلى ما بعد موته تصرفاً لا قيمة له، لأنَّه تصرف من مِلْكِ مَنْ جَعَل الله لَهُمْ حُقُوقاً في تَرِكَتِه. فالإِنسان متى مات انتهَتْ مِلْكِيَّتهُ لِأَمْوَالِهِ، وعاد الملك لمالك الملك جلَّ وعلا، ويوزع على المستحقين بالعطاء الإِلهي حسب التقسيمات التي فرضها الله.

ومن أَجْلِ ذَلِكَ يعتبر عطاء الإِنسان في حالة اليأس من الحياة، أو عطاؤه المضاف إلى ما بعد الموت، عطاءً ضعيف القيمة بالنِّسْبَةِ إلى العطاء في حالة الصِّحَّةِ والقوة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الصدَقَةِ أعظم أجراً؟ قال:

«أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَىٰ الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلْ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ».

وقد كان لفلان: أيْ إنَّ المال صَائِرٌ حتماً بعد موت الموصي لفلانٍ ما، سواء أكان لمن يأخذه على سبيل صَدَقَةٍ، أو لمن يأخذه على سبيل الميراث، فكأن الْمُوصِي يتصَّدقُ من مال غيره.

ولكن ليس معنى هذا أنه لا قيمة للصدقة على سبيل الوصية، إنما الغرض بَيَانَ أفضلية الصدقة المنجزة، حينما

يكون الإنسان صحيحاً في جسمه، شحيحاً بماله، يخشى الفقر والحاجة، ويَأْمُلُ الْغِنَىٰ لما تَبَقَّىٰ مِنْ عُمْرِه.

وروى أحمد والنسائي والترمذي وصححه عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الَّذِي يَتَصَدَّقُ عِنْدَ مَوْتِهِ أَوْ يُعْتِقُ كَالَّذِي يُهْدِي إِذَا شَبِعَ».

* * *

الفصل الخامس

خلق سماحة النفس

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: الشرح التحليلي لخلق سماحة النفس وفوائد سماحة النفس ومضار نَكَدِها.

المقولة الثانية: ترغيب الإسلام في سماحة النفس وتنفيره من نكدها.



المقول الأولى

الشرح التحليلي لخلق سماحة النفس وفوائده ومضار نكد النفس

(١)

من الأسس العامّة التي ترجع إليها مجموعة من الظواهر الخلقيّة المحمودة سماحة النفس.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي ما يمكن أن نسمّيه بخُلُق نكد النفس وعسرها وتشدُّدها، وترجع إليه مجموعة من الظواهر الخلقية الذميمة في السلوك الإِنساني.

والناس على اختلاف مستوياتهم في الذكاء واختلاف نماذِجهم الخلقية يوجد فيهم من يتمتعون بخلق سماحة النفس، فهم هيّنون لينون سمحاء، ويوجد فيهم آخرون نكدون متشدّدون يتذمّرون من كلّ شيءٍ لا يوافق هواهم، ويريدون الدّنيا كلّها أن تكون على وفق شهواتهم وأهوائهم الآنية المتجدّدة، أو على وفق ما يرون أنه

الأفضل والأصلح والأحسن، فلا يستقبلون الأحداث بسماحة نفس، ولا يستقبلون ما لا يوافق هواهم من أشياء بسماحة نفس، بل يستقبلونها بتمعُّرٍ في وجوههم، ونكدٍ وتسخُّطٍ في نفوسهم، وسبٍّ وشتمٍ وتذمُّرٍ في اللسان. وَيترقّبون المستقبل بتشاؤم وحذر.

أمّا سمحاء النفوس فإنّهم يكونون هيّنين ليّنين، يتقبلون ما يجري به القضاء والقدر من خيرٍ أو شرٍّ بالرضى والتسليم، ويحاولون أن يجدوا لكلّ ما يجري به القضاء والقدر حكمة مُرْضِيَةً، وإن كان مخالفاً لأهوائهم، ويراقبون دائماً قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

ويردّدون في أنفسهم عند كل أمرٍ يكرهونه معنى قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

من أجل ذلك يستقبلون كلّ ما يأتيهم من قِبَل الله بالرضى والتسليم، ويلاحظون جوانب الجمال في كلّ ما تجري به المقادير، ويُغْضُون عن جوانب القُبْح التي قد تكون فيها بحسب تقديرهم. فهم هَيِّنُون لِيِّنُونَ رَاضُون

مُتَسَامِحُون، لا يسخطون إلا إذا وجدوا أمراً يُسْخِط الله تعالى، عندئذٍ يغضبون لغضب الله. أمّا ما فيه رِضَىٰ الله فإنهم يرضون به لرضى الله.

وَهم يترقبون المستقبل بتفاؤل وأمل، كما يستقبلون الواقع بانشراح لما يحبّون وإغضاءٍ عمّا يكرهون، وبذلك يُسعدون أنفسهم، ويُريحون قلوبهم بالرضى والتسليم.

وهذا من كمال العقل، إنّ العاقل هو الذي يكون واقعيّاً، فيسعد نفسه وقلبه بالواقع الذي لا يملك دفعه ولا رفعه. ويكون واقعياً فيعامل الناس بالتسامح، لأنه لا يملك أن يطوّع الناس جميعاً لما يريد، فالناس الآخرون ليسوا جماداتٍ تُطوَّع، ولكنهم مثله أصحاب نفوس مختلفة، وطبائع متباينة، وإراداتٍ لا يطابق بعضها بعضاً.

وأما أصحاب النفوس النَّكِدةِ العسيرة المتشدّدة فإنهم قلّما يرضيهم شيء، بل يحاولون أن يجدوا في كلّ شيءٍ أو عمل جوانب قبيحة تنفّرهم منه، بل تكاد عيونهم لا ترى من الأشياء أو الأعمال إلّا جوانب قبحها، فلا يرون في البدر إلّا كَلَفَهُ، ولا يشاهدون في شجرة الورد إلّا شَوْكَها، ولا يرون في الجبل الشامخ إلّا أنّه عقبة في طريق السالكين، ولا يرون في الصيف إلّا أنّ شمسه محرقة، ولا يرون في الشتاء إلّا أن بردَهُ مؤذٍ ومُزْكِم،

ولا يرون في كتاب عظيم النفع إلّا ما فيه من أخطاءٍ وسَقَطَاتٍ، ولا يرونَ في الطعام اللّذيذ إلّا الشعرة التي سقطت فيه خطأً.

إن النَّكِدَ المحروم من خلق سماحة النفس إذا نظر إلى وجه جميل أخذ يبحث فيه عن بثرةٍ ليعيبه بها، وإذا تعرّف على رجل ذي كمال واستقامة أخذ يبحث له عن عَثْرَة لِيُنَقِّصَهُ بها، وهكذا ديدنه، نَكِدٌ عَسِير مُتَشَدِّد، بحّاثٌ عن العيوب والقبائح، لا يرضيه شيء، ولا يسرُّهُ شيء، حتى نَفْسُه وأَعْمَالُه.

وخلق نكد النفس شقاءٌ على صاحبه، إذ يحرمه من أن يُسْعِدَ نفسه بشيء.

(٣)
فوائد سماحة النفس ومضارّ نكدها

يستطيع سمح النفس الهيّن اللّين أن يغنم في حياته أكبر قسط من السعاة وهناءة العيش، لأنه بِخُلُقِه هذا يتكيف مع الأوضاع الطبيعية والاجتماعية بسرعة مهما كانت غير ملائمة لما يحب أو لما تهوى نفسه، ويستطيع أن يستقبل المقادير بالرضى والتسليم مهما كانت مكروهة للنفوس.

ويستطيع سمح النفس الهيِّنُ اللّيّن أن يظفر بأكبر قسط من محبّةِ الناس له، وثقة الناس به، لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب، والتغاضي عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النّصح كان في نصحه رفيقاً ليّناً، سمحاً هيّناً، يُسِرّ بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسدُّ الثغرات، ولا ينشر الزّلات والعثرات. ويعامل الناس أيضاً بالسماحة في الأمور المادّيَّة، فإذا باع كان سمحاً وإذا اشترى كان سمحاً، وإذا أخذ كان سمحاً، وإذا أعطى كان سمحاً، وإذا قضى ما عليه كان سمحاً وإذا اقتضى ما له كان سمحاً.

ويجلب سمح النفس الهيّن لنفسه الخير الدنيوي بتسامحه، وذلك لأنّ الناس يحبّون المتسامح الهيّن اللّين، فيميلون إلى التعامل معه، فيكثر عليه الخير بكثرة محبّيه والواثقين به.

ويجلب سمح النفس الهيّن اللّين لنفسه رضى الله تعالى والخير الأخرويّ العظيم، ما ابتغى بسماحته رضوان الله عزّ وجلّ.

أمّا نَكِدُ النَّفْسِ العسير الشديد فإنه يحرم نفسه من كلّ الفوائد التي يظفر بها السمح الهيّن اللّين، فهو في معظم أحواله متذمّر غير سعيد، ذامٌّ مُشاكس متّضجر طعانٌ لعّانٌ

سيّءُ المعاشرة، مكروهٌ من الناس، تنفر منه الطباع، وتتحاشاه الأبصار والأسماع، ويتجافى عنه الناس اتِّقَاءَ نَكَدِهِ وشرّه، ولا يتعاملون معَه إلا مضطرين، فَيُحْرَمُ بذلك من خير دنيوي كثير، وأخيراً يحرم نفسه من حبّ الله ورضاه، لأنه كثير التسخط على مقاديره.

والنَّكِدُ العسير الشديد يكره من كان مثله، فينفر منه ولا يحب معاشرته ولا التعامل معه، فإذا اضطرا إلى ذلك لَمْ يَصْبِرِ كلٌّ منهما على صاحبه، فإما أن يختصما وإما أن يتفرقا.

وما أحسب أحداً تعامل مع الناس إلّا مرّ عليه منهم نَكِدُون فَتَحَاشَاهُمْ وتجافى عنهم، وآثر البعد عن معاشرتهم والتعامل معهم.

* * *

المقولة الثانية

ترغيب الإسلام بسماحة النفس وتَنْفِيرُهُ مِنْ نَكَدِهَا

١ ـ دعا الرسول ﷺ للسمحاء بأن يرحمهم الله، فقد روى البخاريّ عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحاً إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَىٰ».

وفي رواية أخرى:

«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحاً إِذَا بَاعَ، سَمْحاً إِذَا اشْتَرَىٰ، سَمْحَاً إِذَا قَضَىٰ، سَمْحاً إِذَا اقْتَضَىٰ».

أي: سمحاً إذا قضى الحقَّ الذي عليه، سمحاً إذا اقتضى الحقّ الذي له.

٢ ـ ووصف الرسول ﷺ المؤمنين بأنّهم هيّنون ليّنون سُمحاء، إشعاراً بأنّ هذا الخلُقَ مِنْ ثمراتِ التَّرْبِية الإِيمانية.

روى الترمذي في حديث مرسل عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجَمَلِ الآنِفِ، إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنْ أُنِيخَ عَلَىٰ صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ».

والجملُ الآنِفُ: هو الذّلول السهل الذي يُطِيع صاحبه ولا يعصيه، فهو يأنف من الزّجر والضرب، ولا يُخوِجُ صَاحِبَهُ إليهما ولا إلى أحدهما.

ولا غرو أن للتربية الإِيمانية أَثَرها في تربية خلق السماحة ولين الجنب، وسهولة النفس، والبعد عن كلّ نكد وعسر وشراسة، وغلظة وفظاظة.

٣ ـ وجاء في كلام الرسول ﷺ الترغيب العظيم بالعافية من النار لمن كان هيّناً ليناً قريباً سهلاً، والترهيب الشَّدِيد بالحرمانِ من دخول الجنة لمن كان غَليظاً فَظّاً.

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يُحَرَّمُ عَلَىٰ النَّارِ وَبِمَنْ تُحرَّمُ النَّارُ عَلَيْهِ؟ علَىٰ كُلِّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ».

رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وعن حارثه بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْجَوَّاظُ وَلَا الجَعْظَرِي».

رواه أبو داود في سننه والبيهقي في شعب الإِيمان.

وجاء في تفسير الجوّاظِ والْجَعْظَرِيّ: أنَّه الْغَلِيظُ الْفَظُّ.

٤ ـ وشبه الرّسول ﷺ الناس في أخلاقهم وطباعهم بالأرض، فالهينون كهيِّنها، والقساة النكدون كحزْنِها، والطيبون كطيبها، والخبيثون كخبيثها، ويتضمن هذا التشبيه مدحاً للهينين الطيبين، وذمّاً للقساة النكدين الْعَسِرين.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْض، مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، والْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، والْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ والطَّيِّبُ».

(رواه أحمد والترمذي وأبو داود بإسنادٍ صحيح).

ونظم بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

النَّاسُ كَالْأَرْضِ وَمِنْهَا هُمُ
فَمِنْ خَشِنِ الطَّبْعِ وَمِنْ لَيِّنِ

فَــجَــنْــدَلٌ تَــدْمَــىٰ بِــهِ أَرْجُــلٌ
وَإِثْــمِــدٌ يُــوضَــعُ فِــي الْأَعْــيُــنِ

فالنفس السمحة كالأرض الطيبة الهينة المستوية، فهي لكلّ ما يرادُ منها من خير صالحة، إن أردت عبورها هانت، وإن أردت حرثها وزراعتها لانت، وإن أردت البناء فيها سهلت، وإن شئت النوم عليها تمهّدت.

أمّا النفس النكدة الشديدة العسيرة، فهي مثل الأرض السبخة الوعرة، لا تطيب ولا تهون ولا تلين لأي عمل يراد فيها، ولا لأي مصلحة تقصد منها.

٥ ـ وكان الرسول محمد صلوات الله عليه أعظم أسوة حسنة في سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة، وكمال الخلق، فكان بأخلاقه صلوات الله عليه صاحب دعوة عملية للتحلي بهذا الخلق، وبسائر فضائل الأخلاق، ومَحَامِد السلوك.

ولم يكن صلوات الله عليه نَكِداً ولا صعباً ولا فظّاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرّقة ولِينِ الْجَانِب ولُطْفِ الحديث، إِذْ نَفَىٰ عَنْهُ الْفَظَاظَةَ وَغِلَظَ الْقَلْبِ، فقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ... ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: لستَ يا محمد فظّاً في أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرقة واللطف والرحمة، في واقع حالك الخلقي، وليس من شأنك ولا من شأنِ أي داعٍ يدعو إلى الله أن يكون فظّاً أو غليظاً، لأن هذين الخُلُقينِ منفران ويجعلان الناس ينفضون من حول الداعية إلى الله والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر .




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل السادس

خلق علوّ الهمّة وبعض فروعه وظواهره السلوكية

وفيه أربع مقولات.

المقولة الأولى: الشرح التحليلي لخلق علوّ الهمة وموقف الإسلام منه.

المقولة الثانية: الجدّ في العمل وعدم التواني والكسل.

القولة الثالثة: الحياء من ظواهر خلق علوّ الهمّة.

المقولة الرابعة: الترفُّع عن محقرات الأمور وصغائرها ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، والزهد في الدنيا.



المقولة الأولى

الشرح التحليلي لخلق علوّ الهمة
وموقف الإسلام منه

(١)
الشرح التحليلي

من الأسس الأخلاقية العامة الفاضلة: علو الهمّة. وترجع إلى هذا الأساس الأخلاقي مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجدّ في الأمور، وكالإِباء والترفّع عن الصغائر والدنايا، وكالطموح إلى المعالي.

وبمقدار ارتفاع درجة علوّ الهمة ترتفع نسبة الظواهر الخلقية التي ترجع إليه، وترتفع قيمتها، وبمقدار انخفاض درجة هذا الخلق تأتي نِسَبٌ من الظواهر الخلقية غير الفاضلة المضادّة للظواهر الفاضلة لخلق علوّ الهمّة، فتأتي مثلًا ظواهر الكسل والتسفُّل والضّعة والاستخذاء والرضى بالدّنايا والصغائر، وتعلّق النفس بها.

والذي دعا إلى اعتبار علوّ الهمة أحد الأسس

الأخلاقية، أنه قد يوجد وقد ينعدم مع مختلف نسب الذكاء، ومعلوم أنّ الذكاء هو الوسيلة لتقدير الأمور حقّ قدرها، ومع ذلك فإننا نجد اثنين على مستوى واحدٍ من الذكاء، إلا أن أحدهما عالي الهمة صاحب جدٍّ وطموحٍ وترفُّعٍ عن الصغائر والدنايا، أمّا الآخر فوضيع الهمةَ كسولٌ ميّال إلى الهزل، رضيٌّ بالصغائر والدنايا. فلا بد أن نعزو هذا الفارق بينهما إلى أثر اختلاف العناصر الخلقية بينهما، ولنسمِّ ذلك علوّ الهمة في الجانب الكريم منه، ونزول الهمّة أو الدناءة في الجانب غير الكريم منه، مهما كانت العناصر النفسية التي تكوّن منها هذا الخلق، في طرفه الفاضل الرفيع، أو في طرفه القبيح الوضيع.

(٢)

موقف الإِسلام من خلق علو الهمة

والإِسلام يحثّ على علوّ الهمة، ويحرص على تربية المسلمين على هذا الخلق الكريم، وعلى كلّ الظواهر الخلقية الرفيعة التي ترجع إليه.

فمن الملاحظ في الإِسلام أن الإِيمان والعمل قرينان، والعمل هو الظاهرة المادّية لعلو الهمة في النفس، والعمل هو التحرك الهادف الجادّ الذي تبذل فيه طاقة من الطاقات، لتحقيق غاية من الغايات.

ومن الملاحظ في الإِسلام أنه يعمل على ترقية غايات المسلمين إلى الغايات الرفيعة المثلى، وهذا إعلاءٌ لهمتهم النفسية، ورفع لها عن الصغائر والدنايا، وأخذٌ بيدها إلى معالي الأمور.

وقد كانت حياة الرسول ﷺ مليئة بألوان تربية المسلمين على خلق علوّ الهمة، الذي يستلزم الجدّ والإِباء والترفّع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى المعالي.

ومن تربية الإِسلام المسلمين على خلق علّو الهمّة توجيههم لكسب أرزاقهم عن طريق الكدح والعمل والمشي في مناكب الأرض، وتوجيههم للترفّع عن مسألة الناس ما لم تدعُ الضرورة إليها، وتعريفهم بأن الْيَدَ العليا خير من اليد السفلى، وتوجيههم للتنافُسِ والتسابق في فعل الخيرات، والتنافس والتسابق إلى معالي الأمور، ورفيع المنازل بالعمل الصالِح والمكتسبات الإِرادية الخيرة، وتعويدهم الجدّ في أعمالهم، والقيام بها بهمّةٍ ونَشَاطٍ، وأَمَرَهُمْ بالجهاد ومُجَاهَدَة النفس، والجهاد أقصى مراتب العمل الجاد.

وفي مقابل ذلك ذمّ الإِسلام التواني والكسل، وأمر بالبعد عن الهزل واللّهو واللّعب وكلّ أمرٍ لا فائدة ترجى

منه، وأمر بالبعد عن سفاسف الأمور، والترقّع عن الدنايا والمحقرات، والزهد بالدنيا طلباً لما هو أجلُّ وأعظم، وأبقى وأخلد، ألا وهو النعيم المقيم في جنّات النعيم الخالد.

وكان رسول الله ﷺ وسائر رسُل الله يتحلّون بخلق علّو الهمة، وارتقى الأمر ببعضهم حتى كان من أولي العزم، ولذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى يكون من أولي العزم، فقال له في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴿٣٥﴾﴾.

ووضع الإِسلام المسلمين في موضع قيادة الخلق إلى الحقّ، وحمّلهم تبعات هذه القيادة، وفي هذا غرس لخلق علوّ الهمّة في نفوسهم، ودفع شديد لهم حتى يتحلّوا بكلّ ظواهرها، ويسيروا في السبل التي لا تُجتازُ إلّا بعلّو الهمّة، ويحاولوا اختراق الصعاب وتحمّل المشقات، والاستهانة بما يعترضهم من آلام، طموحاً إلى المجد الذي يصبون إليه بعلوّ همتهم.

ولمّا كان مجد الآخرة أعظم المجد كان ابتغاؤه أَعظَمَ الغايات، وكان هو الهمّ الأكبر للمؤمنين الصادقين

ذوي الهمم العليّة، والنفوس الكبيرة الزكية. أما الدنيا فإنها في نظرهم ـ مهما بلغت أمجادها ـ قليلة القيمة في جنب الآخرة، لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا.

وكلّما عَلَت همة الإِنسان كانت مطالبه أسمى، وصَغُرَتْ في عينه المطالب الدنيا، فلا يهتمّ لها كثيراً، ولا يتتبّعها إلا بمقدار الحاجات؛ ولذلك فهو لا يدنّس نفسه بالدناءات ومحقرات الأمور، ولا يبذل رأس مال حياته من جهد وطاقة وعمر فيما لا جدوى منه، فضلًا عن أن يبذل شيئاً من ذلك فيما فيه مضرّة له أو لغيره، من المضرّات بالدين أو المضرّات بالدّنيا.

فخُلُقُ عُلُوِّ الهمة مع حُسْنِ الْبَصَرِ بالأمور وتقديرها حق قدرها، يبعد صاحبه عن المعاصي والآثام، لأنها دنايا ومستقذرات. ويدفع صاحبه لمجاهدة نفسه عن شهواتها الجانحة، تزكية لها، وإعلاء من شأنها. ويدفع صاحبه أيضاً للتسابق في ميادين الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات، للظفر بمراتب المجد الرفيع في الآخرة، لأنها إنما تنال بذلك. ويدفع صاحبه أيضاً للتسابق في ميادين المعرفة للظفر بالدّرجات الرفيعة التي

فضّل الله بها العلماء. ويدفع صاحبه أيضاً للتحلّي بأفضل مكارم الأخلاق، للظفر بمرتبة القرب من الله ورسوله، والظفر بالذِّكْرِ الْحَمِيد في الدنيا دار الفناء، وفي الآخرة دار الجزاء. فهو وسيلة عظيمة من وسائل الارتقاء في سلّم كلِّ مَجْدٍ عَظِيم، ولَكِنْ بشرط أن يقترن بحسن التبصّر بالأمور، وتقديرها حقَّ قَدْرِها، وإلّا ضاعت طاقات الإِنسان هدْراً، وتَاهَتِ اندفاعاته، وكانت عزائمه أُلْعُوبةً في أَيْدِي شُذُوذاته الفكريّة.

* ولخلق علّو الهمة ظواهر في السلوك تنجم عنه، وفيما يلي شرح لطائفة منها:

* * *

المقولة الثانية

الجد في العمل
وعدم التواني والكسل

من ظواهر خلق علوّ الهمة في السلوك الجدّ والنشاط في العمل، وعدم التواني والكسل، وعدم التباطؤ وعدم التهاون.

والجدّ والنشاط في أعمال الخير التي ترضي الله تعالى في سمات المؤمنين الصادقين الذين يراقبون الله ويرجون اليوم الآخر، إنهم كلما دعاهم داعي العمل إلى فعل الخير قاموا إليه بحيوية ونشاطٍ جادّ. يدعوهم الداعي إلى الجهاد في سبيل الله فيطيرون إليه كالصقور رجالًا أو ركباناً. ويدعوهم الداعي إلى الصلاة من جوف الليل، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع. ويناديهم المنادي إلى العلم والمعرفة فيقفزون لتناوله ولو كان في الثريّا. وتتحرك فيهم الدوافع إلى اكتساب الرزق، فيبكرون إليه، لينالوا من بركة دعوة الرسول ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها».

والمؤمنون الصادقون يكرهون الكسل ويحتقرونه ويستعيذون بالله منه، ويدعون بدعوة الرسول ﷺ:

«اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجَالِ».

ومن كان صاحب همة عالية لم يقبل واحدةً مِنْ هذه الخصال، لأنها ظواهر لا تتلاءم مطلقاً مع خلق علّو الهمّة.

وذمّ الله التكاسل والتباطؤ وجعلهما من صفات المنافقين.

قال الله تعالى في صورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

فقد دَعَا اللَّهُ المؤمنين في هذا النص إلى أن يَنفِرُوا مجاهدين في سبيل الله ثُباتٍ ـ أي جماعات متفرقة ـ أو جميعاً ـ أيْ: عُصْبَةً واحدة في نفير عامّ ـ وذلك حسب مقتضيات المصلحة.

وأَنْحَىٰ باللائمة على الْمُبَطِّئِين، وهم من المنافقين الموجودين في صفوف المؤمنين، فهم فريق طلاب مغانم، ولكنّهم غير مستعدّين أن يبذلوا أي جهد في سبيل الله، فإذا دعا الداعي إلى الجهاد تباطؤوا ولم يخرجوا، فإذا نال المجاهدين مكروه فرحوا هم بالسلامة، وإذا ظفر المجاهدون وغنموا ندموا هم وتحسّروا على أنفسهم، وقال قائلهم: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، ويعتبر الغنيمة هي الفوز العظيم، لأنه منافق لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يسعى للفوز فيه، ولو كان مؤمناً حقاً لتوقّد إيمانه حرارة فنفى عنه التباطؤ والتكاسل، وخرج إلى القتال في سبيل الله ورجا الشهادة والأجر عند الله.

وقال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

فقد ذمّ الله المنافقين بأنهم لا يقومون إلى الصلاة إلّا وهم كسالى، فمن كان فيه هذا الوصف من المؤمنين كانت فيه صفة من صفات أهل النفاق.

وعلة المنافقين أنهم غير مؤمنين بفائدة الصلاة وجدواها، لذلك فهم إذا اضطرهم نفاقهم أن يقوموا إليها مسايرة للمؤمنين، وحتى لا ينكشف نفاقهم، قاموا إليها متباطئين كُسالى.

بخلاف المؤمنين الصادقين فإنهم يقومون إلى الصلاة بهمة ونشاط، ورغبة صادقة، ولذلك وصف الله المؤمنين الصادقين بأنهم يقومون إلى التهجد في الليل أو إلى صلاة الفجر تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وهذا عنوان مصارعة همتهم لحاجة أجسادهم إلى الراحة والنوم، فقال تعالى في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

همة الرسول ﷺ في عباداته:

وقد كان الرسول ﷺ صَاحِبَ هِمَّةٍ عَالِيَةٍ جدّاً في عباداته، كان يقوم من الليل حتى تتورّم قدماه.

روى النسائي بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف قال: إنّ رجلًا من أصحاب رسول الله قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ: والله لأرقبنّ رسول الله ﷺ للصلاة حتى أرى فعله، فلمّا صلّى العشاء وهي الْعَتَمَةُ، اضطجع هَوِيّاً من الليل[1]، ثمّ استيقظ فنظر في الأفق فقال:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾. (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

قال: ثم أهوى رسول الله ﷺ إلى فراشه، فاستلّ منه سواكاً، ثمّ أفرغ في قدح من إداوة عنده ماءً

---

(١) هوياً من الليل: أي زماناً منه.

فاستنّ[١]، ثمّ قام فصلّى، حتى قلت: قد صلّى قدر ما نام.

ثمّ اضطجع حتى قلت: قد نام قدر ما صلّى، ثمّ استيقظ ففعل كما فعل أوّل مرّة، وقال مثل ما قال.

ففعل رسول الله ﷺ ثلاث مرّاتٍ قبل الفجر.

كل هذا يفعله ﷺ من علوّ همته مع أنّ الله تعالى قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وأعطاه أعظم الدرجات، ولكن الرسول ﷺ كان عبداً شكوراً لربّه، كما قال هو.

وروى البخاريّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام، حتّىٰ هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ. قيل: وما هممت به؟ قال هممت أن أجلس وأدعه.

وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثمّ

(١) فاستن: أي فاستاك بالسواك.

افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسّلًا إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ. ثمّ ركع، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد» ثم قام قياماً طويلًا قريباً ممّا رَكَعَ، ثُمّ سَجَد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال:

«أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكونَ عَبْداً شَكُوراً»!!

وكان من علوّ همته صلوات الله عليه، يحيي معظم اللَّيْلِ في بعض مواسم العبادة، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخَلَ العشر أحيى اللّيل، وأيقظ أهله، وَجَدَّ، وشَدَّ الْمِئْزَرَ».

والمراد من العشر العشر الأواخر من رمضان، تحرّياً لليلة القدر.

والمراد من شدّ المئزر: تَشْمِيرُهُ للعبادة وبعده عن معاشرة النساء.

التكاسل عن العبادات من وساوس الشيطان:

ولمّا كان الشيطان عدوّاً للإنسان، وكَانَ يَكْرَهُ مِنْه الإِيمانَ وعِبَادَةَ الله والأعمالَ الصَّالِحَةَ، كان من وسائله تَثْبِيطُ الْهِمَمِ عَنِ الْعِبادَة، والوسوسةُ بما يميل بالنفس إلى الكسل.

ومن أعماله أنه يعقد على قافية رأس الإنسان إذا هو نام، ليمنعه من اليقظة والنهوض إلى عبادة الله في جوف الليل. وقافية الرأس قفا الرأس ومؤخّره. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَىٰ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ. فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ. فَإِنْ صَلَّىٰ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ».

فهي عقد كسل مضروب عليها بوساوس شيطانية، ومتى تراكمت على الإنسان صارت خَبَلًا، وقد عبّر الرسول ﷺ عن الْخَبَلِ المقْعِدِ عن النشاط والهمة إلى طاعة الله وعبادتهِ بأنه أَثَر خَبيثٌ من آثار وساوس الشيطان.

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجل، فقيل له: ما زال نائماً حتى أصبح، ما قام إلى الصلاة، قال:

«ذَلِكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ» أو قال: «فِي أُذُنَيْهِ».

فمن لطائف التوجيه الإسلامي رَبْطُ الْكَسَلِ وظَواهِرِهِ بِالشَّيْطانِ، وتربية المسلمين على مدافعة كُلِّ ظَواهِر الكسل.

* * *


http://al-maktabeh.com

المقولة الثالثة

الحياء من ظواهر علوّ الهمّة

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الحياء، فالحياء ظاهرة تعبّر عن الخوف من الظهور بمظاهر النقص، وتعبّر عن ترفّع النفس عنه، وعدم الرضى به وإن مستها بعض عوارضه، وتعبر عن علّو همّة النفس إلى الكمالات، ونفورها من النقائص وكراهيتها لها، وحذرها من أن تظهر أمام الناس ببعض مظاهرها.

فالإِنسان لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْكَمَالِ إذا هُوَ ظَهَرَ بِه واتَّصَفَ بِصِفَاتِه، وإنَّمَا يستحيي مما فيه نقص، أو مما يخشى أن يكون فيه نقص. لذلك فالحياء من علّو النفس، وحبّها للكمال وحرصها على أن تتصف بصفاته، وتظهر أمام الناس بالمظاهر التي تدل عليه.

وقد نلاحظ بعض الناس من الذين يغلب عليهم الحياء يستحيون من أمور لا نقص فيها، وليس من شأنها أن يُستحيى منها، ولكن ذلك يرجع إلى سوء فهمهم

لبعض الأمور، أو إلى عدم تقديرهم الأمور حقّ قدرها. فالانفعال الخلقي الذي يكون التعبير عنه بظاهرة الحياء انفعالٌ صَادِقٌ، والمحرّك له في النفس علّو الهمة، الذي ينشأ عنه في بعض جوانبه النفور من النقص، وكراهية الظهور بشيءٍ من مظاهره، أو الخوف من الاتصاف أمام الناس ببعض صفاته. ولكنّ الذي قد يحدث أن الفكر ربّما يقدّم للنفس مفاهيم خاطئة، مستندة إلى أوهامٍ أو تقاليد فاسدة، والفكر بالنسبة إلى النفس هو مرجعها ومحلّ ثقتها، فتنفعل النفس وتستجيب استجابة صادقة لهذه المفاهيم الخاطئة، فالمسؤول عن ظاهرة الحياء في غير محله مفاهيم الفكر الخاطئة. ولكن حين يجري تصحيح هذه المفاهيم لا يستحيي ذو الحياء مما لا يُستحيى منه، بل يواجه الناس به بكل جرأة وشجاعة.

ونظير ذلك انفعال الخوف، فمن الناس من يخاف من أمور وهمية تجسّمت في تخيّلاته، والمسؤول عن هذا الخوف الذي هو في غير محله أوهام الفكر. أمّا الانفعال النفسي فهو صادق تجاه ما قدّمه الفكر من أمور زعمها للنفس حقائق وهي ليست بحقائق، وإنما هي أوهام كاذبة، وكما أن الخوف يبقى على طول الخطّ انفعالًا ممّا يُخْشَى منه الضرر أو الأذى، فإنّ الحياء يبقى على طول

الخطّ انفعالًا يثيره ما في النفس من همّةٍ عالية، تحبّ الكمال، وتحرص على أن تتصف بصفاته، أو تظهر بالمظاهر التي تدلّ عليه.

من أجل هذا قرّر الرسول ﷺ أنّ الحياء من الإِيمان، وأنه خيرٌ كلُّه. فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنّ الحياء من الإِيمان».

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن عمران بن حُصَيْنٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ» وفي رواية: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ».

ومن المشاهد المجرب أنّ خلق الحياء يمنع صاحبه عن ارتكاب النقائص والقبائح والمنكرات، وأما حينما ينعدم خلق الحياء، فإنه يهون على الإنسان أن يفعل من النقائص والقبائح والمنكرات ما يشاء. وإعلاناً عن هذه الحقيقة جاء في كلام الرسول ﷺ.

«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

(رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود).

ففقد خلق الحياء يجعل الإِنسان وقحاً، وماجناً يجاهر بقبائح فعاله دون أن يبالي أحداً، ودون أن يكترث بما يقوله الناس فيه، وبما يعيبونه به، ومن الوقاحة والمجانة أن يتحدث الإِنسان بما فعل من القبائح التي سترها الله عليه.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىً إِلّا الْمُجَاهِرُونَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ عَمَلًا بِاللَّيْلِ ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ. فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ».

أما الحياء فيحجز المرء عن الفواحش، ويجعله يتستر بها إذا هو كَبَا فسقط في شيءٍ من أَوْحَالِها، ويَجْعَلُه بعيداً عن فُحْشِ الْقَوْلِ والبذاءة.

والحياء يدفع المرء إلى التحلي بكل جميل محبوب، والتخلّي عن كلّ قبيح مكروه. والجمال من الكمال، والقبح من النقصان، وجمال الخصال والأفعال أسمى من جمال الرُّسُومِ والأشكال.

لكل ذلك حثّ الإِسلام على التحلي بخلق الحياء،

والبعد عن كلّ وقاحة ومجانة وفحش وبذاء، وفيما يلي طائفة من أقوال الرسول ﷺ في هذا:

أ ـ روى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، والْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، والْجَفَاءُ فِي النَّارِ».

فالجفاء يهوّن على الإنسان أن يكون فاحشاً بذيئاً، وهذا لا يكون إلّا من وقح، والله يُبْغِضُ الفاحش البذيء.

ب ـ وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أَثْقَلَ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُلُقٌ حَسَنٌ، وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح).

ج ـ وروى البيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرنَاءُ جَمِيعاً، فَإِذا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ».

وفي رواية عن ابن عباس: «فَإِذَا سُلِبَ أَحَدُهُمَا تَبِعَهُ الْآخَرُ».

د ـ والحياء من صفات الله عزّ وجل، فقد روى الترمذي وأبو داود والبيهقي في الدعوات الكبير، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يُرِدَّهُمَا صِفْراً».

أمّا وجود ظاهرة الحياء عند غير المؤمنين، فهي مرتبطة بما يقول الناس عنه هذا عيب أو نقص. إنّ المؤمن إذا خلا بينه وبين نفسه اسْتَحيى من ربّه أن يفعل النقائص والقبائح، أما غير المؤمن فإنه لا يجد شيئاً من الشعور بحياءٍ من هذا القبيل، جُلُّ ما في الأمر أنه قد يستحيي ممّا يقول الناس عنه هذا عيب أو نقصٌ، فهو يحرص على أن يكون كاملاً في أعين الناس، وليس له عناية بالكمال الحقيقي الذي ترتبط مفاهيمه بالإِيمان.

هذه واحدة، وأخرى أنه على مقدار بقايا مواريث الإِيمان في أمةٍ من الأمم، تبقى فيها بقايا من الحياء، أمّا الأمم الملحدة الكافرة بكلّ القيم الإِيمانية فإنه لا يوجد لديها أيّ أثرٍ للحياء، إلاّ ما يرتبط بمصالحهم الخاصة، لذلك نَجِدُهُمْ يفعلون كلّ الجرائم والقبائح والمنكرات بوقاحة عجيبة لم تَعْرِفْها الإِنسانية في تاريخها الطويل.

وإمعاناً في الوقاحة يسمّون جرائمهم الإِنسانية المنكرة تطوراً في تقنية القمع، أو التكنيك الحربي،

ويُسمّون قبائحهم وخبائثهم وفواحشهم تقدماً ومدنية، ويحاولون أن يدفعوا البشرية إلى حمأة كلّ رذيلة مهلكة للبشرية، بدعوى الخوف من الكبت، ويزينون ذلك للشباب الحائر الثائر، حتى يقذفوا به إلى المهالك، ويفعلون فعل من يداوي الصداع العارض بقطع الرقاب، ويقولون لهم: إنّ الحياء والخجل ضعف في النفس، وجبنٌ عن مواجهة الحقائق الواقعية، وما على الشاب التقدمي إلاّ أن يكون جريئاً في تلبية دوافعه النفسية مهما كان شأنها، غير مبال ديناً ولا تقاليد ولا عادات اجتماعية، وعندئذٍ يكون شجاعاً حقّاً، وفي الصف التقدمي الأول. هذا ما يوسوسون به، إنه تقدم، ولكن إلى ماذا؟ إنّه تقدّم إلى كل تهلكة، تقدّم إلى تقويض صرح الحضارة الإِنسانية، تقدّم إلى الجحيم، وإلى كل عذاب أليم.

هذه هي تقدّمية الملحدين الوقحة، لقد فقدوا كل شيءٍ من عناصر الإِيمان ففقدوا بذلك كلّ دافع من دوافع الحياء، فانطلقوا في كلِّ رِجْسٍ من أرجاس الأخلاق والأفعال.

حياء موسى عليه السلام:

جاء في وصف موسى عليه السلام أنّه كان حييّاً

سِتّيراً، حتى كانَ يَسترُ بدنه، ويستحيي أن يُظْهِرَ مما تحت الثياب شيئاً حتى مما ليس بعورة. وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بني إسرائيل في أقوالهم، فقالوا: ما يُبَالِغُ في سَتْرِ نفسه إلا من عيب في جسمه، أو من أُدْرَةٍ[1] هو مصاب بها.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتّيراً، لَا يُرَىٰ شَيْءٌ مِنْ جِلْدِهِ اسْتِحْيَاءً، فآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا تَسَتَّرَ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلّا مِنْ عَيْبٍ أَوْ أُدْرَةٍ، وَإِنّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبرِئَهَ، فَخَلَا يَوْماً وَحْدَهُ لِيَغْتَسِلَ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَىٰ حَجَرٍ، فَفَرّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَجَمَحَ مُوسَىٰ فِي إِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي يَا حَجَرُ، ثَوْبِي يَا حَجَرُ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَىٰ مِنْ بَأْسٍ، وَأَخَذَ ثَوْبَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدْباً مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاثاً أَوْ أَرْبعاً أَوْ خَمْساً».

وحياء موسى الزائد كان من همته العلية التي تنشد

---

(١) الأُدْرَةُ: هي انتفاخ في الخُصى بسبب فتق.

الكمال، وقد رأى في ذوقه الرفيع أنّ سَتْر بَدَنِه أكْثَرُ كَمَالًا مِنْ كَشَفه، فكان يَسْتحيي من كشفه للناس.

حياء محمد ﷺ:

وقد كان الرسول ﷺ شديد الحياء، أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال:

«كان النبي ﷺ أشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَىٰ شَيْئاً يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ».

ومن حيائه أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً في الأسواق، لأن هذه الأمور تنافي الكمال، وهو صلوات الله عليه ذو همة عالية تتطلّع إلى كل كمال.

روى الترمذي عن عائشة قالت:

«لم يكن رسول الله ﷺ فَاحِشاً وَلَا مُتَفَحِّشاً وَلَا سَخَّاباً[1] فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو ويَصْفَحُ».

وروى البيهقي في دلائل النبوة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنّ يهوديّاً يقال له فلانٌ حبر، كان

---

(١) سخاباً: صيّاحاً.

له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى النبي ﷺ فقال له: «يَا يَهُودِيّ مَا عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ». قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني، فقال رسول الله ﷺ: «إِذاً أَجْلِسُ مَعَكَ». فجلس معه، فصلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يَتَهَدَّدُونَهُ وَيَتَوَعَّدُونَهَ، فَفَطِنَ رَسُولُ الله ﷺ مَا الّذِي يَصْنَعُونَ بِه، فقالوا: يا رسول الله، يَهُودِيٌّ يحبسك؟! فقال رسول الله ﷺ: «مَنَعَنِي رَبِّي أَنْ أَظْلِمَ مُعَاهَداً وَغَيْرَهُ» فَلَمَّا تَرَجَّلَ النَّهَارُ[1] قال الْيَهُودِيُّ: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّك رسول الله، وشَطْرُ مَالِي فِي سَبِيلِ الله، أما والله مَا فَعَلْتُ بِكَ الذي فَعَلْتُ بك، إلّا لِأَنْظُرَ إِلَىٰ نَعْتِكَ فِي التَّوْرَاة، محمد بن عبد الله، مَوْلِدُهُ بِمكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ بِطَيْبَةَ، وَمُلْكُهُ بِالشَّام، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غلِيظٍ وَلَا سَخّابٍ فِي الْأَسْواقِ، وَلَا مُتَزَيٍّ بِالْفُحْشِ وَلَا قَوْلِ الْخَنَا، أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وأَنّكَ رسولُ الله، وهَذَا مَالِي فَاحْكُمْ فِيه بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَكَانَ الْيَهُودِيُّ كَثِيرَ الْمَالِ.

* * *

(١) ترجّل النهار: أي ارتفع.

المقولة الرابعة

الترفع عن محقرات الأمور وصغائرها ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، والزهد في الدنيا

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الترفع عن محقّرات الأمور وصغائرها، ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، فالتعلّق بمحقرات الأمور من دناءة النفس وانحطاط همّتها، ولا يفعله كبار القلوب والنفوس، لأنّ هؤلاء تكون نظراتهم آخذة في طريق صاعدة، ومتطلعة إلى آفاق المعالي.

ومن تدبّر حقائق الأمور وانطلق من هذا المنطلق الخلقي الكريم وكان مؤمناً بالله واليوم الآخر إيماناً كاملًا؛ وجد الحياة الدنيا وما فيها من زينة ومتاع أموراً صغيرة قليلة القيمة، لا تستحقّ في نظره الحرص عليها، وإيثارها على ما عند الله من أجرٍ عظيم في جنّاتِ النعيم. فإذا دعاه الواجب الرباني إلى بذلها أو الزهد فيها بذلها في

سبيل الله وزهد بها، وإذا دعاه الواجب إلى القناعة بما يتيسّر له منها بطريق ليس فيه معصية لله، أو إضرارٌ بالناس، أو تفاخرٌ عليهم وتكاثر، كان من أهل القناعة والرضى، لأنّ همته العالية قد تجاوزت حدود هذه الفانيات وتعلقت بالباقيات الخالدات المسعدات حقاً، إذ علم أن أعظم ما في الحياة الدنيا من نعيم لا يعادل قطراتٍ من بحر نعيم الدار الآخرة، وأن أعظم ما في الدنيا من مصائب وشدائد يهون أمام نعيم دار الآخرة، ولا يُعادل مقدار شرارة صغيرة من عذاب جهنّم.

الزهد في الدنيا:

فمن عرف هذه الحقائق وآمن بها فلا بدّ أن يزهد بعرض الحياة الدنيا ويقطع علائق قلبه منه، ترفعاً إلى ما هو أجلّ وأعظم، وأكرم وأبقى.

ولكن ليس معنى الزهد المطلوب ترك السعي في عمران الدنيا، وإعلاء بنيانها الحضاري، وترقية وسائلها، والانتفاع من خيراتها، بل الزهد الذي يتطلّبه الإِيمانُ باليوم الآخر إنّما هو عدم تعليق همّة القلوب والنفوس بمتع الحياة الدنيا وزخارفها وزينتها، وهذا الزهد المطلوب يستلزم تسخير ما يصل إلى يد الإِنسان منها في طاعة الله التي تحقق له يوم القيامة الثواب العظيم، الذي

يصغر ويتضاءل أمام نعيمه كلّ متاعٍ عاجل مهما جلّ وعظم.

وليس معنى الزهد المطلوب ترك الاستمتاع بما أحل الله من متاع الحياة الدنيا، فالاستمتاع المعين على القيام بالواجبات والبعد عن المحرمات، والمقرون بالنية الصالحة، عمل محبوب مرغوب في الإِسلام، وهو في الحدود المعتدلة التي لا إفراط فيها ولا إسراف من العبادات، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني توجيه للتعجب من تحريم زينة الله التي أخرج لعباده، وللتعجب من تحريم الطيبات من الرّزق، إعلاناً عن أن إباحة هذه الزينة وهذه الطيبات من الرّزق من الأمور البدهيّة المعلومة بداهة من شريعة الله، ولكن إباحتها لا تعني الانغماس فيها،

والافتتان بها، والانصراف الكليّ إليها، ونسيان الله والدار الآخرة أو السعي إلى تحصيلها بمعصية الله، أو منع حقّ الله فيها، فكلّ ذلك يخرجها عن كونها زينة مباحة، على أنّ علوّ همة المؤمن يوجهه لمطامع أجلّ وأسمى، ويجعله دائم الطلب والشوق لما عند الله.

فهو يأخذ من نصيب الدنيا ما يجتاز به رحلة هذه الحياة سالماً غانماً، دون أن يتعلّق به كل التعلّق، أو يميل إليه كلّ الميل.

هذا حال المؤمن عالي الهمّة، يأخذ نصيبه من الحياة الدنيا ضمن الحدود التي أذن الله بها، وقلبه وحبّه وشوقه ومطالبه الساميات معلّقة بما أعدّ الله للمتقين في الدار الآخرة من خيرات حسان، وهذا هو الزهد المطلوب من المؤمنين، إنه زهد القلوب واستصغار ما في الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما في الدار الآخرة. وهذا التصوّر الصحيح مع أثره في النفوس والقلوب يجعل المؤمن العاقل يوجه معظم طاقاته وأنواع نشاطه إلى ما يحقق له يوم القيامة مَطْمَعاً أجلّ وأعظم، وليس من شأن هذا التوجيه أن يفسد مصالح الدنيا، بل من شأنه أن يزيدها ارتقاءً، ويجعلها مشمولة بنسبة أعظم من سعادة المجتمع الإِنساني كلّه.

بخلاف التعلّق الكلي بالدنيا ومتاعها ولذاتها فإنه ينمي الحَسَدَ والتنافس بين الناس، وينتهي بالمجتمعات الإنسانية إلى الفساد وسفك الدماء وخراب العمران، ولذلك فإن من جعل كلّ همّه مرتبطاً بالحياة الدنيا وزينتها، فإنّ الله يعطيه منها على مقدار عمله وما قسم له، ثمّ لا يجعل له يوم القيامة نصيباً من النعيم المقيم، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فما كانوا يعملونه في الدنيا قد كان من أجل الدنيا، وقد وفّى الله إليهم أعمالهم فيها ضمن قوانين كونه وسُننه الثابتة، وحينما يأتي يوم الجزاء لا يجدون من أعمالهم التي عملوها من قبل إلّا الكفر بالدار الآخرة وما فيها وما يتصل بذلك، ولذلك يكون جزاء كفرهم وسوء أعمالهم النار. أمّا الأعمال النافعةُ في الدنيا فقد ظهر بطلانها يوم الجزاء، لأنهم لم يعملوها ابتغاء مرضاة الله، ولا طلباً لما في الدار الآخرة من نعيم مقيم. لقد كانت الدنيا همّهم ومطلَبَهُمْ فنالوا منها حظوظهم على قدر أعمالهم، ولم تكن هِمَّتُهُمْ عالية متطلعة إلى ما هو أجل وأسمى من

كل ما في الدنيا، حتى ينالوا منه ما يَرْجُونَ من ربهم.

فدلّ النصّ على أن الأعمال التي يُراد بها ثمرات الحياة الدنيا فإنّ ثمراتها تتحقق للعاملين من غير نقصان، فهي سنة من سنن الله الثابتة، ولكن ما أريد به الدنيا فلا ثمرة له في الآخرة، ويدخل في هذا أعمال المرائين وأعمال الكافرين.

روى مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، ويُعْقِبُهُ رِزْقاً فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ».

وثبت في المرائين أن أعمالهم تَحْبَطُ يَوْمَ الدين، وأنّ أجورهم على ما عملوا قد أخذوها مِمَّنْ عَمِلُوا لهم في الدنيا، منها ثناء المثنين، ومدح المادحين، وما أصابوه من تعويض على ما بذلُوهُ ضِمْن سنة الثمرات الدنيوية.

خطأ في مفهوم الزهد:

ويفهم بعض الناس الزهد فهماً خاطئاً، إذ يرون أن الإِسلام يحب الفقر للمسلمين ويدعوهم إلى تفضيله وإيثاره، فيجعلهم هذا التصوّر الخاطىء يبطّئون همتهم عن العمل والإِنتاج وعمران الدنيا، ويرغبون في اللّجوء

إلى الزّوايا والتكايا والصوامع بزعم التفرغ للعبادة وإيثار عمل الآخرة، ويصابون بعد ذلك بداء الكسل والإِخلاد إلى الراحة، وداء الطمع بعطاءات الناس ومِنَحِهم، وما يبذلونه لهم من مآكل ومشارب.

وسبب خطئهم أنهم لم ينظروا إلى جملة النصوص الإِسلامية التي يكمّل بعضها بعضاً، لقد تعلقوا بنصوص التزهيد في الدنيا وأساؤوا فهمها، ولم ينظروا إلى نصوص الحث على العمل والكسب وعمران الدنيا والأخذ بأسباب القوة، ونصوص الحث بعد ذلك على البذل في سبيل الله بعد الكسب الحلال زهداً في الدنيا وابتغاءً لرضوان الله.

إنّ من الواجب لدى بحث أي موضوع جزئي من الموضوعات الإِسلامية أن ينظر الباحث إلى النصوص المتعلقة به، والنصوص المتعلقة بما يقابله، وسائر النصوص التي لها ارتباط بالموضوع الكلي الشامل للموضوع الذي يبحث فيه ولغيره من الموضوعات، مع نظرة شاملة إلى الإِسلام بوجه عام. بهذه النظرة الشاملة يظهر مكان الموضوع الجزئي، وتظهر حدوده، وقيوده وشروطه، ومفاهيمه الصحيحة، ويكون الباحث أبعد عن الخطأ في الفهم، ولا يأخذ الموضوع الجزئي في تصوّره

أكثر من حدوده ضمن الساحة العامة المخصصة للموضوع الكلي، من أصل الخريطة العامة للإِسلام ومفاهيمه الكلية والجزئية.

فمن أراد أن يبحث مفاهيم الزهد الذي رغب الإِسلام فيه، فعليه أن يبحث أيضاً مفاهيم العمل الذي رغب الإِسلام فيه أيضاً، وربى المسلمين عليه، من زراعة وصناعة وعمران وتنمية لمختلف الثروات، وخدمات اجتماعية، وغير ذلك من أعمال كثيرة فيها إنتاج أو استثمار أو خدمة أو إصلاح وتحسين حضاري. وعليه أن يبحث أيضاً دعوة الإِسلام إلى البذل والعطاء، ودعوته إلى التخفف من الانغماس في تناول الشهوات واللذائذ الدنيوية، التي تورث القلوب الغفلة عن الله، والقسوة المجففة لمنابع الرحمة فيها، والتي تنفخ في النفوس الخفة والطيش والشره الزائد إلى المتع العاجلة، والبطر القاتل، وتنفخ فيها الكبر والعجب بالنفس، والاستعلاء على الناس، والاستهانة بما هو سبيل السعادة الأخروية، ثم تدفع بها إلى مواقع الطغيان، والتي تغشّي الفكر فتحجبه عن كثير من الحقائق، وتجعل ذكاءه ألعوبة في أيدي الأهواء والشهوات، وأداةً تُسخّر للشّره والكبر والعجب والطغيان.

فدعوة الإِسلام إلى الزهد في الدنيا ليست دعوة إلى ترك العمل والإِنتاج والاستثمار، وليست ترغيباً بالفقر والضعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء، والبعد عن رذائل البخل والشحّ، ومسبّبات قسوة القلب، والكبر والعجب والاستعلاء على الناس والطغيان والاستهانة بالفضائل، وما ينجم عن ذلك من انحطاط كبير عن مراتب الكمال الإِنساني في الفكر والنفس والسلوك.

ودعوة الإِسلام إلى الزهد في الدنيا دعوة إلى القناعة بما قسم الله من رزق، والالتزام بما أذن الله من كسب، وتربية على العِفَّةِ عمّا في أيدي الناس، وعدم الطمع بما لدى الآخرين، وعدم النظر إليه بِحَسَدٍ ورغبةٍ بامتلاكه.

ودعوة الإِسلام إلى الزهد في الدنيا دعوة إلى أن يصرف المؤمن قلبه عن التعلّق بالأشياء الدنيوية لِذَاتِها أو للَذَّتها، كي يتوجه شطر الآخرة ومحبة الله وابتغاء مرضاته، حتى إذا رأى المؤمن أن مرضاة الله تتحقّق بالتخلي عن عَرَض الحياة الدنيا تخلى عنه ابتغاء مرضاة الله، وإيثاراً لثواب الآخرة. وهكذا يستطيع المؤمن الصادق أن يكون قلبه غير متعلّق بزينة الحياة الدنيا، وما فيها من مالٍ ومتع وتفاخر وتكاثر، مهما كان في يده من

ذلك، بل يستخدم كلّ ما يجنيه للظفر بنعيم الآخرة ومجدها، ولا يبطئه ذلك عن العمل والكسب، لأن العمل والكسب عندئذ من أفضل العبادات، وهو أفضل من التفرغ للعبادات المحضة بنسبة عظيمة، فمن تفرغ ليكون كلًّا على غيره، وهو يزعم أنه قد تفرغ للعبادة فإن من ينفق عليه هو أفضل منه.

أما من تفرغ للعلم وإرشاد الناس وتعليمهم فهو عامل في أشرف الأعمال وأفضلها، وعلى الأمة أن تكفيه معاشه، وهو من أزهد الناس في الدنيا متى كان صادقاً مع الله.

هذا المفهوم الإسلامي الصحيح إنما نتوصل إليه بعد النظر الشامل إلى النصوص الإسلامية المختلفة وبعد التصور الشامل لمفاهيم الإسلام.

التربية الإسلامية على الزهد في الدنيا تطلعاً إلى الآخرة ومنازلها العالية:

وقد عمل الإسلام على تربية المسلمين بمختلف الوسائل التربوية، لاكتساب هذه الظاهرة من ظواهر خلق علو الهمة:

١ ـ فاتخذ الإسلام لذلك وسيلة الإقناع بحقيقة ما في الدار الآخرة من كمالات عظيمة ونعيم مقيم، للذين يطلبونها ويسعون لها سعيها وهم مؤمنون، والإقناع

بحقيقة الحياة الدنيا، وأنها مزرعة للآخرة، وأن مدتها قليلة ضئيلة بالنسبة إلى الخلود المقرر للآخرة، وأنّ كل نعيم فيها مهما عظم فهو قليل ضئيل سريع الزوال مغموس بالأكدار والمنغصات، وهو في جوهره بالنسبة إلى ما في الآخرة حقير لا يؤثره ويفضله على ما في الدار الآخرة إلاّ كافر بها، أو منحط الهمة قاصر النظر، يؤثر العاجلة ويذر الآخرة.

ولذلك جاء وصف الآخرة بأنها دار القرار ودار الخلود، وبأنها لهي الحيوان، وبأنها دار المقامة.

قال الله تعالى حكاية لقول موسى لقومه في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾.

أي: دار الاستقرار والثبات.

وقال الله تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول).

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾.

أي: لهي الحياة الباقية الخالدة الحقّ التي لا فناء فيها ولا زوال.

* * *

٣٠١٣٠٩

الفصل السابع

بعض ظواهر خلُقيّة لأكثر من أصل خلقي

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: العفة وضدّها.

المقولة الثانية: الشجاعة والجبن.

المقولة الأولى

العفة وضدّها

العفة: هي كفّ النفس عن المحارم وعمّا لا يجمل بالإِنسان فعله. ومنها: العفة عن اقتراف الشهوة المحرمة، وعن أكل المال الحرام، وعن ممارسة ما لا يليق بالإِنسان أن يفعله ممّا لا يتناسب مع مكانته الاجتماعية، وممّا يراه الناس من الدناءات، كالجشع في الولائم والتسابق على أطايب الطعام، وكالجشع في التجارة ومزاحمة صغار الكَسَبة في مجالاتهم الحقيرة القليلة الموارد والأرباح، وكالتعرّض لمحقرات المنافع عن طريق التطفّل أو ما يشبه التطفّل إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

ويأتي في مقابل العفة الدناءة والخسة في كثير من صورها.

والعفة من مكارم الأخلاق، والدناءة والخسة وكلّ ما ينافي العفة من رذائل الأخلاق.

ولدى تحليل دوافع العفة نجدها ترجع إلى أكثر من أساس خلقي، وذلك لأننا إذا وضعنا المثيرات، ونظرنا

إلى دوافع النفس تجاهها، ثم نظرنا إلى القوة الضابطة التي تضبط النفس عن تلبية دوافعها فيما لا يحل أو فيما لا يجمل بالإِنسان فعله، تكشفت لنا مجموعة من العوامل التي ترجع إلى مجموعة من الأسس الأخلاقية.

ولنفرض أنّ في ساحة الإِثارة امرأةً ذات منصب وجمال وهي تدعو إلى نفسها، وأن في ساحة النفس رجولة وشباباً وحيويّة، والفضيلة العامة توجب الامتناع عن تلبية دافع النفس، فما هو الخلق الذي يضبط النفس ويملكها عن تلبية الدافع في مثل هذا الموقف الحرج، حتى يكون الإِنسان عفيفاً أو متعفّفاً؟

ولدى التحليل نلاحظ أن عدّة عوامل قد تتدخل في هذا المجال، منها الصبر، ومنها الخوف من عاقبة تلبية الدافع، ومنها الطمع بثواب الكفّ، ومنها حب الحقّ الذي يجعل صاحبه يكفّ عمّا لا حقّ له به.

فبمقدار ما لدى الإرادة من قدرة على الصبر تستطيع القيام بضبط النفس عن تلبية الدافع الْمُثار، فتكون العفة عندئذٍ من مظاهر خلق الصبر، وحين يكون الضبط بتأثير الخوف من العاقبة، أو بتأثير الطمع بالثواب، تكون العفّة من مظاهر ذلك، وحين يكون الضبط بتأثير خلق حبّ الحقّ تكون العفّة من مظاهره وحين تجتمع كلّ هذه

العوامل تكون العفة مظهراً اشتركت فيه جملة أسس أخلاقية.

والعفة لا تكون إلّا إذا وجد الدافع النفسي إلى ما ينافيها، فإذا لم يكن في النفس دافع إلى ما ينافي العفة، أو لم يوجد ما يثير الدافع لم يكن للعفة وجودٌ أصلًا.

فأي معنى لعفّة من لا إرْب له، أو لعفة معتزل في صومعة لا يتعرّض إلى أي مثير؟! إنّها عفة المحروم، أو عفّة عاجزٍ لم يتعرّض لامتحان.

ولمّا كانت عفّة يوسف عليه السلام عفّةً مستوفية كلّ شروطها وأركانها كانت من أعظم أمثلة العفة في تاريخ الإِنسان. ففي يوسف الرجولة والشباب والدافع القوي، وفي امرأة العزيز الإِثارة بكلّ قواها، جمال ومنصب، وإغراء كامل، ودعوة ملتهبة، وخلوة تامة، وتهديد إن لم يستجب. مع استيفاء كلّ هذه العوامل القوية تبرز فضيلة العفّة في يوسف عليه السلام، فيضبط نفسه بصبر منقطع النظير، ويقاوم الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية، ترفّعاً عن الخيانة، وطلباً لمرضاة الله، وينتصر خلقه العظيم في معركة الدوافع والمغريات والتهديدات.

وقد عرض القرآن قصة يوسف مع امرأة العزيز أروع عرض يبرز الساحة النفسية عند يوسف، وساحة الإِثارة

بكلّ ملابساتها، وقوة الضبط الخلقي الذي جعل يوسف عليه السلام يكفّ عما لا يحلّ له، ويعطي أروع أمثلة العفة، فيقول الله تعالى في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول).

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وهكذا كانت عفّة يوسف عليه السلام مستوفية لكامل شروطها وأركانها، وبذلك نَالَ مَجْدَ هذا الخلق العظيم.

وقد أمر الله بالعفة الذين لا يجدون قدرة على النكاح، حتى يُغْنِيَهُمُ الله من فضله، ولم يأذن لهم بالتفريط فيها عند حاجتهم العضوية، فقال تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: فليلْزموا جانب العفة، ولا يفعلوا ما لم يأذن به الله. والذين لا يجدون نكاحاً هم الذين لا يجدون قدرة مالية على الزواج. وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إشارة إلى أنهم إذا التزموا جانب العفة أغناهم الله من فضله، فيتهيأ لهم بذلك زواج مُنَاسِبٌ لهم.

تعفف الفقراء عن المسألة:

وتكون العفّة في مجالات مغريات النفس المالية، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الفقراء المتعففين عن المسألة، وأوصى بالبحث عنهم وتعهّدهم بالعطاء، فقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

الإِلحاف: هو شدّة الإِلحاح في المسألة، وشدّة الإِلحاح في الطلب، يقال لغة: ألحف السائل إذا ألحّ في

الطلب؛ فمعنى ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ﴾: لا يُلحون في طَلَبِ الصَّدَقَةِ مِنَ النَّاسِ.

وأرشد الله إلى أن هؤلاء المتعففين يُعرفون بسيماهم، فقال: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾، فكيف تكون هذه المعرفة لهم مع أنهم متعففون؟.

ويمكن أن نجيب بأنّ للفقر الحقيقي علامات تظهر على الإِنسان الفقير المتعفف، كما تظهر على أسرته، في الطعام، والملبس، والمسكن، وفي حالة الجسم بشكل عامّ، وفي مراقبة موارد رزقه، إلى غير ذلك من علامات.

وعلى المسلمين أن يبحثوا عن أحوال الفقراء المتعففين، ويمدّوهم بحقوقهم التي فرضها الله في أموال الأغنياء، فهم لا غرو يُعرَفون، يعرفهم من كان دقيق الملاحظة جيد الفراسة، إلّا أنّ الجاهل هو الذي يحسبهم أغنياء من التعفف، وهذا ما نبّه عليه القرآن.

التعفف عن كل ما وهب الله الآخرين:

ومن العفة عفة الإِنسان عن النظر والتطلع إلى ما لدى غيره من متع الحياة الدنيا، من مختلف الأصناف، وفي ذلك يقول الله لرسوله محمد ﷺ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

والمراد من خطاب الرسول في هذا النصّ خطاب أُمّتِهِ ولا سيما الدعاة إلى سبيل الله والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، لأنه نصٌّ مدنيّ أضيف إلى سورة مكية فقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمونه.

وفي قوله تعالى: [وَلَا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ] أمْرٌ بالعفة، ونَهْيٌ عن مجانبة سبيلها.

«أزواجاً» أي أصنافاً مختلفة من زهرة الحياة الدنيا، فيدخل فيها كلّ ما تمتدّ إليه مطامع الناس: (مال ـ سلطان ـ حدائق وبساتين ـ خيلٌ مسوّمة وأنعام ـ قصور ومساكن طيبة ـ زوجات حسان ـ جاه عريض ـ قوة وجمال ـ أولاد وذرّية) إلى غير ذلك من أصناف مختلفات.

وإذْ أمر الله بالعفة لفت الأنظار إلى ما عنده من رزقٍ هو خير وأبقى، وهذا من عناصر التربية القرآنية الحكيمة، وهي التربية بالتحويل والتصعيد.

وضدّ العفة في هذا المجال الحسد، والعفيف يترفع عن رذيلة الحسد، لأنّه لا يمدّ عينيه إلى ما لدى غيره من زهرة الحياة الدنيا، كما أن غير العفيف الذي يمدّ عينيه إلى شيء غيره هو في الغالب حَسُودٌ، أو ذو عدوان.

ومن لا عفّة عنده يسقط في الخيانة، سواء أكانت خيانة مالٍ أو عرضٍ أو غير ذلك.

والعفيف المتعفف مع حاجته من أهل الجنة، والخوّان من أهل النار، روى مسلم عن عياض بنِ حمارٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ؛ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَفِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ. وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ لَا يَبْغُونَ أهلًا وَلَا مَالًا، والخائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دقّ إلّا خَانَهُ. وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمسْي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ. وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ. ثم قال: والشّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ».

لا زبر له: أي لا عقل له يعقله عن المعاصي والآثام.

الشنظير الفحّاش: هو سيءُ الخلُقِ بذيء اللّسان.

* * *

المقولة الثانية

الشجاعة والجبن

الشجاعة المحمودة هي الإِقدام بعقل في مخاطرة يرجى منها خَيْرٌ أو دفع شرّ.

ويمكن تعريفها بأنها قوة في عزيمة النفس تدفع إلى الإِقدام بعقل في مخاطرة بعمل أو قول لتحصيل خير أو دفع شرّ مع ما في ذلك من توقع هلاك أو مضرة يقيناً أو ظناً.

وبملاحظة قيود هذا التعريف يتبين لنا أن الإِقدام بغير عقلٍ جنون أو شبيه به، وأنّ الإِقدام في غير مخاطرة لا يعتبر من الشجاعة بل هو نشاط وهمة، وأنّ الإِقدام لا لتحصيل خير أو دفع شرّ لا يعتبر شجاعة محمودة، بل هو تهور مذموم.

فالمنتحر يقدم على ما فيه هلاكه، ولكنّ عمله ليس شجاعة، إنما هو جنونٌ أو جنوح في العقل، أو جبن وفرار من مواجهة صدمة عنيفة مؤلمة من صدمات

الحياة، لأنه إقدامٌ لشرٍّ لا خير فيه، بخلاف التضحية بالنفس عن عقل لإِعلاء كلمة الله، ومقارعة أعداء الله، فهو من أعلى مراتب الشجاعة، لأنه جودٌ بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، وهو جود في خير عظيم.

ولدي التأمل بغية تحليل الشجاعة إلى عناصرها النفسية الأساسية نلاحظ ما يلي:

إذا اجتمعت رغبة جامحة بتحقّق مطلوب ما مع غشاوة تحجب صورة المخاوف المرتقبة، أو مع قناعة تهوّن وقوع المخاوف المرتقبة، وقد يقترن بذلك انفعال غضبي، أو انفعال تحدٍّ وتنافس، من ذلك يتكوّن في النفس مركَّبٌ يدفع إلى الإِقدام على المخاطر، وهو ما يسمى بالشجاعة، وعلى مقدار اختلاف نِسَب هذه العناصر تزداد الشجاعة أو تقلّ، ثمّ لا تستمر بعد وقوع الآلام فعلًا إلّا بأن يدعمها خلق الصبر.

وترتقي نسب الشجاعة بعوامل فطرية يكون بها القلب ثابتاً أمام المخاطر، أو متقبِّضاً لا يمدّ الأعصاب بالقوة المطلوبة.

وفي مقابل الشجاعة يأتي الجبن، ويرجع إلى وضوح رؤية المخاوف المرتقبة في التصور ولو على سبيل

التوهم، مع ضعف أو عدم وجود القناعة الخاصة التي تهوّن المخاوف المرتقبة، ومع برود الانفعال الغضبي، وضعف انفعال التنافس أو التحدي، وتزداد نسبة الجبن بعوامل فطرية يكون بها القلب سريع التأثر بالمخاوف أو بتصوراتها ولو كانت أوهاماً غير واقعية.

وحين يفقد الشجاع عنصر الصبر يفقد شجاعته عند نزول الآلام التي لا يصبر على تحمُّلها، فيكون شجاعاً في الأوائل جباناً في الأواخر، فالصبر على تحمّل المكاره التي يجرها الإِقدام عن عقل وحكمة هو الذي يحافظ على استمرار خلق الشجاعة في النفس، وقد تكون الحاجة إلى الصبر مقترنة بأول مراحل الشجاعة.

وقد توجد الشجاعة في الإِقدام إلى مخاطر لا تقضي الحكمة الفكرية السليمة بجواز الإِقدام إليها، لأنّ الخير الذي يرجى أن يتحقق بهذا الإِقدام، أو الشر الذي يرجى أن يدفع بهذا الإِقدام، لا يكافىء تحمّل المخاطر المرتقبة، ولكن ذلك يرجع إلى سوء تقدير صاحب هذا الإِقدام لما هو فيه من أمر، فلا يكون إقدامه من قبيل التهور أو الجنون، بل هو شجاعة حقيقية، إلاّ أنّ الفكر عنده كان مخطئاً في تقديره، فأشبه العمل عمل المتهورين.

* * *

خاتمة

هذا ما اخترتُهُ لهذه الوجيزة من كتابي «الأخلاق الإسلامية وأسسها» راجياً أن يتسنى للقرّاء الذِين يتطلبُونَ المختصراتِ الموجزات، للتعرُّفِ على أمَّهَاتِ القضايا الإسلامية، التي يحرِصُون على معرفتها من الإسلام، إذْ لا يَمْلِكُونَ مُتَّسَعاً في أَوْقاتِهم لِأَن يَقْرَؤوا الموسَّعَاتِ، أو لا يَملكون صَبْراً على قراءتها، إذْ لم يُدَرِّبُوا أَنفُسَهُمْ على حُبِّ القراءة، والاستزادة من المعرفة عن طريقها وعسَى أنْ تَجُرَّهُمْ قراءة المختصرات الموجزات إلى قراءة الكتب النافعة الحاوية على زادٍ علميٍّ واسع، يُشْبِعُ ما في أنفسهم من حَاجَات للإجابة على تساؤلات، أو رغبات في التعرُّف على حقائق الأمور الدِّينية، مؤيَّدَةً بالنُّصُوصِ من مصادر الدِّينِ الكبرىٰ.

وآخِرُ دَعْوَانا أنِ الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

مكة المكرمة — في ١٦ محرم ١٤١٧ هجرية.

و٢/٦/١٩٩٦ ميلادية

عبد الرحمن حسن حبنّكه الميداني

الفهرس